احمد ابراهيم الفقيه

3 مجموعات قصصية



ثلاث مجموعات قصصية

- اختفت النجوم فأين أنت
- اربطوا أحزمة المقاعد
- البحر لا ماء فيه

الطبعة الثانية
1981

احمد ابراهيم الفقيه

ثلاث مجموعات قصصية

■ اختفت النجوم فأين انت
■ اربطوا احزمة المقاعد
■ البحر لاماء فيه

منشورات
قطاع الكتاب والتوزيع والاعلان ـ طرابلس
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية



فـــأيـــن أنــــت

عادت إلى الذاكرة كلمات أغنية شعبية تعود أن يغنيها قديماً مع رفاق الشراب في نزهاتهم خارج المدينة، تحكي عن نجوم اللّيل التي اختفت والحبيبة التي ضربت لحبيبها موعداً ولم تأت، أحس بفرحة الاهتداء إلى هذه الأغنية، فمضى من فوره يدندن بها، وقد تنبه فجأة إلى أنه موهوب في الغناء وأن لصوته جمالاً خاصاً لم يكتشفه ألا هذه اللحظة.

كان قد فرغ لتوه من احتساء كأسين مع صاحب له يسكن هذه الضاحية تعود كلما توفر لديه شيء من الخمر أن يدعوه لجلسة شراب عنده، ولأن البيت ليس بعيداً والقمر يكاد يكون شمساً، وركوب السيارة وهو على تلك الحالة مغامرة ليست مأمونة العواقب، فقد فضل أن يترك السيارة أمام دار صاحبه، وأن يقطع المسافة إلى بيته سيراً على الأقدام.

وصل في طريقه إلى أرض خلاء، تصور على الفور أن هذه الأرض الخلاء بهوٌ كبيرٌ، صالة للرقص ملك يحكم نصف العالم، راودت الملك رغبة عنيفة في أن يرقص، الآن في غيبة الحراس والحاشية لابد أن يستمتع الملك بانفراده، ويتحرر قليلاً من القيود والمراسم والأقنعة، ليرقص في تهور ومجون الشياطين، أو يقفز في الهواء كالأطفال، أو يحجل على قدم واحدة، أو يمشي على يديه بدلاً من قدميه. نشر ذراعيه في الهواء ودار حول نفسه مغنياً دورات سريعة وكثيرة حتّى كاد أن يرتمي فوق الأرض، أحس بفرحة طفولية تغمر كل كيانه، فلم يتحرج من الضحك بصوت عال، اكتشف بعد لحظة أن القمر يقع تماماً فوق رأسه فراودته رغبة ملكية في أن يلمسه بيده، قفز في الهواء قفزات عالية، لم يطله فاعتبر أن الأمر كله مجرد نزوة عابرة من نزوات الملوك وتخلى عن المحاولة .. مضى يعبر الأرض الخلاء في خطوة أشبه بالرقص محاولاً جهده أن تتفق خطاه مع إيقاع الأغنية التي يدندن بها.

ـ طاحوا نجوم الليل..

ولدهشته الشديدة اكتشف فجأة أن امرأة، لابد أنها تسللت خلسة إلى البهو الملكي، وأنها تقف الآن بمحاذاته، ترسل ضحكة مثيرة ترن في جوف الليل كأنها الجرس، لابد أنها الملكة جاءت الآن تفسد عليه متعة الاختلاء بنفسه قليلا، لكنه سرعان ما أفاق إلى أن ذلك ليس لعباً أو هزاراً، إنما هي امرأة حقاً وصدقاً، تقف الآن في مكان ما قريباً منه وتضحك في خلاعة واستهتار، تبخرت من رأسه أبخرة الخمر، لابد أنها رأته وهو يقفز في الهواء كالمجانين، ويدور حول نفسه ويضحك عالياً كالمعتوه، تسمر في مكانه مندهشاً، وحنجرته صارت الآن خشباً فلم تعد تقوى على الغناء، وأحس بالخجل جليداً يسقط على قلبه فطلب من الله أن يمسخه الآن فأراً، لكنه قبل أن يتحول إلى فأر سمع المرأة تناديه، من أي ثقب في الأرض خرجت هذه الداعرة في هذه الساعة من الليل، كان صوتها نثوياً، حاداً في أنوثته، وهي تناديه باسمه في الحاح بلهجة من يدعوه بلا خجل إلى خلوة آثمة ويطلب منه في صراحة ارتكاب فعل فاحش، أدار عينيه في اندهاش نحو مصدر الصوت .. لم يكن هناك أحد على الإطلاق، التفت في ذعر إلى اليمين وإلى الشمال، خلفه وأمامه، لم يجد أثراً لكائن من كان فأحس بالموت قطراناً أسوداً يصعد الآن مع ساقيه، ونداء المرأة واضحاً قريباً في صوت أشبه بالهمس الجهوري يمتلىء غنجاً وإغراء وجنساً، لم يستطع أن يحدد له مصدراً لكنه يأتي من مكان قريب لايبعد عنه سوى خطوات قليلة، تبين في ضوء القمر الابنية البعيدة، وبقايا جذوع أشجار تناثرت في الأرض الخلاء التي كانت منذ زمن مزرعة وصارت الآن أرضاً تباع لأغراض البناء، لكنه لم ير اثراً لأي كائن بشري، وبيته مازال بعيداً، والموت قطراناً أسود يصعد من قدميه إلى ساقيه ويغطي ركبتيه ويصيبها جميعاً بالشلل، ونداء المرأة قريباً ومثيراً ومخيفاً يأتيه في صوت أشبه بالفحيح، تدعوه باسمه مجرداً بل هي تخترع لاسمه طرقاً جديدة في نقطه وتفنن في تدليله بها كأنما تربطها به علاقة حميمة وقديمة. وتلح في الدعوة كأنها انتظرته منذ أمد طويلا وأعدت نفسها له ولم تجد مناسبة أفضل من هذا الخلاء، والليل، وضوء القمر، كي تأتي إلى ملاقاته، وقف وهو لايقوى حتى على البكاء ينظر في بلاهة إلى أعلى وإلى أسفل، لعل الصوت يأتي من ثقب في الأرض لعله يأتي من ثقب في السماء، ظل مغروساً إلى نصفه في القطران الأسود لا يدري ماذا يفعل، والمرأة ذات الصوت الداعر تتعرى دون حياء، تخلع الثياب قطعة قطعة عن ذلك الجسد الهيليني الذي لا يراه، استبدت بها الشهوة فجاء نداؤها أكثر إلحاحاً كأنه العواء، زلزل الرعب قلبه، فكر في أن يصرخ أو يستغيث أو يجري هارباً، لم يكن يقوى على الحركة ولا على الكلام، تجمد كتمثال من الشمع في مكانه، والموت سيل من القطران الأسود يصعد مع بدنه وسيصل بعد لحظة واحدة إلى عنقه، وهي ترفع عقيرتها تناديه دونما حرج، وأحس بأنفاسها قريباً منه تلهب جبينه، وعطرها نفاذاً يملأ خياشيمه، وجسمها الذي يحترق الآن بالرغبة والعواء يرسل صهدا لافحاً يجعل العرق ينز من عنقه، ثمّ فجأة بدأت نبرات الصوت تكتسب لهجة حانقة، أكثر حدة وغضباً، بدا واضحاً أنها الآن تجرب معه مسلكاً آخر، فهذه الملكة التي وقفت دهراً أمام المرآة تمشط شعرها وتضع زينتها وعطورها حتى جاءت هذه الليلة التي ينيرها ضوء القمر تفتح له

ذراعيها وتمنح له نفسها هبة خالصة وعطاء سمحاً، هذه الملكة أصابها الآن الذعر وهي ترى الرجل الذي اختارته من بين كل الرجال في الدنيا ومنحته نفسها يتأخر الآن في قبول دعوتها، فجاء صوتها مزمجراً غاضباً يصدر الأمر، لم يعد الصوت نظرة حالمة وذراعين ممدودتين ترحبان به في شوق ولهفة، ورأساً يتكىء على الكتف في غنج ودلال، استوت الملكة في وقفتها ورفعت رأسها في عنجهية وكبرياء وصارت تصدر الآن أوامرها الملكية. أحس بخطورة الموقف. تمنى أن تواتيه القدرة على الكلام أو البكاء أو الحركة عله يستطيع أن يركع فوق الأرض قريباً منها ويقسم بالرسل والأديان أنه مطيع في بلاطها، وأن كل ما في الأمر أنه قاصر عن رؤيتها عاجز عن معرفة مكانها، لكن القطران الأسود يغمر كل بدنه فلم يعد قادراً حتى على التنفس، لا يعرف للصوت مصدراً ولا يرى على مرمى البصر أحداً، والصوت يزداد انفعالاً وتنمراً، تهديداً ووعيداً، غضباً ملكياً عنيفاً يتفجر به صوتها كأنه لو تأخر عن تلبية النداء دقيقة واحدة فإن أمراً مهولاً سوف يحدث، يداً تحمل سوطاً منقوعاً في الملح سوف تمتد بعد هنيهة تجلده على وجهه وقفاه حتى الموت، مسدساً يظهر فجأة أمام عينيه ويغمر جبينه بالرصاص، لغماً سوف يتفجر بعد لحظة واحدة تحت قدميه، إنها الآن تناديه وتدعوه للمجيء إلى مخدعها بلهجة من سيملأ الدنيا طوفاناً، أو يغمر الأرض صواعق وزلازلاً، أو يشعل حريقاً هائلاً في العالم كله، إن لم يذهب الآن إليها ويرتم بين أحضانها.

أدرك أنه هالك لا محالة، وأن القطران الأسود قد وصل إلى عنقه ويغمر الآن فمه وأنفه وعينيه وأذنيه وجبينه، وأنه يواجه الآن موتاً محققاً لا ريب فيه، وقبل أن يغيب تماماً عن الدنيا، سمع الصوت فجأة يتلاشى ويبتعد، انتشل رأسه بسرعة من القطران، وقف بدهشة يراقب الصوت وهو يأتي خافتاً، ضعيفاً أصابه الوهن والإعياء، اختفت فجأت لهجته الآمرة المتوعدة الغاضبة المنذرة، وصار الآن منكسراً واهناً بعيداً، لم يعد أمراً وتهديداً، كذلك فهو لم يعد إغراء وغنجاً ودلالاً، إنه الآن أصبح أشبه بالاستغاثة، كأن صاحبة النداء تواجه الآن هلاكاً محققاً، فجاء الصوت وجلاً مذعوراً باكياً مستعطفاً يطلب النجدة، كأنها الآن وحيدة في عرض البحر يحاصرها موج متوحش شرس ويهددها بالموت غرقاً وهي تستنجد في ضعف وخوف بهمة الرجل كي يسرع لانقاذها، فمها الآن يمتلىء بالماء، ومن خلاله يأتي النداء ناشراً فقاقيع في الهواء أشبه بالقرقرة، ولأمر ما أحس وكأن هذا الصوت الذي يأتي من خلف لجج البحر قريباً ولكنه بعيد في ذات الوقت، هذا الصوت الذي يأتي ناعماً واهناً ضعيفاً مستنجداً باكياً، وقد اختفى منه أي أثر للجنس والاغراء والأنوثة، هذا الصوت بدا الآن وبعد أن زال خطره، كأنه صوت امرأة يعرفها، إنه الآن وقد أحس بالنجاة واستعاد شيئاً من السيطرة على مداركه يستطيع أن يرى كيف أن هذا الصوت مألوف لديه ألفة غير عادية، إنه لا يذكر الآن من هي، لكنه يعرف هذا الصوت معرفة غير عادية، ويثير في نفسه شجوناً قديمة كأنه عاش عمراً كاملاً في حبها، حقاً إنه لم يخض في حياته أي تجربة عاطفية، ولم تكن له في يوم ما علاقات نسائية، والمرأة الوحيدة في حياته عدا نساء العائلة هي التي رآها ليلة أن جاءوا بها لتكون زوجاً له وأماً لأطفاله، لكن هذا ليس صوتها، لعلها كانت شيئاً غامضاً يحيا في خياله، أو امرأة ترددت عليه في أحلامه، أو صوت انسانة ما تبادل معها الكلام من خلف الأبواب والتصق صوتها بذاكرته، أو واحدة من النساء اللائي

كان يراهن عندما كان طفلاً لا حرج من دخوله مجتمعات النساء، وعاش في ضميره حتى جاء هذا النداء يعيده إلى منطقة الوعي، اختفى من قلبه ذلك الشعور بالهلع وحلت مكانه رغبة حقيقية في إنقاذ المرأة الغريقة، تصور لوهلة صغيرة أن هذا الخلاء صار حقاً بحراً، وهم بأن يغمض عينيه ويقذف بنفسه على الفور بين أمواجه، إلا أن الأرض الخلاء سرعان ما عادت خلاء كما كانت، وصوت المرأة الذي يأتي كأنه القرقرة صار يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى اختفى تماماً.

وقف في مكانه مشتت الذهن، مضطرباً، يحس بالتعب والإرهاق كأنه قطع مسافة ألف ميل عدواً، وأنه فجأة صار هرماً ورأسه لابد قد اشتعل الآن شيباً، واكتشف أن أطرافه ما زالت ترتعش كأنه أصيب منذ لحظة بالحمى، ظل مزروعاً وقد اختفى من نفسه كل أثر للحظات الرعب التي عاشها، حل مكانها شعور عميق بالأسى والخجل، لقد وقف عاجزاً حين كانت المرأة التي أحبته تموت غرقاً، كأنه تواطأ ضدها، وتآمر مع البحر على إغراقها، حاول أن يوحي لنفسه بأن ما رآه لم يكن ألا خيالاً، حالة انتابته أشبه بالكوابيس أثناء النوم، وأنه كان تحت تأثير كتاب عن الأساطير انتهى منذ زمن قراءته، وأن أبخرة الخمر في رأسه والخلاء من حوله وسكون الليل وهدوءه ساهمت في تجسيد هذا الخاطر المزعج الذي مرق بذهنه، لكنه كيف يصدق ذلك وقد كان في تمام يقظته، وهي هنا تناديه، صوتها يملأ الزمان والمكان، عطرها مازال في أنفه، وأنفاسها الحرى كانت منذ هنيهة تلفح جبينه، إنه على يقين كامل بأن أمرأة تعشقه وتحبه قد ماتت منذ لحظات غيلة وغدراً لأنه لم يكن شهماً بما فيه الكفاية يلبي دعوتها أو يذهب بعد ذلك لانقاذها، امرأة هي بلا شك أجمل نساء المدينة، وأكثرهن فتنة وإغراء وسحراً وولهاً وحباً للحياة، اختارته من بين كل الرجال لهذه الليلة، تزينت بكامل زينتها وارتدت لباس نومها ووقفت بقوامها الفارع الطويل الذي يتفجر أنوثة وقد تهدل شعرها الفاحم السواد وتناثر كنساء الغجر فوق كتفيها، تنتظر قدومه وتحرك فماً شهياً بحجم الخاتم تنادي اسمه، لا بد أنها أدركت جدب حياته وقسوتها وصحراوية التقاليد التي تربى عليها وجفافها، وأرادت أن تعوض هذه الليلة حرمانه، وتسقي كالغيث قفر حياته، ولا بد أنها استغربت أن ترى رجلاً منحته هذا الفيض من حبها، عاجزاً عن تلبية دعوتها، وغمر الغضب وجهها بغبار كالنمش زاد ملامحها عذوبة وحسناً، فتوعدت وهددت دون فائدة ولا جدوى، وأدركت أن ذلك علامة خلل أصاب الكون، وأن كارثة محققة سوف تلحق بها، فأستنجدت به باكية مستعطفة حتى اللحظة الأخيرة، وكان هو يقف عاجزاً، جباناً، مريضاً بالحمى، يملأ قلبه الرعب، ويأكل رأسه الشيب، لايقوى على تقديم شيء، وغمره إحساس بالضآلة واحتقار الذات، لماذا لم تختر أحداً غيري يكون أعظم نبلاً وشجاعة، وسيماً وجريئاً وشهماً وقادراً على الاقتحام والمغامرة، فارساً من الفرسان لا فأراً ذمياً مذعوراً مغموساً في القطران مثلي.

وفجأة تذكر شيئاً، لقد كان يغني عندما جاءت إليه، ألم تكن الأغنية تحكي عن النجوم التي اختفت والحبيبة التي ضربت لحبيبها موعداً ولم تأت، اتكون هي بذاتها البطلة التي تخاطبها الأغنية جاءت تماماً في موعدها وتنفيذاً للعهد الذي قطعته على نفسها.

أتكون قد سمعت الأغنية فهرولت إليه مسرعة تلبي النداء، وتنفي عن نفسها التهمة الظالمة بأنها خالفت الميعاد، وتقول إنها مازالت وفية مخلصة صادقة، تحبه وتريده وتشتهيه، و إنها لاتكذب أبدا .. أيكون هو الذي كان نذلاً وكاذباً لايحفظ عهداً ولا وعداً.

أيكون الأمر حقاً كذلك ؟

ولكن ما الفائدة الآن، لقد انتهى كل شيء، وسواء كان ما حدث حلماً أو حقيقة، سواء كانت تلك التي خرجت للقائه في ضوء القمر أنثى حقيقية من دنيانا أو روحاً هائمة في الفضاء من عالم آخر، أو أنها كانت جنية خرجت من قصر والدها الملك وجاءت إليه، فأن يقيناً كاملاً كيقينه بأن الأرض تدور، وأن الليل يعقبه النهار، وأن الله واحد أحد، يقيناً يملأ عليه عقله وقلبه بأن امرأة في مكان ما من شاطيء بلاده الطويل، امرأة في شرخ الصبا والجمال، كانت في تلك اللحظات تواجه الموت غرقاً وكان هو يقف محموماً مغروساً في القطران عاجزاً عن انقاذها، وأنه سيقرأ غداً في صحف الصباح خبر موتها لا محالة، ودون أن يدري اختلج بدنه بالرغبة في البكاء، فلم يقاوم هذه الرغبة، انكفأ في مكانه فوق الأرض، وطفق من فوره يبكي .. بكاء أشبه بالنحيب.

■

صفحة من كتاب الموت

ظن للوهلة الأولى، أنهم جميعاً، ولأمر ما، قد تغيبوا عن الحضور إلى المدرسة هذا الصباح. كان الأستاذ عبد الحفيظ قد مر وهو في طريقه إلى الفصل بحجرة المدرسين وأخذ كما هو الروتين سجل الحضور وسار يقطع ممراً طويلاً تملأ جدرانه الصحف الحائطية ورسوم التلاميذ، إلى حجرة الدرس. وعندما رأى الباب في نهاية الممر مغلقاً، ولم يسمع للطلبة صوتاً، ولم يتناه إليه ضجيجهم وعراكهم كما هي العادة كل صباح، أدرك أن هؤلاء الشياطين قد تدبروا عذراً للهروب من الدرس هذا اليوم. وأن عليه أن يعود إلى الإدارة ويسألها بحزم أن تجد حلاً لهذا الغياب المتكرر، وأقسم بينه وبين نفسه أن يسجله عليهم غياباً غير مشروع مهما كان العذر أو السبب. وبمجرد قطع الشك باليقين فتح الباب ودون أن يهتم بالقاء نظرة إلى الداخل أعاد قفله، وهم بالرجوع لولا أن تناهت إليه فتح الباب همهمة ضعيفة، فأعاد فتحه من جديد واكتشف لدهشته الكبيرة أنهم جميعاً هناك، يجلسون في أدب إلى مقاعدهم ويفتحون في هدوء كراريسهم، وينكبون في صمت على المطالعة أو الكتابة، ويتصرفون كأنهم تحولوا فجأة إلى رجال كبار، دخل الأستاذ عبد الحفيظ وقد عقدت لسانه الدهشة إلى الفصل، فتش أول ما فتش عن (القط الذي جاء من الوزارة)، فليس هناك من تفسير لهذا الهدوء العجيب الذي يعم الفصل إلا أن مفتشاً من مفتشي الوزارة قد سبقه إلى هنا، اختار هذا الوقت المبكر لجولته التفتيشية كي يحرجه أمام الطلاب ويسجل عليه مرة أنه جاء إلى الدرس متأخراً، نظر إلى ساعته واطمأن إلى أن ميعاد حضوره في التمام والكمال، ورفع رأسه في تحد يواجه ذلك المفتش الذي تصور أنه يقف الآن بمحاذاة السبورة. لم يكن هناك أحد، ما هذا الهزار الثقيل؟ إنه يعرف لعبة القط والفأر التي يتفنن هؤلاء المفتشون في لعبها معه.

طاف بالسبورة والمنضدة عساه الآن يختفي خلف إحداهما، لم يجد قطاً ولا فأراً فوقف لدقيقة مندهشاً، عاجزاً عن تفسير ما حدث، أجالَ بصره داخل الحجرة عله يجد شيئاً غريباً قد حدث، كان كل شيء كما هو، كل ولد يجلس إلى مكانه الذي تعود أن يجلس إليه منذ بداية العام، النافذة هي النافذة ومن خلفها شجرة التوت التي اكتست حديثاً بالورق تقف في زهو وكبرياء، والرسوم على الحائط هي نفس الرسوم بدائية وركيكة تعود أن يراها دائماً، والسبورة لم تتزحزح قيد أنملة عن مكانها والفصل هو فصله، والتلاميذ هم تلاميذه، بسحناتهم الترابية الباهتة، فهو لم يخطىء الطريق ولم يدخل خطأ إلى مدرسة في كوكب آخر، أو وطن آخر، أو مدينة أخرى غير مدينته، كان كل شيء في داخل الفصل عادياً وطبيعياً، ما عدا هذا الهدوء الغريب الذي لم يره طيلة عمر أمضاه في التدريس يحدث في فصل من الفصول الدراسية، استرعى انتباهه أن مقعداً مهجوراً في آخر الفصل جلس إليه الآن واحد من الطلبة ممن تعود أن يراهم أمامه في أول مقعد على الشمال، هم بأن يسأله عن سر هذا التعبير لولا أن حانت منه التفاتة إلى مكانه السابق، فإذا به يكتشف فجأة أن عفريتاً يجلس في هدوء إلى ذلك المقعد، تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه دونما شك عفريت، تنكر في صورة بنت من البنات وجاء في صفاقة وقلة أدب وذوق مخترقاً كل النواميس في الدنيا، ليجلس إلى ذلك المقعد قريباً منه. نظرا إليها مذعوراً وهي تجلس بين طلابه الذكور كأنها واحد منهم، كأنها تعرفهم ويعرفونها منذ الأزل، كأنه شيء عادي وطبيعي ولاغبار عليه أن تكون في مدرسة للبنين وفصل من الفصول المخصصة لتدريس الأولاد بنت، استمر ينظر إليها في ذعر واندهاش كأنه يرى في فصله قتيلاً، إذ كيف للأستاذ عبد الحفيظ أن يستوعب مشهداً كهذا وهو يعلم تمام العلم أن هذه ليست مدرسة للبنات، إنها مدرسة للأولاد كل مدرسيها رجال، وكل طلابها ذكور، كيف إذن تسللت هذه البنت إلى هنا وبأي حق جاءت وجلست، ليجدها قبالته هذا الصباح، إنه لن يسمح ابدا لكائن من كان أن يأخذه هكذا على حين غرة، لقد قام اليوم من نومه، وأدى صلاته، وتناول افطاره، وحلق ذقنه، وصحح كراريس تلاميذه، وارتدى معطفه وجاء إلى المدرسة دون أن تكون له أدنى فكرة أن عفريتاً تنكر في صورة بنت وجاء يجلس في صفاقة امامه، خالي الذهن تماما من كل هذا الذي يحدث الآن. لقد تصور دائماً أن للبنات دروساً أخرى يجب أن يتعلمنها، على أيدي مدرسات من بنات جنسهن داخل مدارس خاصة بهن، مدارس لها بوابات حديدية كبيرة ولها أسوار عالية ولها تكتم وسرية، وأن كل ما يقدم من دروس للأولاد هو شيء خاص بالرجل يجب أن تستحي وتحتشم أي امرأة من الاستماع إليه، لا أن تخرج عن كل أصول الأدب والحشمة وتجلس في تهتك وفجور ودونما خجل أو حياء مع الأولاد في الفصل، وتستمع إلى ما يستمعون إليه، وتكتب ما يكتبون، وتمتحن فيما يمتحنون فيه، وأن هذه البنت لابد قد أخطأت طريقها، أو تسللت إلى المدرسة من الشباك، وأنها مدسوسة عليه دساً، وأنه لو سمح لنفسه أن يعاملها كغيرها من الطلاب لكان في ذلك إثم، أو جريمة يعاقبه عليها القانون، ويساق بسببها إلى القضاء.

خشي أن يكون التلاميذ قد لاحظوا ما أصابه من ذعر وارتباك، فتدارك نفسه وشد قامته، وعقد

ما بين حاجبيه، وخاطبها بلهجة رسمية حاول أن يجعلها خالية من أي أثر لما يعتمل في صدره من انفعالات.

ــ قيام ...

وقفت .. إنها يا للعار امرأة قامتها في حجم قامته، صدرها نافر، وشعرها طويل أسود يغطي الكتفين، امرأة نضجت ثمارها وحان أوان ذهابها إلى بيت الزوجية لا الاختلاط مع الأولاد الذين وصلوا حديثاً سن البلوغ في مدرسة ثانوية .. إن في الأمر مكيدة.

ــ اسمك ؟

وقبل أن تفتح شفتيها أسرع الولد الذي ترك لها مقعده وجلس في آخر الفصل، متطوعاً للإجابة.

ــ اسمها زهرة يا أستاذ.

أغاظه تطفل هذا الولد الذي اكتشف الآن فقط كيف أنه ممسوح القامة، وأنه قميء. متسخ الثياب، وله أسنان متآكلة صفراء، وأدرك أن كل ما كان يلقاه متناثراً فوق أرض الحجرة من أعقاب السجائر إنما دخنها هذا الولد، أعاد السؤال بغيظ ونفاد صبر متجاهلاً ما قاله الولد..

ــ اسمك ؟

ــ زهرة عبد السلام ..

أحس في صوتها نبرة تحد واستعلاء، أي عبد السلام هذا الذي يسمح لابنة في سن الزواج أن تخرج من بيتها، وتأتي دون حياء إلى مدرسة للأولاد تجلس معهم وتختلط بهم، أي أب في الدنيا يسمح بذلك؟

فتش عن اسمها في سجل الحضور، كان اسمها هناك مكتوباً بالقلم، أضيف اضافة إلى القائمة التي كتبت بالآلة الكاتبة، التبس عليه الأمر، إذن فالإدارة على علم بالموضوع، بل هي لاشك شريكة في المؤامرة التي تدبر ضده، فكر الأستاذ عبد الحفيظ في كل أعدائه من مفتشين كرهوا صراحته فصاروا يكيدون له مرة وراء الأخرى، يعرقلون أحياناً ترقيته، يتسببون في نقله من مدرسة إلى أخرى، وهاهم اليوم لايجدون ما يفعلونه به إلا أن يخترقوا كل ما في الدنيا من سنن وقوانين، ويدسون عليه في فصل من الفصول التي يقوم بتدريسها بنتاً، إنهم لايقصدون بهذه المكيدة أحداً سواه، نسي ما قد أتم تحضيره، نسى إن كان درس اليوم في اللغة العربية أم في الدين، أمسك بيد مرتعشة أصبع الجبس، اقترب من اللوحة ليكتب شيئاً، كتب التاريخ، ووقف عنده، كأنه يكتشف لأول مرة أنها الآن السبعينات، وأن أكثر من عشرين عاماً قد انقضت من عمره مدرساً، أحس فجأة بالوهن والإعياء، فجاء وجلس متهالكاً على كرسيه، اكتشف أن البنت مازالت واقفة فأشار لها بيده إشارة لايعلم أن كان

معناها أن تخرج أو تجلس أو تختني أو تموت، لكنها في هدوء جلست ورفعت رأسها الصغير تنظر إليه في عناد، في حين قرر هو أن يقدم اليوم وبلا تردد ودونما ندم استقالته، جلس ولم يقل شيئاً، دفن رأسه بين يديه، نسي العيون التي تحاصره .. فكر في هذه البدعة، هذه الضلالة، هذه النار، لقد عاش طوال عمره ورعاً شريفاً مستقيماً يراعي حدود الله ويعرف أن للمرأة حرمة يجب أن تصان، وأن مكانها داخل البيت بعيداً عن أعين الرحال، وأنه ما التقى رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، فما بالك إذا التقت امرأة وثلاثون رجلاً، لا بل ألف رجل، فمعنى ذلك أن الشياطين سيملأون الكون، وأن كارثة ستحل بالدنيا، وأن يوم القيامة بات وشيكاً.

أملى على الطلاب جملة ينشغلون بإعرابها، وتفرغ هو لأفكاره، ستنتهي الحصة وسيذهب إلى الإدارة يقدم استقالته، ها هم يدفعونه أخيراً إلى الاستقالة، إن هذا بالضبط ما يريدونه، فهم ما جاءوا بهذه البنت ووضعوها أمامه ألا لحمله على الاتيان بفعل يائس كهذا، لكنه لن يستقيل، لن يمنحهم انتصاراً مجانياً كهذا، وأن الحكمة كل الحكمة هي أن يفوت عليهم هذه الفرصة وأن يبقى لهم كالشوكة في الحلق.

عندما انتهت الحصة وذهب الأستاذ عبد الحفيظ حانقاً يقابل مدير المدرسة، كان على ثقة من أنه سيلفق حكاية ما، وكانت الحكاية هي أن للبنت أباً يعمل بالحكومة انتقل حديثاً إلى هذه الضاحية البعيدة من ضواحي المدينة، ولأنه ليس بالضاحية مدرسة ثانوية غير هذه المدرسة .. ولكي لاتحرم البنت من تعليمها، فإن المدرسة لم تجد غضاضة في قبولها، وأن الوزارة وافقت وأن وضع البنت في المدرسة .. وضع قانوني ولاغبار عليه. لن ينطلي عليه الأمر فهو يعرف كل أحابيل هذا الجيل من الأطفال الذي قفز فجأة إلى مراكز التوجيه والإدارة في التعليم، وسيدخل معهم الصراع وحيداً، وسيريهم كيف أن الأمر مليء بالغبار.

في اليوم التالي، قرر أن يتجاهل البنت، فلا شك أن أبلغ رد هو أن يتناساها وألا يعمل لها حساباً على الإطلاق وأن يقدم درسه غير شاعر بوجودها، كأنها ليست هناك أصلاً، وصمم الأستاذ عبد الحفيظ بينه وبين نفسه أنه لن يوجه لها سؤالاً ولن يلمس لها كراساً ولن يؤشر على اسمها بالحضور أو الغياب وأن يهملها ويحتقرها إلى أن تستحي على نفسها أو يستحي من جاء بها على نفسه وتعود ذليلة، مهزومة، من حيث أتت.

دخل إلى الفصل، دهشه أن يرى مرة أخرى هذا الهدوء العجيب الذي ظنه أمس حالة استثنائية، اختفى فجأة الخصام والعراك والضجيج، الأولاد كائنات من كوكب آخر، كوكب ليس فيه زرائب ولا غابات ولا قرود ولا رمال، اختفت من فوق وجوههم الأتربة فصاروا يتألقون كالمصابيح، اعتنوا بهندامهم وتصفيف شعورهم، وارتدوا ملابس نظيفة، أنيقة، فقرهم صار فجأة غنى، وبيوتهم القميئة الملتصقة بالأرض صارت فجأة قصوراً، وأمهاتهم القرويات الجاهلات صرن فجأة سيدات علم وذوق وثقافة، بات يتأملهم كأنه يراهم لأول مرة، روحاً جديدة لم يعرفها طوال حياته في التدريس تعمر

اليوم هذا الفصل، وعبير لم يعهده من قبل ينتشر في الجو، وتنبه إلى أن حضورهم كامل للمرة الأولى، وعندما سأل عن الواجب وجد أنهم جميعاً وبدون استثناء قد كتبوا واجباتهم، ما الذي حدث في الكون وأي معجزة هذه التي جاءت بهذا الانقلاب الخطير، وعندما مضى مع الدرس كان الأستاذ عبد الحفيظ شيئاً فشيئاً يكتشف التحول العجيب الذي أصاب هؤلاء الطلبة، إن أكثرهم خمولاً وغباء وسرحاناً أثناء الدرس صار فجأة يشتعل حماساً للاجابة، فالعبقرية هبطت عليه الآن وفي هذه الساعة، والغريب انها حقاً كذلك، فها هي الإجابة تأتي على ألسنتهم سهلة مرنة يقولونها بفصاحة وقدرة على التعبير لم يعهدها في فصل من فصول الدراسة قبل الآن، بل إنه هو نفسه يحس الآن ولأول مرة بأهمية الدروس التي يقدمها، إنهم ينصتون إليه ويتابعون كلماته كأن ما يقوله صار فجأة أخطر ما في الدنيا، وأن بحوزته كل أسرار الكون، حالة لم يعرفها طيلة العشرين عاماً في التدريس إلا هذا اليوم، ودون أن يدري وجد نفسه يسترق النظر إليها، أي سطوة تملكها، أي قوة جهنمية جاءت تحملها معها، إنها تجلس في براءة إلى مقعدها، كأن هذه الساحرة لا تعلم بمدى القوة التي بحوزتها، كأن ما يحدث يحدث بمعزل عنها ولا دخل لها فيه، من أي بلد من بلاد الجان جاءت لتفلح فيما فشلت كل كتب التربية ووزارات التعليم في العالم، بل ليست الكتب والوزارات و إنما هي دول وأنظمة وأجهزة وأساطيل لم تفلح في أن تجعل الطلبة، غير أنهم طلبة، تسكنهم روح شريرة فيملأون الدنيا شغباً وضجيجاً وعراكاً، تسليتهم الكبرى ليست الدراسة بقدر ما هي هذه المناكفة والعناد وأعمال الشغب، فتأتي هي لتحيلهم من شياطين إلى أوادم، وتحيل فقرهم إلى غنى وغباءهم إلى نبوغ، وقبحهم إلى وسامة. تأكد لدى الأستاذ عبد الحفيظ أنها تستطيع أن ترمي فوق الأرض عصاة وتجعلهم حية تسعى، وأن تخرج من كمها أسراباً من الحمام أو قطعاناً من الأرانب، وتأتي بأي معجزة لو أرادت، وأن في الأمر شيئاً مهولاً عجيباً هو لاشك أعجز وأصغر من أن يعرف له تبريرا، أو تفسيراً، وعاد من جديد يسترق النظر إليها عله يجد شيئاً في ملامحها يضيء ما اعتراه من حيرة وذهول، كان كل شيء فيها عادياً، بنت تحس منذ النظرة الأولى أنها لايمكن إلا أن تكون ليبية، شيء موغل في ليبيته تنطق به تقاطيع وجهها وتراه في هذه الصفرة الخفيفة التي لم تفلح في إخفائها كل دلائل الرخاء والنعمة في ملامحها، ولكن برغم الصفرة فإن جمالاً يفيض به وجهها، جمالاً كجمال واحات النخيل ليس فيه إثارة، وليس له صخب أو ضجيج، لم ير في ملامحها شيئاً خارقاً ينبيء بهذه القوة التي تملكها، ومع ذلك فإن الأستاذ عبد الحفيظ مازال يعتقد بأنها شيء شيطاني ينتسب إلى عالم غير عالمنا .. وتأكدت فجأة كل ظنونه عندما التفت إلى أسفل المقعد الذي تجلس فيه فرأى أن قدميها كأنهما حافرا حمار وكاد أن يطلق صرخة تهد جدران المدرسة كلها لولا أن تنبه إلى أن هذين هما كعبا حذائها، وخشى أن تكون الآن قد قرأت أفكاره، وغضبت منه، وقررت أن تحيله على الفور إلى مسخ، إلى عمود أو شجرة، أو ضفدعة، أو قطة تموء، أحس برعشة تسرى في كل بدنه لهذا الخاطر، تعوذ بالله من الشيطان، وأقفل كتاب الدين، وخرج من الفصل قبل أن تنتهي الحصة.

اكتشف الأستاذ عبد الحفيظ وهو يصل إلى البيت أنه مازال يرتعش، وأن خوفاً غريباً يسيطر على

كل مشاعره، كأنه اقترف جريمة ما، وأن عقاباً مروعاً مهولاً سوف يحل به لا محالة، ورأى أن صورتها وهي بحافري الحمار تلاحقه في كل مكان، أحياناً ترتدي جناحين مخيفين كجناحي خفاش وأحياناً يراها كالتنين تقذف لهباً هائلاً من فمها، وأحياناً لها مخلب كوحش خرافي، تجسدت له شيطاناً يطارده أينما ذهب، وضبط نفسه أكثر من مرة يردد اسمها بصوت عال في خوف ورعب، وعندما اكتشف بعد صلاة الفجر أن لها كراساً قد نسي وعده وأحضره مع كراريس الطلبة، جلس إليه يقبله بأصابع مرتعشة وبعكس ما كان يظن لم يجد في الكراس شيئاً غريباً أو عجيباً ولم يجدها تستعمل في الكتابة طلاسم أو أحاجي كما في كتاب الموتى، كان كل شيء فيه عادياً كغيره من كراريس، عدا أن خطها أكثر تنسيقاً وجمالاً. قرر في ذهنه شيئاً، وبعناد كعناد الأطفال أمسك القلم وكتب لها درجة ضعيفة برغم صحة إجاباتها، سيدخل الصراع معها ولن يخشى كل الملوك المسخرين لخدمتها، ووقف عندما جاء إلى الدرس ينتظر رد فعلها لتمسخه فأراً أو قطاً أو ضفدعة، فهو لن يستسلم أو ينهار فالمسألة مسألة مبدأ وكرامة، حياة أو موت، رآها وهي مهمومة تقارن كراسها مع كراس زميلها في المقعد. همت بأن تقول شيئاً فأسكتها بشراسة، لتبك أو تنتحر أو ترم نفسها من الشباك، فلن ينطلي عليه مكرها ودهاؤها، وسيحارب إلى آخر رمق فيه هذا السحر الأسود الذي جاءت به معها، مضى حصة وراء الأخرى يتحرش بها، يتحين الفرصة لتقريعها، يمنحها برغم اجتهادها أقل الدرجات شأناً وقيمة،وهي كأنها ليست طرفاً في الصراع، تجلس هادئة إلى مقعدها وتنشر داخل الفصل عطرها الدافيء، وتهتم اهتماماً غريباً بدرسها كأن الأمر كله لا يعنيها، إنها بلا شك تتصنع هذا الهدوء وهذه المسكنة تصنعاً، وأنها تبيت له أمراً فظيعاً، وتصور كل يوم أن يرى ذلك الأمر الفظيع يحدث. أن يأتي فيجد المدرسة قد صارت كوم رماد، أو أن طلابها تحولوا فجأة إلى قرود. أو أنه صحا من النوم فوجد نفسه قد صار أرنباً أو قنفذاً أو خنزيراً، مضى يوم وراء الآخر وهو ينتظر حدوث الكارثة، أو قدوم الزلزال أو مجيء يوم القيامة لكن الزلزال لا يأتي، والقيامة لاتقوم و إن في الأمر شيئاً سيفصح عن نفسه قريباً دون ريب. وعندما جاء يوماً إلى الفصل ولم يجدها هناك، أحس كأن الشيء الذي بنى عليه حياته فجأة ينهار .. اختفى السحر الذي كان يملأ الفصل واختفى العبير، عاد إلى الأولاد قبحهم وفقرهم وغباؤهم ورجعوا مرة أخرى أنذالاً كما كانوا. صار الفصل أكثر تعتيماً و إظلاماً، فالشمس التي كانت تشرق في سقف الحجرة انطفأت اليوم، لقد تصور دائماً أن اختفاء البنت من المدرسة سيكون انتصاراً يملأ قلبه فرحاً وزهواً، وأنه عاش على اعصابه كل الأيام الماضية وكافح سحرها وناضل ضدها من أجل هذه النتيجة، لكنه لايجد لهذا الانتصار طعماً، بل هو على العكس من ذلك يحس بكآبة غريبة تعتصر قلبه، ورماداً يملأ حلقه، وأن حياته فقدت شيئاً جوهرياً كان يملأ قلبه كل صباح تحفزاً وتحدياً، ولأول مرة بدأ يراجع نفسه ويحس بتأنيب الضمير، عناكب تنسج شباكها داخل صدره، لقد كان شرساً في معاملتها، وأنه كان ظالماً عندما تصورها شيطاناً أو عفريتاً أو تنيناً في حين كانت هي مجرد طفلة صغيرة بريئة، كان من الممكن لو تزوج مبكراً لأنجب بنتاً في سنها، وتأمل الفصل وقد صار موحشاً كأنه خرابة والأولاد كأنهم شياطين تسكن هذه الخرابة، وفكر جدياً في أن يذهب للبحث عنها ليسألها الصفح

والغفران، سيستجدى والدها صاغراً أن يعيدها إلى المدرسة وسيعاملها كأميرة أو ملكة وصمم على أن يفعل ذلك في أول فرصة، لولا أنها في اليوم التّالي جاءت، تعيد إلى التّلاميذ الغنى والوسامة وتنشر عطرها الدافيء داخل الحجرة، وتزرع الشمس مرة أخرى في قلب الفصل ورأى الفرحة سرباً من العصافير تحط الآن في قلبه، وشجرة يبست أغصانها تخضوضر وتزهر الآن في صدره، ولأول مرة صارت مهنة التدريس أجمل مهنة في الدنيا، والمجيء إلى الفصل ليس واجباً ثقيلاً و إنما عيداً يتجدد كل يوم، والبنت ليست مارداً ولاجنية ولاتنينا، و إنما أنثى صغيرة جميلة، مضيئة، وهو يتودد إليها، يمنحها الدرجات بسخاء، يقلق إذا تأخرت عن المجيء دقيقة واحدة ويشده الحنين إليها منذ أن يغادر الفصل وحتى يعود في اليوم التالي. وفي أثناء ذلك لم ينتبه الأستاذ عبد الحفيظ إلى أنه صار يعتني بمظهره أكثر من ذي قبل، وأن البدلة التي كان يدخرها للعيد قد نسي العيد وصار يرتديها كل يوم، وأنه صار يهتم بحلاقة وجهه ووضع الكولونيا فوقه كل صباح بعد أن كان يهمل حلاقته إلا مرة واحدة أو مرتين في الأسبوع، ولأول مرة يفكر في هذه الأعوام التي انقضت من عمره ويدرك أنه دخل مجال الحياة مبكراً حتى ظن زورا وبهتاناً أنه قد اقترب من سن التقاعد في حين أنه لم يتجاوز الأربعين إلا بخمسة أو ستة أعوام، وأنه برغم الزوجة التي جف عودها والأطفال الذين ينتشرون كالنمل داخل البيت مازال في نضج رجولته وعنفوانها وأن الحياة مازالت أمامه عريضة بكل لذائذها وطيباتها، وأنه كان يظلم نفسه ويظلم عمره ويظلم شبابه عندما يتصور أنه صار عجوزاً وينسى أن له جداً تزوج امرأته الثامنة أو التاسعة وهو في سن السبعين، فيحس كأنه عاد ولداً صغيراً في عمر تلاميذه وأن دماء جديدة تجري كالنسغ في عروقه، ويرى بساطاً جميلاً نقشت فوقه قوارب وحدائق وعصافير وفراشات قد امتد بين بيته والمدرسة فيمضي كل صباح فوقه، وما إن يراها تجلس في هدوء إلى مقعدها وتنشر كالقناديل ضوءها، حتى يغمر جسمه خدر لذيذ فيدرك أن دائرة سحرها قد زادت اتساعاً وشملته كما شملت الطلبة، ويمضي مع درسه سعيداً، وينتهي الوقت سريعاً، فيعاوده الشوق إليها وينتظر بفارغ الصبر أن يراها في اليوم التالي.

ولا يدري الأستاذ عبد الحفيظ لماذا ــ بعد ذاك ــ صار يكره البقاء في البيت كأن في صدره شيء تضيق به البيوت والحجرات والأماكن التي لها سقف وجدران وأبواب فصار يكثر الذهاب إلى الخلاء، والميادين الرحبة الفسيحة، والحدائق العامة، وتأمل البحر و إدمان التفكير في هذه البنت التي دخلت فجأة حياته كما دخلت فجأة حجرة درسه. وصار يوماً وراء الآخر يحس بشيء غريب نحوها، شيء ينكره ويخشاه ويخافه ويملأ قلبه رعباً، شيء لايريد أن يفصح عنه أو يعترف به حتى بينه وبين نفسه، كائن غريب يرفع من تحت أكداس الجليد رأسه ويطل بمعزل عن العقل والإرادة متحدياً كل سنن الكون وقوانينه، متحدياً كل التقاليد والاعراف التي آمن بها، وكل المثل العليا التي كرس نفسه لخدمتها، وهو يرفض أن يعترف به أو يصدقه، لأنه لو انصاع لأمره واعترف به أو صدقه لحصلت الكارثة التي كان يتوقعها، إنه يراها كل صباح تجلس في براءة ووداعة إلى مقعدها كأنها لاتعلم بهذا الصراع البغيض الذي يدور في نفسه ويصدر دوياً هائلاً يصم أذنيه، وهذه الخيوط الخفية المجهولة التي

تشده بقوّة إليها وهو يرفض ويقاوم كأنه لو طاوع قلبه لوجد نفسه يسقط في هاوية مظلمة عميقة مخيفة ليس لها قرار ولو سمح لفكره أن يمضي حراً طليقاً يحوم حولها ويلتقي بها لأحدث ذلك اللقاء صداماً هائلاً مروعاً تسقط له كل الأبنية في الدنيا، والوهج يحرق قلبه، شعور ملتهب يحس به لأول مرّة في حياته، كأنه كان دائماً هناك، تغطيه أكداس هائلة من الرماد إلى أن جاءت هذه الصغيرة تنفخ عنه الرماد حتى صار جحيماً يحرق صدره، والمصيبة الكبرى أنها صارت تأتيه في الحلم، ليست تنيناً يقذف اللهب، أو كائناً أسطورياً يرتدي أجنحة خفاش، كانت تأتيه في النوم أنثى صغيرة، جميلة، مضيئة شهية، ليلتقي بها في أرض خلاء كأنهما آدم وحواء هبطا فجأة إلى الأرض، وتاها عن بعضهما سنيناً، ثمّ جاء اللقاء، على حين غفلة جاء اللقاء، بل هو الصدام، صدام مروع هائل لذيذ بغيض جميل كريه، فيستيقظ الأستاذ عبد الحفيظ من نومه مذعوراً، ويستغفر الله كثيراً، ويذهب إلى المدرسة خجولاً مرتبكاً، متعثر الخطى، لايقوى على رفع بصره إليها، أو إلى أحد غيرها، كأن أحداً لو رأى عينيه لاكتشف فيهما على الفور فعلة نكراء، ويوماً وراء الآخر نما في ذهنه يقين كامل بأنه ضحية مؤامرة دبرت في الخفاء، وأنه كان على حق عندما رأى في هذه البنت منذ أول يوم شيئاً شيطانياً مدسوساً عليه دساً، إذ مضت تخدعه بمظهرها الوديع البريء، وترمي شباكها حوله، وتنفث سحرها الأسود في ضلوعه، وتتفنن في غوايته، حتى رأى نفسه يمشي كالأعمى ليقع في بئر مظلمة مخيفة تمتلىء فسقاً يمشي كالأعمى ليقع في بئر مظلمة مخيفة تمتلىء فسقاً وفجوراً و إلحاداً ورجساً، وأنّه الآن ضحية عمل شيطاني من أعمال الجن أو السحرة، فهذا الشعور الذي نما كالنبات الشيطاني في صدره بمعزل عن العقل والمنطق والإرادة، وأخرج من تحت الجليد رأسه هازئاً وساخراً من المثل والتقاليد والأخلاق والفضيلة، لا يمكن أن يأتي عفواً ودونما تدبير أو عمل من أعمال السحر،لقد تصور منذ البداية أن شيئاً فظيعاً سوف يحدث، و إذا كان الزلزال لم يأت، والقيامة لم تقم، فإن شيئاً أكثر فظاعة وهولاً هذا الذي يحدث الآن، ويجره إلى هذه الهاوية ويجعله وهو الأستاذ والمربي يفكر في بنت بحجم ابنته لو كانت له ابنة، وتتلقى دروس الدين على يديه، بهذه الصورة المخجلة المرعبة المجردة من الخلق والشرف والفضيلة، وأن لاخلاص له إلا بسحر يقاوم سحرها، فبدأ الأستاذ عبد الحفيظ من فوره ينقب بحماس أشبه بالهستريا في المجلدات التي اصفر لونها عله يعثر عندها على حل يبطل مفعول كتابها الذي جاءت به من عالم الموت والأشباح، ومضى لدهشة الزوجة والأطفال يقلب البيت رأساً على عقب عله يجد أثراً لهذا السحر. ويأخذ فأساً ويحفر عند عتبة الباب علهم دفنوا له شيئاً هناك. ويمزق أغلفة الكراريس والكتب المدرسية على شيئاً بحجم الدبوس مدسوساً في إحدها، ولم يتردد في حلاقة شعر رأسه كله عندما ظن أن جسماً غريباً بحجم ذرة الغبار قد غافلوه ووضعوه في شعره، وتأكدت كل ظنون الأستاذ عبد الحفيظ عندما رآهم يتهامسون في كل مكان من حوله، ورأى مدير المدرسة يقدم له انذاراً بفصله من العمل، ورأى زوجته تأخذ أطفالها وتذهب إلى بيت أهلها، ورأى التلاميذ يضحكون في حضوره باستهتار وقلة أدب، تأكدت كل ظنونه وانكشفت أمامه كل ألاعيبهم وأدرك أنهم جميعاً قد تآمروا ضده واستعملوا تلك الصبية لتدمير حياته، وأن زوجته وطلابه ومدير المدرسة ومدرسيها ومفتشي

الوزارة ومدرائها كلهم شركاء في هذه المؤامرة، وأن لاشيء يشفي غليله إلا أن يحمل الآن ناراً ويذهب ليشعل الحرائق في البيت والمدرسة والوزارة. فمضى الأستاذ عبد الحفيظ من فوره ينفذ هذه الرغبة بحزم وتصميم.

أحبيني هذه الليلة

هاجمته على الفور تلك الرائحة، كان قد دفع التذكرة، واجتاز ممراً طويلاً، ثم دلف من خلال ستارة حمراء تغطي الباب، إلى دفء الصالة.

وقف قريباً من عتبة الباب لحظة قصيرة، يخلع معطفه وينفض عن شعره ما علق به من ماء المطر، وينتظر حتى تألف عيناه الرؤية داخل عتمة المكان. وجاءت تركض إليه تلك الرائحة التي تختلط فيها رائحة العطور برائحة العرق والدخان والخمر، رائحة هي الآن بلا شك جزء من المكان، ترسبت، وتراكمت، وتعتقت وظلت عالقة بسقفه وازدادت مع مضي الليل نفاذاً وحدة.

هاجمته على الفور تلك الرائحة فأثارت في نفسه رغبة مفاجئة للفرار من هذا المكان والعودة إلى أمطار الشارع وأضوائه وسمائه وهوائه، والذهاب بعد ذلك على الفور إلى الفندق حيث زملاء الوفد الذين لم يتركهم ويأتي إلى هنا ألا بعد أن اطمأن إلى أنهم جميعاً قد ذهبوا إلى النوم في أعقاب سفر مرهق من طرابلس إلى هذه المدينة. لكن طبلاً في مكان ما من الصالة كان يناديه، كانت إيقاعاته التي بدت وكأنها قادمة مع الريح من مكان بعيد بعيد .. تتجه رأساً إليه وتخاطبه وتدعوه باسمه «عبد الله»، إن لغة خفية لايستطيع أن يفك رموزها أو يعرف أسرارها هي التي يتكلم بها الطبل الآن، وإن شيئاً عميقاً في نفسه كان يعرف هذه اللغة ويفهمها ويلبي على الفور نداءها، اختفت كل آلات الموسيقى الأخرى وظل الطبل وحده يرسل النداء، كأن قبيلة أفريقية تنادي الآن ابناً لها تاه في أحراش إحدى الغابات، وسيقع بعد قليل فريسة في أيدي قطعان من النمور المفترسة وعلى القبيلة أن ترسل له بهذا الطبل إشارة الخطر وتدله على الطريق.

بدأ ظلام الصالة يتبدد شيئاً فشيئاً أمام عينيه، لم تكن هناك غابة ولا قبيلة أفريقية ولا نمور مفترسة، كان هناك ملهى على غير ما تعود أن يرى الملاهي أنيقاً بالغ الفخامة والبهاء كأنه ليس ملهى ليلياً و إنما صالة بقصر رجل وافر الثراء كل شيء فيه كان يتألق متوهجاً تحت نور المصابيح الخافتة التي أحسن توزيعها في كل الزوايا، البسط والستائر وقطع الديكور وأعمدة البلور والموائد التي يجلس إليها الزبائن، حتى هؤلاء الزبائن كانوا يشعون توهجاً كأن غباراً فسفورياً قد ذروه فوق وجوههم ورؤوسهم وألبستهم قبل قدومهم إلى هنا، وكانوا يجلسون إلى موائدهم يتابعون الموسيقى في صمت كأنه الصلاة، كأن الذي يشاهدونه ليس عرضاً راقصاً وفرقة تعزف الطبل وآلات النفخ، بل قداساً دينياً يقتضي التبهل والخشوع، وعلى غير ما تعود أن يرى في الملاهي لم يكن هناك زبون واحد أفقده الخمر رأسه فمضى يطوف بين الموائد بغير رأس، كان الجميع يحتفظون برؤوسهم سليمة يلمع غبارها الفسفوري تحت ضوء المصابيح. وعندما جاء عامل الملهى يأخذ عنه معطفه ويقوده إلى المائدة التي اختارها له، مرتدياً بدلة ذات طابع تاريخي، مستعملاً في الحديث لغة لاتعرفها إلا أرقى الصالونات، كان يبدو وكأنه ليس نادلا بملهى ليلي بل هو أحد موظفي المراسم بقصر ملكي. بدا الأمر في ذهن «عبد الله» مريباً إلى أبلغ حد، إنه لم يتسلل هارباً من الفندق في جنح الظلام إلا لكي يشرب كأسين طال اشتياقه إليهما بعيداً عن فضول زملائه أعضاء الوفد، فإذا به يدخل الآن عالماً غريباً لم يعرف له شبيهاً من قبل، إنه لايخشى شيئاً سوى فضيحته أمام اعضاء الوفد الرسمي الذين جاءوا معه لحضور مؤتمر يبدأ غداً، لعل هذا ليس ملهى على الإطلاق، ماذا يكون إذا، إنه بالتأكيد ليس قصراً لأحد الأثرياء دخل إليه خطأ، فقد دفع التذكرة وشاهد لوحة تصرخ بالضوء أن هنا ملهى، ماذا يكون يا ترى؟ لعلها عصابة تستعمل أسلوباً راقياً لاصطياد ضحاياها، فإن هذا السكون الغريب الذي يسيطر على الجالسين بحيث لاتسمع من خلاله شيئاً سوى صوت الموسيقى، ليس سكوناً عادياً، إنه يوحى بأن شيئاً ما سوف يحدث بعد قليل، لاشك أن الجميع بانتظار مشهد غريب سوف يتم بعد لحظات أمام أعينهم، رجل يرتدي لباس «الساموراي» يخرج من وراء أحد الأعمدة، يستل من حزامه سيفاً ينتحر به أمامهم على الطريقة اليابانية القديمة، أو يقوم أحد الجالسين فجأة إلى رفيقته يقبلها ثم يخرج من جيبه مسدساً يضعه في جبينها ثمّ يطلق النار لتهبط فوق الأرض جثة بلا حراك .. أو أي حدث آخر فظيع يملأ القلوب رعباً، لماذا لايقوم في التو والحين ويفر بجلده قبل فوات الأوان، لكن لهذا الطبل سحراً لا يقاوم، حتى عندما انتهى العرض الراقص وجاء دور المغني كان ما يهمه هو هذا الايقاع الذي لايذكر إيقاعاً أو عزفاً أو غناء استولى على مشاعره بمثل ما فعل هذا الطبل الذي تفنن الزنجي العجوز في أن يقول من خلاله كل ما حوته أفريقيا من قصص وأشعار وأساطير، كان مايزال يسبح في رؤى قديمة أيقظها في ذهنه هذا الإيقاع ويرتشف في شراهة كأسه الثالث، عندما اكتشف فجأة أن القاعة قد خلت تماماً إلا منه، افرغت في لمح البصر كل زبائنها ولم يبق من أحد سواه، هبط قلبه على الفور إلى الأرض، وألتفت مذعوراً إلى الشمال و إلى اليمين، لم يكن هناك من أحد سوى عمال الملهى يتناثرون في أنحاء الصالة، أحد هؤلاء العمال، بل هو بالذات ذلك الذي قابله عند الباب وأوصله إلى هذه المائدة كان

يقف قريباً منه يلوي نحوه عنقه ويبتسم في شماتة. ها قد تمت اللعبة ووقع في الفخ .. جاءت الفضيحة التي كان يخشاها، بل هو الموت والفضيحة معاً، قتيل بلا هوية في حي الإثم والخطايا، لقد كانت سيرته دائماً حميدة في أفواه الناس في وطنه، لايعرفونه إلا رجلاً يراعي الله في قوله ومسلكه، بل إن أهله في القرية لايعرفون له اسماً غير «الشيخ عبد الله»، ماذا سيقولون عنه الآن، أي ذكرى يتركها للطفلة الصغيرة وللولد الوحيد الذي أتم أعوامه العشرة وسوف يصبح رجلاً في أي لحظة، ولعن الضعف الذي ساقه إلى هذا المكان، وفكر في أن أول شيء عليه أن يفعله الآن، هو أن يجمع كل ما لديه من قوة في قفزة واحدة ترمي به إلى الباب لعل في ذلك نجاة له بدلاً من هذا الاستسلام، وهم بأن يفعل ذلك على الفور نجاة له بدلاً من هذا الاستسلام، وهم بأن يفعل ذلك على الفور لولا أن حانت منه التفاتة خاطفة إلى منصة العرض، وادهشته البالغة كان كل زبائن الملهى يحتشدون هناك في ساحة الرقص، عاد قلبه يصعد من جديد إلى صدره، أدرك أنهم يمنحون الآن حصة من البرنامج لجمهور الملهى يرقصون، تنهد عميقاً في ارتياح ولام نفسه على سوء الظن بعامل الملهى الذي لم يكن يبتسم لايذائه، وإنما لمجرد التودد إليه. لقد بدأ الرقص وما عليه الآن إلا أن يفعل مثل الآخرين ويذهب إلى الساحة ويرقص لا حاجة بعد الآن إلى الخوف والريبة والتفكير في الخروج، فكل شيء من حوله يعد بسهرة ممتعة وهذا الطبل مازال يرن في سقف القاعة يدعوه إلى بهجة الحياة .. ما عليه الآن إلا أن يذهب إلى الساحة ويرقص، وسيرقص كما لم يرقص أحد من قبل، لن يكون رقصاً، بل هو حوار مع هذا الإيقاع الذي تحمله ريح مضمخة بالعطر من قلب أفريقيا، وسيكون الرقص وسيلته الوحيدة للتفاهم مع هذا الطبل الذي تربطه به صداقة قديمة، سيحكي له بالرقص قصصاً تعلمها من جدته عندما كان طفلاً في قريته التي تقع على حافة الصحراء، سيرد بالرقص كل همومه وأحزانه، ولن يكف عن الرقص حتى يتحرر تماماً من كل الأعباء التي تثقل صدره، سيرقص ويرقص حتى يقع فوق الأرض منهمكاً، وكاد بالفعل أن يذهب إلى الساحة لكي يرقص، لولا أنه اكتشف في اللحظة الأخيرة أن ذلك مستحيل، لقد نسي في غمرة هذا كله أنه لايعرف الرقص، ولم يحدث مرة واحدة في حياته أن رقص، ذاك لأن احداً لم يعلمه كيف يكون الرقص بل هو لم يشاهد الرجال والنساء يرقصون ألا عندما عرف الذهاب إلى الخارج، ثم كيف ينسى أنه الوحيد في هذه القاعة الذي يحتل مائدة لايشاركه فيها أحد، لقد ذهب الآخرون إلى الرقص لأن هذا ما تعودوا أن يفعلوه منذ الصغر، ولأن أحداً منهم لم يأت إلى هذا المكان بمفرده كما فعل هو، لقد جاء الرجل ومعه أنثاه، وجاءت الأنثى ومعها رجاها، ولهذا هم يرقصون، وأحس من جديد بحرج الموقف، أحس أنه صار الآن كسيحاً، وأن الدم في عروقه صار ماء، وانه سوف لن يقوى على القيام من مقعده أو تحريك قدمه من موضعه، إنه الآن كسيح ما في ذلك شك، وتأكد أن لا أمل له في الشفاء من هذا الكساح الذي اصابه فجاة إلا بشيء واحد، هو أن يرى زبونا واحداً غيره بقي مثله في الصالة ولم يشارك في الرقص، لكن نظرة أخيرة طاف بها كل الصالة خيبت أمله وزادته مرضاً، فلم يكن في الصالة سواه، محال أن يأتي ذلك صدفة، محال أن يذهب الجميع إلى الرقص هكذا مرة واحدة بحيث لايبقى إلا هو، إن في الأمر مؤامرة

ما في ذلك شك، أن شيئاً ما يدبر ضده هذه الليلة وسوف يظهر جلياً أمامه بعد لحظات. كان عامل الملهى ما زال يقف في مكانه يلوي نحوه عنقه ويبتسم، طلب إليه أن يحضر كأساً أخرى لعله ينصرف بعدها، لكنه أحضر الكأس وعاد إلى مكانه يلوي بين لحظة وأخرى عنقه ويبتسم، لم يكن يبتسم شماتة ولا تودداً، كان واضحاً الآن أنه يبتسم سخرية وهزءاً، أحس «عبد الله» بالموقف يزداد حرجاً، ومرض الكساح في ساقيه يزداد سوءاً .. ما الذي يضحكك أيها النادل الذي يظن نفسه مديراً للمراسم الملكية، وما الغرابة في أن يبقى زبون لايشارك في الرقص، ألم تر هذا يحدث من قبل، أم تراك عرفت أنني قادم من طرابلس، وما العيب في ذلك أيها الرجل الملكي الذي يخفي قرنيه تحت غبار من الفسفور، أنها أعظم مدن الدنيا شهدت حضارة الرومان والإغريق وحضارة العرب .. إنني أعرف حقدكم التاريخي ضدنا، وما العيب في أن الناس هناك لايعرفون الرقص، وهم يعتبرونه عيباً أن يرقص الرجال والنساء في الأماكن العامة، نعم هذا صحيح لكن ليس في كل الحالات .. ثمّ من أين أستقيت هذه المعلومات المشوهة عن وطني أيها الرجل الذي أفسدته حضارة تنهار وتتعفن .. ما العيب مع النساء في بلادي، أن لديهن حرمة هناك، أن عليك أن تغسل فمك بماء الزهر قبل أن تأتي على سيرتهن، هل تريد لهن حياة مثل الأنثى في بلادكم التي لم يعد لأنوثتها و إنسانيتها معنى، تريد للمرأة أن ترتاد الأندية والمقاهي وترقص في الملاهي الليلية وتشرب الخمر وترافق الرجال .. هل تسمى هذا حرية. أم لعل هذه هي الفضيلة في بلادكم؟ .. أراك تبدي استياء من طريقة الزواج في بلادنا .. أعرف كل ما يدور في حنايا رأسك هذا الذي تعفنت خلاياه بأبخرة الخمارات .. ما العيب في أن يتزوج الرجل امرأة لم يعرفها ولم يشاهدها إلا ليلة العرس، هذا ما فعلته أنا شخصياً عندما تزوجت .. وقبلت راضياً تلك الإنسانة التي ساقها القدر إلي .. كيف تسمّي هذا رعباً أيها الفاسق الذي يقود الرجال إلى مخدع زوجته في أعقاب كل ليلة .. كيف إذن نعصم أولادنا وبناتنا من الخطيئة إذا نحن سمحنا لهم بالتعارف والاختلاط وتبادل الغرام قبل الزواج .. ماذا؟ .. هل اسمعك تقول الحب؟ .. أي حب هذا الذي يريد رجل وهب حياته للعهر مثلك أن نقدم الفضيلة قرباناً على مذبحه. وهل هناك حب غير هذا الذي تبيعونه في دكاكين الفسق التي تفتحونها كل يوم، أليس هذا هو الحب الذي تحكي عنه .. لا أيها الرجل الفسفوري .. أن هذا تحتفظ به لنفسك وتجعل منه تجارة كما تشاء، أما نحن فتأكد أنك لن تفلح بكل ما ترسله إلينا من أشرطة العهر والخلاعة ومجلات العرى الملونة، وفي أن نتنازل شعرة واحدة عن ذلك «الشرف» الذي ميز سلوكنا وأفعالنا، وسيظل الرجل في بلادي على استعداد لأن يقتل ابنته على الفور إذا ما عرف أنها قد صدقت عهر أشرطتكم ومجلاتكم وأحبت من وراء ظهره ولداً

لماذا تنظر إلى هكذا في استغراب .. أنني لم أفقد رأسي بعد.

ـــ تعال إلى هنا.

قالها في حدة فاجأت عامل الملهى الذي لبى النداء مسرعاً.

ـــ أحضر لي كأساً أخرى .. ولتكن هذه المرة «دابل».

كانت حصة الرقص قد انتهت، توقف الطبل عن النداء، وعاد الراقصون إلى أماكنهم في حين كان مذيع الملهى يقدم الساحر الذي دخل إلى الساحة مهرولاً، وبدأ في الحال ينشر مناديله ويخرج من جيبه أعداداً هائلة من الحمام، لكن شيئاً آخر شده عن الساحر ومناديله وحمامه، فقد تبين عند عودة الزبائن إلى موائدهم بعد الرقص، إلى أن قريباً منه، وفي المائدة التي تواجهه مباشرة، قد جاء وجلس ولد وبنت لعله قد رآهما منذ البداية لكنه الآن فقط يكتشف أنهما ليسا مجرد رجل ورفيقته فقد كانا بالضبط طفلاً وطفلة، وماذا يمكنه أن يسمي ولداً في السابعة أو الثامنة عشرة من عمره وبنتاً في مثل سنه أو تصغره قليلاً، ماذا يسميهما غير أنهما طفلان، كيف لا يستغرب «عبد الله» وجودهما، وكيف لايتساءل في نفسه عن سر ذلك الأب وتلك الأم اللذين يتركان طفلاً وطفلة في سنهما يخرجان إلى الملهى في هذه الساعة من الليل.

تفرغ «عبد الله» تفرغاً كاملاً لهما، تنازل نهائياً عن حصته في الساحر، وعدل قليلاً في جلسته لكي لايرى مشهداً سواهما، كانت هي ترتدي فستاناً بسيطاً سماوي اللون يصل إلى ما فوق الركبة بقليل، ويرتدي الولد بدلة سهرة كاملة، غامقة اللون، تماماً كما يفعل الرجال الكبار، وعدا عن ذلك الغبار الفسفوري الذي يجعل كل شيء فيهما مشرقاً لامعاً كغيرهما من رواد هذه القاعة، عدا ذلك فإنه ليس هناك شيء مثير حولهما سوى أن البنت جميلة، ذلك النوع من الجمال الهادئ البسيط الذي ما أن تراه حتى تذكر على الفور أجمل ما قرأت من شعر وأجمل ما سمعت من موسيقى وكل ما وقفت أمامه منبهراً من مشاهد الشروق والغروب أو البحيرات أو الأنهار، وجهها تعلوه مسحة ملائكية تجعله أشبه بصورة أو رسم في كتب الأطفال القصيصية، لو فكر في اسم لها لما وجد غير «ساندريلا» فهي لم تكن سوى تلك الصغيرة خرجت لتوها من قلب الأسطورة.

والولد كان حقاً طفلاً، له ملامح طفل وعينا طفل وابتسامة طفل، عدا أنه في حجم الرجال وطولهم، لاتتصوره بقوامه الممشوق ألا فارساً امتطى جواداً مجنحاً يطوي به السحاب ليختطف حبيبة تنتظره هناك في شرفة عالية ينيرها ضوء القمر، تماماً كما في أحلام الصبايا.

ورغم قربه منهما واستغراقه الكامل في الاهتمام بهما فإنه لم يستطع أن يتبين ما يقوله هذان العاشقان الصغيران لبعضهما البعض، بل هما في الحقيقة لم يقولا شيئاً، كان الواحد منهما يكتفي بكلمة واحدة أو همسة أو إشارة ليفهم الآخر كل شيء فيقوم من فوره يضحك في سعادة لامثيل لها إلا سعادة صاحبه. كان يراهما في لحظات وقد استغرق كل منهما في الآخر استغراقاً يبدو معه وكأن أحداً قد جاء وطرد من فوق الأرض كل الناس ولم يبق على أحد سواهما حتى صارت كل هذه المدن والبحار والغابات ملكاً لهما وحدهما لايشاركهما فيها أحد، وكانت الدهشة تبدو واضحة على وجهيهما عندما يتنبهان إلى أن أحداً لم يفعل ذلك، وأنهما ليسا سوى زبونين في ملهى يمتلىء بعشرات الزبائن وأن ساحراً كان قد أفرغ ما في جعبته من حيل وألعاب وما في جيوبه من مناديل وأرانب وحمام وانتهى من تقديم «نمرته» وأن زنجيا «عجوزاً» جاء إلى ساحة العرض يحمل طبلة وخمس نساء عاريات ألا من ريش ملون طويل يغطي

بعضاً من أجسامهن جثن لتقديم عرض راقص ومع ذلك فالعاشقان الصغيران سرعان ما يعودان إلى بعضهما، يضحكان معاً ويتبادلان الدهشة والاستغراب لكل ما يشاهدانه كأنهما يعيدان اكتشاف العالم معاً، كأنهما حقاً أمير وأميرة خرجا للتو من كتاب الأسطورة فوجدا عالماً جديداً يثير فيهما الدهشة والفضول. بدا واضحاً أن كلاً منهما سعيد بالآخر سعادة لاحد لها كأنهما ذاقا عذاباً شديداً قبل أن يلتقيا معاً، بل إن «عبد الله» أحس بذلك الطبل الذي عاد الآن يبعث بايقاعاته ويروي ما عنده من حكايات، أحس به كأنه الآن يخبره عنهما، وأنهما لم يكونا من قبل غير عجوزين أعياهما الزمن فتحولا على الفور لحظة اللقاء إلى ولد وبنت في شرخ الصبا والجمال، وأنهما لو افترقا لحظة واحدة عن بعضهما لعادا من جديد شيخين هرمين أو لتبخر كل منهما وأختفى فجأة من الدنيا، ويصدق ما يقوله هذا الطبل ولايتصور أن يبقى أحدهما بعيداً عن الآخر، حتى لوكان بعيداً فإن عليه أن يأتي من آخر الدنيا بأقصى ما يستطيع بحثاً عن صاحبه حتى يلقاه وإلا فإنه سيسقط ميتاً فوق الأرض، أو يتبخر كماء النار في الفضاء، أو يجد أن الله قد مسخه فأراً أو أرنباً أو سلحفاة أو نملة وأنه لا خلاص له ألا بلقاء الآخر. وأدرك «عبد الله» أنه الآن يشاهد حباً حقيقياً، تبخرت من ذهنه تلك الصورة التي كان يرسمها عن الحب، تأكد له جمال وروعة أن يحب الإنسان، إنه الآن على يقين كامل بأن من يعرف مثل هذا الحب سوف لن يجرؤ المرض على الاقتراب منه، لن يعرف الفقر أبداً ولا الجوع، بل هو لن يعرف أبداً الموت، تأكد في ذهنه أنه حتى المطر الذي تركه يهطل بغزارة خارج الملهى سوف لن يجرؤ على أن يبلل شعرهما أو ثيابهما عندما يغادران المحل لأن المطر يعرف أنهما يحبان، لن يؤذيهما البرد أو الحر لأنهما يحبان، لن يمنعهما أحد من الدخول إلى المطاعم والمقاهي والأندية والاستمتاع بالأكل والشراب والمشاهدة مجاناً لأنهما يحبان، لن يحتاجا إلى دفع تذاكر المواصلات أو إيجار البيت الذي يسكنانه أو ثمن ما يشتريانه من المتاجر لأنهما يحبان. إنه الآن فقط بدأ يعي فداحة أن يحيا الإنسان بلا حب، فداحة أن يمضي العمر سجين بيئة تسمي الحب فجوراً، وتصدقها أنت في ذلك ولا تهتدي إلى ما في قولها من زيف وبطلان ألا بعد فوات الأوان. إنه الآن فقط يكتشف مدى ما كان في حياته من قبح، وأنه لم يمارس في يوم من الأيام إنسانيته، وأنه قد تحول منذ زمن طويل إلى سلحفاة أو نملة أو فأر، وتأكد له أن كل ما أصابه في حياته من مرض أو صداع أو أرق أو حمى إنما أصابه لأنه لم يحب، وكل ما ألم به من هموم ورزايا وأحزان إنما ألم به لأنه لم يحب، وعندما كان ينهزم في العراك وهو صبي إنما ينهزم لأنه لم يحب، حتى عندما كانت تبلله الأمطار أو يؤذيه البرد وقيظ الشمس أو يكتب له رئيسه في العمل رسالة انذار أو يطالبه الدائنون بدين كان ذاك يحدث لأنه لم يحب، بل ان الموت نفسه عندما يأتيه فهو لا يأتيه ألا لأنه يعرف أن «عبد الله» عاش حياته كلها لم يهتد ألى هذا الحب.

لأول مرة يكتشف كيف أن أعوام الصبا والشباب تسربت من بين أصابعه كالماء دون أن يفعل بها شيئاً. دون أن يعرف بهجة يوم واحد من أيامها، عاشها بمثل ما يحياها رجل عمره مائة عام.

وأصابه فجأة رعب حقيقي، فقد تذكر لتوه أمراً خطيراً، أمراً عاش طوال عمره ام ينتبه إليه الا

الآن، هنا في هذا الملهى الليلي، في هذه البلاد الغربية، وفي حضور هذا الطبل وهذين العاشقين الصغيرين، الآن فقط يكتشف، أنه لم يتلق خلال أعوام عمره التي وصلت الأربعين، ولو لمرة واحدة، رسالة غرامية. وبدا له أنه لو حدث مرة واحدة وتلقى مظروفاً معطراً مكتوباً من أنثى تحبه، حتى لو لم يكن حباً حقيقياً، حتى لو كان مجرد طيش ووهم كاذب، لو حدث ذلك لما تعذب الآن كل هذا العذاب، ولتغير وجه الكرة الأرضية بأجمعها.

وكأنما خشي أن يكون أحد الناس قد عرف سره، فأدار رأسه في وجل يمسح المكان بنظراته، لم يكن ثمة أحد ينتبه إليه، كان الجميع يغطيهم ذلك الغبار الفسفوري، رجال ونساء يتهامسون ويرتشفون شرابهم ويتابعون العرض، وولد وبنت نسيا العالم من حولهما وتاها في دنياهما، واطمأن إلى أن احداً لايعرف امره، ألا أنه أفاق فجأة إلى أن أحداً يناديه الآن باسمه، وأدرك على الفور أن ذلك ليس سوى هذا الطبل اللعين الذي يابى أن يتركه هذه الليلة يمضي الى حاله، فقد تحول الآن إلى سرد قصة رجل أضاع العمر سدى، تنكر لحاجاته الإنسانية وندائه الداخلي واستسلم طائعاً لقهر مجتمع التقاليد، وإرضاء لهذا المجتمع ارتدى قناعاً ظنه مع طول المدى وجهاً حقيقياً ومضى يمارس حياته على هذا الأساس، وعندما أفاق يوماً إلى نفسه وأدرك أن هذا القناع ليس وجهه، وأراد أن يعود الى وجهه الحقيقي، اكتشف أنه لم يعد له وجه على الإطلاق. وعرف على الفور أن الطبل لم يكن يقصد أحدا سواه، وأنه الآن يعيره بكل يوم مر من حياته يكشف أمام الناس سره ويظهره عارياً بلا لباس. ألا ينتهي هذا الطبل اللعين ويصمت إلى الأبد. لكن الطبل لايتوقف إنه يمضي متدفقاً، يسرع في الايقاع ويبطئ مرة أخرى، يثور أحياناً ويهدأ أحياناً أخرى وهو معه يصعد ويهبط، يقذف به الطبل حتى يخترق السقف ويرمي به أشلاءً فوق الأرض، حاول أن يغمض عينيه كي لايراه ويسد أذنيه كي لايسمعه، لكن الإيقاع يقتحم عليه كل كيانه ويثير بداخله أمواجاً من العذاب الذي لا حد له. ولأمر ما تحول كل غيظه إلى هذا الولد وهذه البنت اللذين يجلسان أمامه، كأنهما المسؤولان وحدهما. ولا أحد غيرهما، عن كل ما أصابه من تعاسة، عن كل خيبة العمر التي مني بها. لقد ظن نفسه دائماً رجلاً ناجحاً، أحتل بفضل اجتهاده مناصب يحسده عليها الناس، وتم اختياره مندوباً لبلاده لدى مؤتمرات دولية كبرى، حتى جاء هنا الليلة ليجد ولداً وبنتاً خارجين عن كل أدب وذوق ومسلك شريف، يمزقان فجأة كل الأردية التي تغطيه، يهدمان كل الأبنية التي شادها ليحتمي بها، ليكتشف أن كل ذلك لم يكن سوى وهم وكذب. وفكر لو أن في جيبه مسدساً الآن لما تردد لحظة واحدة في أن يطلق عليهما النار حتى يراهما قد ماتا إلى الأبد.

«أي حظ هذا الذي جاء بكما، ولم يجد لكما مكاناً إلا هذا المكان، ولم يجد لكما مائدة تجلسان إليهما غير هذه المائدة التي تقع مباشرة أمامي، بل لماذا لم تختارا ليلة أخرى تأتيان فيهما إلى هذا المكان، وتمارسان العهر الذي تمارسانه كما يشاء لكما الغرام، ألا يكون أحدهما أو كلاهما طرفاً في مؤامرة تدبرها ضدي هذه المدينة التي أقضي بها ليلتي الأولى. أليس لأحدهما أب حازم يأتي الآن على الفور ويجره إلى

الخارج وينهال عليه صفعاً وركلاً وشتماً ويمنعه من أن يرى الآخر إلى الأبد».

فجأة رأى الولد والبنت يقومان، وعرف أن حصة للرقص قد جاء أوانها الآن، أخذ الولد البنت وذهبا إلى ساحة الرقص، كان يمد ذراعه حول خصرها الذي بدا ناعماً ليناً ويحتويه برقة كأن يخشى عليه الكسر. مضى كل لأنثاه، ولم يبق إلا هو، «لا لاتنتظر مني أيها النادل أن أخبيء نفسي تحت المنضدة أو أذهب لأختفي وراء إحدى الستائر، ليس لدي ما أخبيه بعد أن قال الطبل كل شيء، وخذ أنت أيها الولد فتاتك وتمخطر بكل ما في الدنيا من زهو وكبرياء، لايهم، وليضع كل منكم أيها الراقصون رأسه في حضن أنثاه ويرقص، فأنا فقدت قدمي منذ زمن طويل، ألا تعرفون أنني أزحف زحفاً». وضحك لهذا الخاطر .. ثم ارتفعت ضحكته حتى صارت قهقهة ارتعب لها عامل الملهى الذي كان يقف قريباً منه فابتعد على الفور، مضى يتابع الراقصون في فصول، كانت «ساندريلا» تستسلم لأميرها وتضع رأسها على كتفه مغمضة العينين كأنها تأخذ اغفاءة لذيذة، وكان هو أيضاً قد توسد كتفها وأسبل رموش عينيه. ثم مغمضة العينين رآها ترفع رأسها فيرفع الولد أيضاً رأسه، ومغمضي العينين يميل كل منهما نحو الآخر، ثم ضاعت ملامح كل منهما في ملامح الآخر، ضاع شعره في شعرها، في عينيه وأنفه في أنفها، ذابا في بعضهما البعض وامتزج لون ردائها الأزرق بلون بدلته الغامق، وضاعت الشفاه في الشفاه والصدر في الصدر وصارا كياناً واحدا. ونسى هو نفسه معهما، إنه الآن ليس سوى كيان ثالث انضم إليهما وامتزج بهما وتداخل فيهما فلم يعد يذكر الصالة الفارغة الا منه، ولا عمال الملهى ولا الطبل الذي ينادي، لا يذكر شيئاً سوى روحه التي توحدت مع روحيهما، وأدرك أن مسألة أن يقبل الولد بنتاً ليس كما كان يعتقد جرماً يستحقان عليه القتل، فها هو يراهما الآن فلا يحس بأي حرج، إن ذرة في كيانه لم تستنكر ما يفعلانه الآن بل بالعكس من ذلك بدا واضحاً أنهما يمارسان طقساً من طقوس العبادة. فهذه القبلة التي رآهما يمتزجان فيهما روحاً وكياناً لم تكن سوى «صلاة» سوف يباركها الله وتفرح لها الملائكة في السماء.

حاول أن يكذب نفسه، حاول أن يقول لنفسه بأن هذا حقاً جريمة ضد الخلق، وأن عليه كرجل يراعي الأصول والأخلاق أن يستنكر بقوة مثل هذا المشهد. لكنه لم يستطع فما رآه كان حقاً وصدقاً صلاة، وإن كان يندم على شيء في الدنيا فعلى هذا العمر الذي ضاع دون أن يصلي. وعندما جاءه ذلك الهاتف يقول له.

«ــ ليس لدينا الحب، ولكن لدينا الفضيلة».

ضحك من نفسه لهذه الفضيلة التي يظنها الجميع فرساً سوف يركبونها لتخترق بهم لهيب النار وتلقي بهم على الفور بين أيدي حوريات الجنة. «ومن قال أن هذا الحب ليس فضيلة، من قال إنه ليس فضيلة أن تحب الولد بنت وأن يقبل كل منهما الآخر وأن يذهبا معاً إلى المرقص وأن يأخذ كل منهما الآخر بين ذراعيه يرقصان معاً ويغنيان معاً ويحلمان معاً وينام كل منهما على كتف الثاني. بل لعل

الامتناع عن ذلك هو بعينه ما يغضب الله، وأن أكبر الكبائر أن يمنح الله الإنسان شباباً وصبا فيرفض كافراً بنعمة الله هذا الصبا وهذا الشباب». أليس هذا ما فعله هو نفسه عندما سلم بتقاليد قديمة بالية ظنها شرفاً وفضيلة فنحر العمر على مذبحها ووصل سن الشيخوخة منذ أن كان عمره خمسة عشر عاماً، أحس بالتعاسة تعتصر قلبه حقاً، تعاسة تمنى لو أن معه خنجراً أو مسدساً أو سما يضع به حداً لها. وعندما انتهى الرقص وعاد العاشقان الصغيران يميل أحدهما على الآخر مداعباً، يشبكان أيديهما معاً، ويجلسان إلى مكانهما يدسان رأسيهما في بعضهما البعض، يتهامسان ويتضاحكان في سعادة، عندها كان الأمر قد وصل حداً لم يستطع معه صبراً.

ــ إنهما يقتلانني.

لم يتحرج في أن يقولها بصوت عال، فقد فاضت شجونه ولم يعد يخشى أن يعتبره الناس مجنوناً، وعلى الفور سمع صوت امرأة، تكاد أنفاسها المخمورة تلفح وجهه.

ــ هل تحدثني؟

كانت إحدى راقصات العرض، أنهت فقرتها، وارتدت ملابسها، ولم تجد في الصالة مكاناً شاغراً غير المقعد الذي بجواره.

ــ لا .. كنت فقط أحدث نفسي؟ .. ماذا يعنيك؟ لماذا تدسين أنف في شؤوني .. كان رقصك جيداً على أي حال .. أنا فقط كنت أحدث نفسي.

كان واضحاً أن السكر قد بلغ منه حداً خطيراً..

ــ ثمة من يريد قتلي هذه الليلة، أنت لاتعرفين ذلك،ولكنهم يريدون قتلي، إن هذا لايعنيك في شيء، لكن لماذا أنت تجلسين هنا .. أوه. لا، لا .. لم آت إلى هنا بحثاً عن النساء، إنني رجل صاحب مباديء، إنها تمنعني من ذلك .. أعذريني.

كانت هي تنظر إليه باندهاش .. في حين مضى يتكلم.

ــ هل أقول لك سراً ؟ .. هل تعلمين أنني لم أتلق في حياتي رسالة غرامية واحدة .. هل قابلت في حياتك رجلاً لم يتلق ولو لمرة واحدة رسالة غرامية طوال عمره. ولهذا السبب فإن أحدهما يريد قتلي هذه الليلة .. بل لعله قتلني فعلاً .. أنظري في عيني هل أنا قتيل؟

ــ هل أنت بخير ؟

ــ بخير .. لكن لاشأن لك بي أقول لك،كما لاشأن لهذا الطبل اللعين بقصة حياتي التي جاء يرويها على ملإ من الناس .. لقد عرفت منذ البداية أن شيئاً يدبر لي في هذا المكان، لكن لم يخطر ابداً على

بالي أن التي ستقتلني هي «ساندريلا» بلحمها ودمها..

كان الولد يأخذ فتاته الآن ويغادران المكان .. ومد يده إلى الكأس فمنعته.

ــ أنك شربت بما فيه الكفاية .. ماذا بك .. إنك ترتعش.

كانت قد مدت يدها تتحسس جبينه، ولم يعارض، أدركت على الفور أن الرجل محموم، أشارت إلى عامل الملهى أن يأتي ليحاسب الرجل، ويساعده على النهوض.

ــ إن عليك أن ترتاح فوراً، إن لدى بيتاً قريباً، ولا مانع أن تأتي معي.

وبلا وعي قدم إلى عامل الملهى حسابه، بلا وعي ارتدى معطفه، وبلا وعي اتكأ عليها ومضى يلوك الكلمات.

ــ تصوري، رجل في مثل سني، لم يتلق في حياته رسالة حب واحدة!!

عبرا سوياً باب الملهى الذي تغطيه ستارة حمراء إلى الممر الخارجي، وما أن لاح أمامه الشارع فارغاً موحشاً يتوجع تحت زخات المطر .. حتى قال:

ــ لابد لأحد ما أن يحبني هذه اللية.

كان يقواها بلهجة من يعرف أنه بعد قليل سوف يسقط ميتاً تحت المطر إذا لم يجد أحداً يحبه هذه الليلة.

وكأنما أدرك لأول مرة أن التي بجواره الآن امرأة .. فمضى يتوسل إليها قائلاً:

ــ أحبيني، أرجوك أن تحبيني، لاتتركيني أموت كما تموت الفئران والنمل والسلاحف، أحبيني مرّة واحدة، لا أسألك حباً يدوم إلى الأبد، أحبيني فقط هذه الليلة .. هذه الليلة .. هذه اللية.

كانت الدموع تطفر من عيني «عبد الله» دونما حرج، والطبل الذي رافق سهرته هذه الليلة مازال صداه يصل إليه في الشارع، لم يكن هذه المرة يرسل الغناء، لم يكن يسرد القصص أو يحكي الأساطير القديمة، لم يكن يحمل نداء القبيلة الأفريقية إلى ابنها الذي تاه في الغابات، فقد أدركت القبيلة الآن أن ابنها قد وقع فريسة للنمور، وأنه لاسبيل إلى خلاصه، وأنه قد أنتهى إلى الأبد ولن يعود، فانهمرت الأكف ترتمي على الطبل الذي مضى هذه المرة يرسل بكاء مراً تحمله الريح والمطر إلى أقصى بقاع الدنيا.

■

الرجل الذي لم يشاهد في حياته نهراً

وجد كرسياً شاغراً بإحدى المناضد القليلة التي تناثرت على رصيف الشارع، استأذن الرجل الذي يشرب القهوة، ارتمى بجواره على الكرسي في إعياء وجاءه العامل فطلب لنفسه فنجاناً من القهوة.

اشعل لفافة تبغ، ونظر حالماً إلى الشارع الذي امتلأ بهدير السيارات، وتصور للحظة أن الشارع قد تحول إلى نهر، وارتال السيارات تحولت إلى قوارب تحمل عشاقاً وتمضي مع التيار في بطء، والقمر الذي يشع ذهبياً في الضفة المقابلة أشعل ألسنة النار في زرقة النهر، ورأى نفسه يجلس إلى خميلة عند ضفة النهر، تحت قدميه نبتت الأعشاب والزهور، وقريباً منه جاءت تطوف الفراشات والعصافير، ومن حوله انتشرت أشجار الورد وقد صفت تحتها عشرات الموائد التي جلس إليها رجال ونساء يتحادثون همساً ويتبادلون الأنخاب، ملأ صدره بشذى الزهور واستسلم في خدر لذيذ لصوت الموسيقى الذي ينبعث من مكان قريب واكتشف أن بجواره تماماً قد نبتت شجرة لها جذع كبير، مدت فوق رأسه غصناً يمتلئ بالبراعم التي لم تتفتح بعد، وتحت هذه الشجرة تعود أن يلتقي كل مساء بحبيبة القلب التي جلس ينتظر قدومها بين لحظة وأخرى، أحس بحركة قريباً منه فرفع رأسه رأى أن الشجرة قد صارت رجلاً عرف فيه على الفور عامل المقهى الذي جاء يضع بجواره فنجان القهوة، لعن في سره العامل الذي ظهر فاختفت فور ظهوره القوارب والعشاق والزهور والعصافير والموسيقى، التفت شمالاً ويميناً لعل أحد هؤلاء الناس الذين يجلسون إلى كراسيهم في إعياء ويشربون القهوة قد رأى النهر الذي رآه، لكنهم جميعاً كانوا يسدلون ملامحهم في انطفاء، كأن أحداً قد مر منذ قليل من هنا وذر فوق وجوههم وألبستهم أكداساً من الرماد، وتأكد لديه أنهم جميعاً لم يروا النهر، وأن أحداً منهم لم يشاهد في حياته نهراً، ومرة أخرى أغمض عينيه وحاول أن يتركهم جميعاً ويذهب بمفرده إلى النهر، ويلتقي بحبيبة

القلب التي لا بد أنها الآن تسبح عارية في مياهه، لكن أصواتاً يخرجها الرجل الذي بجواره عندما يشرب القهوة أفسدت عليه الحلم، تأكد أن الحبيبة التي جلس ينتظر قدومها تحت الشجرة، سوف لن تأتي أبداً.

التفت في غيظ إلى الرجل الذي يشرب القهوة، فرأى أن الرجل قد صار الآن جملاً. وضحك في نفسه، ما أسرع ما يتحول هؤلاء الناس إلى إبل بمجرد شراب القهوة. تحسس هو أيضاً عنقه، الرجل قد أصبح جملاً لأنه لم ير نهراً، وأنا يا إلهي متى أرى هذا النهر اللعين.

كانت نفسه قد عافت القهوة، فترك الفنجان كما هو دون أن يمسه، وفكر في أمه، إن لها أيضاً عنقاً طويلاً، إنها تجلس كل صباح إلى المندار، وتمد عنقها من فوق أسطح المنازل وتطوف متسللة برأسها بيوت الأقارب والجيران بيتاً بيتاً، وتفتش لعل أحدهم يخبيء في دواليب المطبخ وأوانية، أو تحت الكراسي أو أسفل الأسرّة، أو في حشو إحدى المخدرات، طفلة طيبة تنفع عروساً لابنها.

فلقد أزعج المرأة العجوز أن ترى ابنها يصبح هذا الرجل الآخر الغريب، الذي لم تعرفه من قبل، قلقاً، مهموماً، متبرماً بالحديث، عازفاً عن الطعام، حتى نومه لم يدع هادئاً كما كان من قبل، صار يقوم من نومه ويطوف أركان البيت، كأن روحاً شريرة قد تلبست بدنه.

وأدركت الأم العجوز، أن الولد سيضيع، إن لم تذهب فوراً وتبحث له عن زوجة، هو يعرف مشاعر أمه .. ولكن..

ــ إن كنت حقاً أمي، فهاتي لي بدل الزوجة .. نهراً.

ضحك في رثاء .. ما ذنب امرأة لم تشاهد في حياتها نهراً.

لكن الجمل الذي يجلس بجواره ويشرب القهوة، مد له عنقه، وفتح شارباً مفلوقاً إلى نصفين، وتساءل بلغة الجمال، إن كان الحديث موجهاً إليه، امتلأ قلبه غيظاً، تأكد له أن حبيبة القلب التي تسبح عارية في مياه النهر قد قررت أن تهجره إلى الأبد، تظاهر بأنه يرد تحية رجل مر من بعيد، سحب الجمل عنقه وعاد لشراب القهوة.

قال لها إن المشكلة هي النهر وليست الزوجة، لكن المرأة العجوز لاتفهم، كيف يستطيع أن يدخل في رأسها أن أزمته ليست في بنت طيبة تعثر عليها صدفة بأحد شقوق المنازل القديمة، لو كان كذلك لهان كل شيء، ولأصبحت جميع المشاكل منتهية منذ أول يوم رأى فيه ابنة جار لهم يشتغل بالبقالة، تطل من خلف ضلفة الباب وتبتسم له، يومها ظن لأول وهلة أن جميع الأنهار في الدنيا قد خبأت منابعها في بيت هذا الجار، لكن ذلك لم يدم طويلاً، ففي اليوم التالي دقوا لها وتداً في صحن البيت وعقاباً لها وضعوا في عنقها حبلاً وربطوها إليه وكان أن تحولت البنت على الفور إلى شاة، ما ان يأتي المساء حتى ترسل ثغاء حزيناً يزرع الوحشة في ليل المدينة، وصار يدرك أن كل هذه البيوت التي

تلتصق بالأرض في مختلف أحياء المدينة تتحول بالليل إلى حظائر، لأن في كل بيت ثمة صبية صغيرة حاولت يوماً أن ترضي فضولها، وتطل من خلف الباب لتعرف فقط ما إذا كان هناك نهر يجري أمام بيتهم، فكان أن وضعوا في عنقها حبلاً وربطوها إلى وتدفي صحن البيت.

وأمه لاتفهم ذلك، لاتفهم أن البنات في مدينتهم يتحولن عند مغيب الشمس إلى شياه والرجال يتحولون عند شراب القهوة إلى إبل .. لأن أحداً منهم لم يتدارك الأمر ويشاهد لنفسه نهراً قبل فوات الأوان.

هو نفسه كان حائراً، لايجد تفسيراً لهذا القلق الذي ألم به، كأن ارتالاً لا حد لها من النمل الأسود تطارده في كل مكان، هذه السحابة الثقيلة من الكآبة التي كلما جاء المساء أطبقت على صدره وأحس في كل مرة بأن العالم قد فرغ من الهواء وأنه سيموت اختناقاً، هذه الأشباح التي تزوره كل ليلة وتملأ رقاده برعب الكوابيس، هذه المرارة التي يفيض بها حلقه كأنهم يفقسون حنظلة في فمه كل صباح، وهذه الشهية المسدودة للعمل والطعام والقراءة، فالصحف التي كان يدمن قراءتها صار لايطيق النظر إليها كأن عقارب وخنافس سوف تقفز إلى وجهه لو فتح صفحة من صفحاتها حتى أجهزة المذياع التي تناثرت في كل أركان البيت صار يرعبه الآن مجرد الاقتراب منها كأن حساء ساخناً سوف يأتي مدلوقاً على وجهه لو حاول لمسها، ثم أخيراً هذا الشعور بالقرف الذي يملأ نفسه ويجعله لا يطيق الجلوس إلى أحد ولا معاشرة الناس ولا الدخول في نقاش معهم وهو حائر لا يجد تفسيراً لذلك، إلى أن لمع في ذهنه خاطر كأنه البرق. هكذا دون ما سبب، فجأة وهو يجلس كما تعود كل عشية إلى المقهى. تذكر أنه لم يشاهد في حياته نهراً. وأنه وإن قرأ وسمع كثيراً عن الأنهار، وشاهد أفلاماً تنقل مشاهدها وتحكي قصصاً حولها. إلا أنه لم يحدث أن رأى نهراً مرأى العين، ونما في ذهنه يقين كامل بأن كل ما لاقاه في الحياة من عناء إنما حدث لأنه لم ير نهراً. وأن ما يأتيه في الليل من أشباح. وما يملأ نهاره بأسراب النمل الأسود، وما يملأ حلقه مذاق الحنظل، أن هو إلا نتيجة لأنه لم ير في كل أيام عمره مشهد نهر يجري وأن الأمر كان يختلف لو أن القرية التي أمضى بها أعوام الطفولة لم تكن في قلب الصحراء وإنما بجوار أحد الأنهار أو أن المدينة التي انتقل إليها كان لها موقع على شطآن نهر. لو حدث ذلك لما تعذب كل هذا العذاب. لمّا هجرته حبيبة القلب التي صنع لها من أوهامه شجرة وجلس عندها ينتظر أن تخرج عارية من ماء النهر. ولامتلأت الدّنيا من حوله غناء ورقصاً وموسيقى. ولصار للحياة معنى.

هكذا شعور غريب نما في ذهنه وصار يقيناً ثابتاً بأن الحياة لاتكون حياة الا اذا كان بها نهر، وأن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا عاش يوماً بجوار نهر. فما كان للجنة أن تكون جنة لو أن الله لم يخلق أنهاراً تجري من تحتها، وما صار الجحيم جحيماً إلا لأنه قفر من الأنهار.

وأحس منذ ذلك اليوم أنه صار يملك تفسيراً لكل مظاهر الحياة في مدينته، ويعرف سبباً لكل هذه الأكداس من الذوق الفاسد التي تملأ الدنيا من حوله، والتي لم تعد كما كانت سابقاً تثير حنقه

وحيرته. إذ كيف يغضب الآن لجلافة عامل المقهى وهو يعلم أن هذا العامل السيء الحظ لم يشاهد في حياته نهراً، وكيف يستاء لمنظر جمهور عدائي يملأ صالات العرض صخباً وتعليقاً فاحشة وهو يعلم أن هؤلاء المساكين لم يجلسوا يوماً واحداً في حياتهم على ضفة نهر يتبادلون الأنخاب مع نسائهم، وكيف يثير سخطه منظر صبي صغير يقود سيارة تحولت بين يديه إلى ثور هائج وهو يعلم أن هذا الصبي لم يركب في حياته قارباً يمضي به بطيئاً فوق ماء النهر، وكيف يحزن لما وصل إليه مستوى هؤلاء المذيعين وكتاب الصحف والملحنين ومؤلفي الأغاني وهو يعلم أنهم جميعاً لم يروا طوال حياتهم نهراً.

كان قد أطفأ لفافة تبغه، ونظر في خوف إلى فنجان القهوة الذي ظل بارداً دون أن يمسه وفكر لو أن هذا الشارع الذي يجلس الآن إلى رصيفه قد صار حقاً نهراً. إذاً لتغير كل شيء .. ولما تحول هذا الرجل الذي بجواره إلى جمل بمجرد شراب القهوة، ولما تخلفت الحبيبة التي تعشق السباحة عارية في ضوء القمر عن المجيء في موعدها .. ولما أصبحت ابنة الجيران شاة تملأ ليل المدينة بالثغاء. وقال في نفسه، ماذا لو بحث هؤلاء الناس عن بلاد تصدر الأنهار. واستوردوا لبلادهم نهراً، حتى لو كان أقل الأنهار قيمة وأقصرها قامة. بل يكفي مجرد جزء يقتطعونه من أحد هذه الأنهار الكثيرة التي تملأ الدنيا، جزء تافه صغير لايكلف شيئاً، وأدرك أن ذلك مستحيل، وأنه لابد لأحد ما أن يكتشف أهمية أن يكون في حياة الناس نهر، لابد أن يعرف الناس مأساة أن يحيا الإنسان دون أن يرى طوال عمره نهراً، لعلهم يخرجون يوماً في مسيرة كبيرة يشقون بطن الأرض ويصنعون لأنفسهم ذلك النهر، لكن ما يهمه الآن هو أن ينفذ بجلده وأن يتدبر لنفسه وسيلة ويشاهد نهراً قبل فوات الأوان.

كان الجمل الذي بجواره يفتح شاربه المفلوق إلى نصفين مبتسماً ويمد عنقه الطويل يستقبل رجلاً، يدعوه إلى الجلوس ويطلب له قهوة، جاءت القهوة، ومنذ الرشفة الأولى رأى الرجل وقد تحول على الفور أمام عينيه، إلى جمل.

ولأمر ما أحس بأنه هو أيضاً سوف يتحول بعد لحظات إلى جمل .. وأن عنقه يزداد طولاً وأن شفته العليا سوف تنشق بعد قليل إلى نصفين..

ولم يدر ماذا يفعل..

هل يصرخ ؟

هل يطلب من أحد ما عوناً ؟

التفت شمالاً ويميناً وقد خالج قلبه رعب حقيقي، فرأى وكأن الدنيا تمتلىء من حوله إبلاً. قذف فنجان القهوة في الهواء، وانتزع نفسه على الفور من جلسته، ودون أن يحدد لنفسه اتجاهاً خلع نعليه ووضعهما تحت إبطه ومضى يعدو وسط الشارع .. أطلق ساقيه للريح غير عابىء بما يحدث، ومضى يجري ويجري ويجري، سوف لن يتوقف عن الجري، لن يهتم بمغيب الشمس أو شروقها، لن يهتم

بمجيء الليل أو النهار، لن يهتم بالجوع والعطش، لن يهتم بما يلقاه في الطريق من جبال وصخور وأوعار وصحراء وبحار من الرمال، سوف يعبرها جميعاً، ولن يتوقف عن العدو أبداً، سيجري ويجري ويجري إلى أن يصل إليه، ففي مكان ما ثمة نهر، سوف لن يتوقف حتى يلقاه، ويرتمي عنده، وينتهي برؤيته عذاب السنين الطوال التي قضاها دون أن يشاهد في يوم من أيامها نهراً.

الكذب

فجأة اكتشفت في نفسي مقدرة عجيبة على قول الكذب !

هكذا دونما تدبير سابق وجدت نفسي أكذب، وأكذب، وأكذب، أقلب الحقائق، وألفق بسرعة مدهشة أغرب القصص، وأقول بيسر وسهولة أشياء لم تحدث، العجيب في الأمر أيضاً أنني أقولها بشجاعة لا أعرف من أين جاءتني، لا أتلعثم، لا ارتبك، لا أرفع عيني عن وجه محدثي حياء وخجلاً، لا عرق في جبيني، لا همسة لوم من ضميري، ارتل أكاذيبي وكأنني أتلو صورة من كتاب مقدس.

كنت شخصياً أول من أذهلته المفاجأة، ووقف أمامها مندهشاً كأنه يشهد ميلاد المعجزة، كأنني لست أنا الذي يتكلم، كأن هذا اللسان ليس لساني، إنما لسان آخر من البلاستيك قادر على تلفيق الأكاذيب وضعوه فجأة في فمي، شخص آخر غريب مدهش ساحر هو الذي يتكلم بهذه الطريقة ويتصرف بهذا الأسلوب، وكنت حائراً لا أجد تفسيراً لهذه المقدرة العجيبة التي ولدت معي فجأة وجعلتني أتخلى في ثانية واحدة عن طبعي، عن عمر كامل من الخجل والعبط والعجز أحياناً عن النطق عجزاً كاملاً، والكذب بهذا اليسر وهذه البساطة، كأنه ليس كما كنت أتصوره دائماً عملية معقدة مركبة تحتاج الى تربية خاصة ومهارات فطرية لايمكن اكتسابها اكتساباً، فهي لابد أن تكون قد ولدت معك، ثم تطورت مع المران والتجربة والسنين، ولقد كنت دائماً ألوم نفسي لهذا العبط القروي الذي لازمني، كظلي، وأبقاني في مكاني لا أحقق تقدماً في رزقي أو وظيفتي ولا أعرف اغتنام فرصة تواتيني، وكنت أرى أقارب وأبناء عمات وخالات وأصدقاء في مثل عمري وزملاء دراسة يكبرون في وظائفهم، وتكبر دخولهم ومرتباتهم ونفوذهم في المجتمع، يصعدون في سرعة مذهلة تلك السلالم

السحرية ويطفون في الهواء، في حين أبقى أنا مشدوداً إلى الأرض بحبال لا أراها ولكنها سميكة ثقيلة كالسلاسل، لاشك أن هذا العبط القروي هو أكثر ثقلاً وسمكاً، وصرت أخجل حتى من الذهاب إلى قريتي خوفاً ممّا يعقده الناس من مقارنات بيني وبينهم وما أحس به من خيبة حين تضمني مجالس القرية معهم وأرى ذلك الإعجاب الذي يحيطونهم به، في حين أن نصيبي دائماً تعليق بائس يركض ورائي عندما أغادر الجلسة:

ــ مسكين .. عشرون عاماً في الحكومة وما زال يسكن بالإيجار!!

وأطوي في نفسي ألماً لهذه الخيبة التي تلحق بي، محاولاً أن أجد العذر لأهل قريتنا لأنهم بسطاء وأميون لا يعرفون أن الشيطان نفسه هو الذي صنع لهم هذه القصور التي يسكنونها في المدينة وهذه الأموال التي يفاخرون بها اليوم، بل أحاول أحياناً وأنا أجلس منفرداً إليهم أن أشرح لهم الأمر. فلا أجد إلا إصراراً على أن هذا الذي اسمه «الشيطان» ليس إلا إله الحظ والذكاء والعبقرية، وما أسميه شرفاً أو صدقاً إن هو إلا غلفة وعبطاً وعجزاً، وعندما وجدت نفسي مرة بدافع الحنق أضرب لهم مثلاً بأحد أبناء قريتنا ممن أثروا سريعاً، لأنه كان يبيع بضائع مغشوشة للتجار وأن قضية مرفوعة عليه في المحاكم، وكنت أظنهم يستنكرون فعلته ويرمون الشيطان الذي أملى عليه هذا الغش بحجارة تصل إليه أينما كان، وجدتهم بدلاً من ذلك يفتحون أفواههم انبهاراً، وتلمع أعينهم في دهشة وإعجاب، ويضربون كفاً بكف فرحاً وانبساطاً و«ابنْ الكلب، بانت عليه إمارات النبوغ منذ الطفولة»!

فألعن الأهل والجهل والنبوغ وأبناء الكلاب أينما كانوا وأن الحق ليس عليهم أو عليه، وإنما الحق عليّ أنا لأنني لست ابن كلب نابغ، إذ لم أزورْ حتى الآن نقوداً أو ارتش أو أبع بضائع مغشوشة أو أوقع عقداً مع الشيطان، فما أنا إلا حاقد حسود محروم من النعمة، لم يصل إلى ما وصلوا إليه فوقف عاجزاً يسمي نجاحهم انحرافاً وكذباً ورشوة وغشاً وتزويراً، وأحاول أن أنسى وأن أمضي مع حياتي في روتينها اليومي، وأذهب في قناعة إلى عملي في مخازن الوزارة كما يفعل كل الناس، وأن انظر إلى الأرض لأرى آلاف الكائنات التي تمشي على أقدامها مثلي، وأترك السماء والنجوم والقباب العالية لمن يملكون الأجنحة، وأرضى بما ساقه لي الله من رزق يكفي أنه حلال، أناله بتعبي وكدي، وأنام هانئاً مرتاح الضمير، ولكن من أين تأتي الراحة وزوجتي غفر الله لها تحتفظ تحت المخدة بجرس ما إن أدخل البيت لأنام حتى تأخذه وتبدأ في قرعه محدثاً دوياً هائلاً يطرد كل سلاطين النوم، ويا حسرة على فلان الذي ابتنى لأهله داراً لها حديقة من حدائق الجنة (في حين نكترى نحن زريبة يملكها رجل هو بلا شك من زبانية الجحيم، يكاد يمنعنا من الهمس والكلام ويمنع أطفالنا من اللعب ويرى في كل تصرف حجة لطردنا من البيت حيث سنواجه مصيرنا في العراء قريباً أن شاء الله .. هكذا يقوى صدى الناقوس) والآخر الذي جاء من أمريكا بسيارة كأنها القصر يتنزه فيها زوجته وأولاده كل مساء (ولنتكدس نحن داخل هذا الكهف وكأننا قد تنازلنا عن حصتنا في الشمس والهواء والحدائق والشواطئ والمتنزهات من دون عباد الله) .

والرابع أو الخامس أو السادس الذي يرسل أبناءه إلى مدارس خاصة يتعلمون اللغات الأجنبية (هل صاروا يدرسونهم اللغة الصينية في المدارس الخاصة؟ .. ستغزو الصين العالم وسيواجه أطفالنا مصيرهم في ذلك العصر الصيني بلا لغة صينية .. وسيموتون جوعاً).

والعاشر أو الحادي عشر أو الثاني عشر الذي أخذ زوجته لقضاء الصيف بإيطاليا (ويا خيبة زوجة مثلها أوقعها الحظ في زوج لايعرف كيف يدبر لها نزهة في ضواحي المدينة) والواحد أو الثاني أو الثالث بعد الألف الذي يحتفل بأعياد ميلاد أطفاله ويشتري لهم ساعات جديدة (وليواجه أطفالنا مصيرهم بلا ساعات، وسيموتون يوماً في الشارع لأنهم لا يملكون في معاصم أيديهم ساعات تدافع عنهم).

ويظل الجرس يقرع ليلة وراء الأخرى، يمنع عني النوم، ويملأ رأسي عقارب وكلاب وأفاعي وقصور ولغات وحدائق وساعات ورعب ولعنة وموت، وأموت لساعة أو لساعتين، وأرى نفسي في الموت وقد علقوا في عنقي السلاسل وأخذني زبانية غلاظ شداد إلى الجحيم، فأصيح قائلاً إن هذا خطأ عظيم، فما أنا إلا واحد من أهل الجنة، عشت حياتي صادقاً شريفاً لا أكذب ولا أسرق ولا أغش وأكتفي بكسرة الخبز لأكون جديراً بها، ولكن بلا فائدة فقد طوحوا بي في الهواء، وقذفوا بي إلى آبار اللهب، وأحس لسع النار فأستيقظ من موتي مرتعباً وأدعو في صلاتي أن يغفر لي الله ويمنحني من خيره الكثير ويحين موعد عملي، فأجد نفسي دون أن أدري أجلس إلى منضدة مليئة بالحروق داخل المخزن أدفن رأسي في الأوراق والملفات والاستمارات دون أن أعرف وخلال عشر سنوات هي مدة عملي في هذا المكان ما هو شكل السقف!

وبرغم أنني لست على جهل كامل بقواعد التعامل بين الناس، قد أقول شيئاً لا أعنيه مجاملة وذوقاً، وقد أكتم في نفسي شيئاً أريد أن أقوله تأدباً أو خجلاً أو خوفاً، وقد أتصنع الفرح حيناً والحزن حيناً آخر مسايرة لما جرى به العرف، وقد أماري الآخرين في التبسط إلى الرؤساء وبعض ذوي الشأن لاتقي غضبهم وبأسهم، إلا أنني خارج هذه الحدود أغرق في شبر ماء، ولا أفلح في تأليف قصة وهمية واحدة، حتى لو حاولت فإنني أتلعثم وارتعش ويمتلىء جبيني عرقاً ولا أجد مناصاً من قول الحقيقة حتى لو كان ذلك سبباً في طردي من الخدمة!

وهكذا فقد فوجئت واندهشت لهذه المقدرة العجيبة التي تفجرت في نفسي على قول الكذب.

كنت ساعتها أمرق من الشارع مستعجلاً لقضاء بعض شأني، فجأة امسك بذراعي أحد الناس ممن اعرفهم تصادف أن لديه حاجة عندي، غمرني بترحيبه وسلامه، وأطال الترحيب والسلام، كنت لأمر ما أحس بكآبة غريبة ثقيلة تطبق على صدري، فما أن فتح الموضوع حتى قلت في نفاد صبر:

ــ أنا عائد إلى البيت بعد قليل .. خاطبني هاتفياً!

كنت أعرف أنني لست عائداً إلى البيت بعد قليل وأنني لا أملك جهازاً للهاتف في بيتي .

ــ كم الرقم؟

اخترعت من فوري رقماً، لم أتلعثم، أو أرفع بصري عن عينيه، أو أحس في دخيلتي بأي لوم أو عتاب ودته ومضيت، لم أتنبه إلى المعجزة التي حدثت منذ أول لحظة، مر وقعت قبل أن أدرك ما فعلت، وقفت في منتصف الشارع مذهولاً، متأملاً ما حدث، متسائلاً بيني وبين نفسي إن كان هذا ما قلته حقاً، راودتني رغبة عنيفة في أن أضحك، تبخرت من صدري سحب الكآبة وغمرت قلبي أمطار الفرح فذهبت وأنا بين التصديق والتكذيب محاولاً أن أمرن نفسي على هذه المقدرة التي اكتسبتها الآن، دخلت دكان تاجر ممن يوردون بضائعاً إلى مخزن الوزارة، وجدت نفسي أنهمك على الفور في تأليف حكايات كاذبة عن علاقاتي بالمسؤلين الكبار، وأنني سأوصي به خيراً، وأن طلبية كبيرة في طريقها إليه، ترك الرجل زبائنه وتفرغ للحديث معي، طلب أن يحضر القهوة لكنني ادعيت أن لدي موعداً عاجلاً مع وكيل الوزارة وخرجت، كنت سعيداً لكنني كنت أخشى أن يكون الأمر مجرد نزوة عابرة جاءت نتيجة ما كنت أحسس به من ضيق، فذهبت أجرب قدراتي مع كل فرصة تسنح لي.

ــ كم الساعة من فضلك؟

ــ ليس معي ساعة.

لا يهمني إن كان قد رآها في معصم يدي أو لم يرها، كل ما يهمني الآن هو هذه الفرصة التي تغمرني لأنني قادر على أن أقول ذلك، سعيد سعادة من وصل سن البلوغ واكتشف فجأة، ولأول مرة، قدرته على ممارسة الجنس؟

ــ أليس هذا هو الطريق الذي يقود إلى مصرف الأمة؟

ــ كان ذلك هو الطريق، ولكن ما الضرر في أن أجعله يتوه قليلا.

ــ لا .. إنه في الاتجاه المقابل.

هكذا، كذب مجاني لا هدف منه ولا غاية سوى التسلية والتمرين.

حتى في اليوم التالي وأنا ألتقي بالزملاء في العمل، كانت شهيتي للكذب مازالت على أشدها.

ــ القلم دقيقة.

ــ ليس معي قلم.

مهما كان الأمر تافهاً صغيراً، مهما كان عدد الأقلام الذي في درج مكتبي أو جيب سترتي منتبهاً إلى أن عبطي القديم الذي يجعلني أندفع في تقديم القلم قد أضاع لي أقلاماً كثيرة بعضها كان ثميناً، معجباً بهذه الطريقة التي أقول بها كلماتي، بحسم وثقة تجعله حتى لو رأى معي عشرين قلماً لظن أن ذلك مجرد وهم.

ذهبت أقتنص كل فرصة لتمرين هذه العضلة الخفية، السحرية التي كانت معي ولم أحس بها، ولم انتبه إليها، وظلت نائمة، معطلة، مهملة، فلم اكتشفها إلا الآن، لأعوض إذاً كل سنوات الإهمال والعطلة، ولأسرف في استعمالها ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، ذهبت أكذب وأكذب وأكذب، في العمل، وخارج العمل، مع الزملاء والمراجعين والرؤساء، داخل البيت وخارجه، ليكن كل ما أقوله

كذباً، حتى تنمو هذه العضلة وتزداد مناعة وقوة، لا يهمني أن يكتشف الناس أكاذيبي، لايهمني رضاهم أو غضبهم، فأنا لا أكذب لتحقيق أي غاية أو هدف، ليس في ذهني أية نية خبيثة مبيتة، كان الأمر بالنسبة لي مجرد لعبة مسلية، مجرد تمرين لعضلة ميتة دبت فيها الحياة فجأة، وشيئاً فشيئاً بدأت تتكشف لي عوالم جديدة، ويصبح كل شيء من حولي مثيراً، وأخرج من تلك الوتيرة التي سارت عليها حياتي، وذلك الروتين القاتل الذي يجعل يومي نسخة مكررة مهملة بلا تجديد ولا إثارة، ها هو عالمي مليء بالحكايات والتجارب والمغامرات التي ألتقي بها كل يوم، اهتماماً من حولي ومعارك تثار بسببي وتحولاً يطرأ على حياتي زمن إنسان لا أهمية له أصبح فجأة مركز اهتمام كل الناس، وتيقنت شيئاً فشيئاً أن الكذب هو القاعدة وأن الصدق هو الاستثناء، وأن كل شيء جميل في الكون هو فقط جميل لأنه كذوب، فالغناء كذب لذلك هو جميل ونشرات الأخبار كذب ومبالغات وكذلك نحن نسمعها، والصحف فبركة وتلفيق ولذلك نحن نقرأها، والأدب هذا الذي يثير مشاعر الناس وينال صاحبه المجد والخلود أليس كله كذباً، إليس مجرد تلفيق لقصص وأساطير لم تحدث فوق أرض الواقع، إنه كذب ولذلك هو جميل، والعصافير تغني كذباً ولذلك نطرب لها، والربيع ما كان ليصبح أجمل الفصول إلا لأنه أكذبها، والقمر جميل لأننا نرى شكلاً خادعاً له ، وكذلك مشاهد الشروق والغروب كلها جميلة لأنها كاذبة، أليست النجوم التي نراها جميلة تملأ السماء، مجرد أجرام كبيرة مخيفة بعضها اختفى منذ ملايين السنين، والشمس أليست مجرد كوكب حجمي لايتحرك من مكانه، إليس كذباً كل ما نراه ونعجب به، والنساء، إن أكثرهن كذباً وتفنناً في التزويق والخداع وإخفاء ملامحها الحقيقية .. كم هو جميل هذا الكذب، كم أنا جميل عندما أكذب !!

صرت أكذب بمثل ما آكل وأشرب وأتنفس، أكذب وأكذب وأكذب، ولا أجد متعة ولا سعادة إلا في الكذب لا أتلعثم وأضطرب وأحس بالخجل إلا عندما أجد نفسي مضطراً لأن أقول شيئاً ليس كذباً!

ولا أدري كيف ربى لي الكذب جناحين أحلق بهما في الهواء كجوارح الطير، لا أدري كيف اتسعت فجأت دائرة أصدقائي، وتجمع الناس من حولي كأنني أصنع أعياداً وليس أكاذيب، وكيف ازدادت هذه الدائرة مع الأيام اتساعاً لتشمل كل أصحاب النفوذ في المجتمع الذين كنت منذ زمن قريب لا أراهم إلا من بعيد وانظر نحوهم في هيبة وخوف، إذ بهم فجأة يصبحون أصدقاء اعزاء وزملاء السهر والنزهة والسفر.

ولا أدري كيف تركت رطوبة ذلك المخزن إلى مكتب في الطوابق العليا كبير وله نوافذ وشرفات، وكيف تركت بيتي القديم في أفقر أحياء المدينة، إلى دارة لها حديقة بجوار البحر، ثم كيف صارت لي شركة هي ملكي، وتوريدات ومعاملات وعطاءات عالمية وسكرتيرات يخاطبنني بلغة أجنبية لا أدري كيف صرت أفهمها واتكلمها وأفاوض بها أرباب المال والعمل في العواصم العالمية. ووجدت وأنا ادخل عالمي الجديد أن كل الذين وصلوا هناك هم أساتذة في الكذب، وأن التحدي الوحيد أمامي عندما

اتعامل معهم هو أن أكذب كذباً أعظم وأكثر مهارة وحبكة من أكاذيبهم، فهناك دائماً كذب أرق وأروع وأجمل لم نقله بعد .. فلا شيء سوى الكذب، الكذب، الكذب، سيدي ومولاي وولي نعمتي الكذب .. صاحب الجلالة الكذب!!

قصتان من عنبر الأطفال

أدخلته الممرضة إلى عنبر المواليد الجدد، وضعته في عناية فوق السرير، كان يبكي فوضعت في فمه زجاجة الرضاعة، توقف الطفل عن البكاء، وتظاهر بأنه مشغول بالزجاجة، في حين ظل يرقب الممرضة من طرف خفي، غادرت الممرضة العنبر، فتنهد بارتياح كأن الممرضة كانت جبلاً فوق صدره، رمى زجاجة الرضاعة من الشباك، وقفز في رشاقة من سريره ومضى يطوف بالعنبر يتعرف على زملائه الصغار الذين ولدوا منذ لحظات صغيرة مثله .. طاف بالأسرة يصافحهم فرداً فرداً، ويهنئهم جميعاً بسلامة الوصول، كانت مفاجأة مفرحة عندما اكتشف أنهم في مستشفى الولادة لا يعارضون الاختلاط، وأنهم على عكس المعلومات التي كانت لديه .. يضعون الأولاد والبنات في عنبر واحد، وابتهج لأن عدداً كبيراً من أطفال العنبر كان من الجنس الآخر، اختار أكثر البنات جمالاً وذهب يتعرف إليها، لم يكن لها اسم، فمنحها اسماً، وقال لها كوني (ليلى)، ومنح نفسه اسماً وقال (وأنا مجنونك قيس)، ولم ينتظر أكثر من هذا فمضى يصارحها بحبه .. سألته ليلى وزجاجة الرضاعة ماتزال في فمها إن كان في حياته قصص غرامية أخرى .. فاقسم لها انها الحب الأول في حياته وما تجاربه السابقة سوى مغامرات صبيانية .. اطمأنت إلى كلماته واستجابت إلى حبه وأبعدت زجاجة الرضاعة عن فمها وقبلته في جبينه .. شكر لها هذه البادرة وصارحها بأن هذا العنبر يبعث في نفسه القلق والضيق واقترح الذهاب إلى مكان شاعري يليق بعاشقين صغيرين بدلاً من هذا المكان الذي لايوحي بأية شاعرية .. تمنعت قليلاً وقالت له إن في عائلتها رجالاً يمتلئون جهلاً وتعصباً وانغلاقاً، وإن لها أبا يعيش متخلفاً عن عصره بعشرات القرون، وإن له عقلية متحجرة ترفض الاعتراف بمبدأ تحرر المرأة وخروجها سافرة والتقائها بمن تحب، وإن خروجها معه سيكون مغامرة لا أحد يدري عواقبها، وهم الطفل الذي ولد

منذ لحظات قصيرة أن ينفض يده من أمرها .. ويذهب إلى واحدة أخرى يصارحها بحبه ويجعلها ليلاه، إلا أنها سرعان ما استدركت قائلة إنها تغامر بكل شيء في سبيل حبها، شبك يده في يدها وقفز بها من النافذة وانطلقا يعدوان في الشوارع الخلفية حتى ابتعدا عن المستشفى ووقفا في زاوية مهجورة من أحد الشوارع يلتقطان أنفاسها، ويفكران في أنسب مكان يذهبان إليه، كانت المشكلة أنهما لايعرفان شيئاً عن هذه المدينة، فهذا هو يومهما الأول في الحياة .. وأنه لابد من طريقة ما يتعرفان بها إلى مكان آمن يستطيعان أن يقضيا به سهرة طيبة قبل أن يعودا في آخر الليل إلى عنبر الأطفال، اقترحت عليه أن يشتري الصحيفة ليتعرفا على برامج المساء والسهرة وأماكن الفسحة واللهو ويضعان من خلال ذلك برنامجاً للوقت الذي يقضيانه معاً، أعجبته الفكرة وذهب مهرولاً إلى أقرب كشك لبيع الصحف، اشترى الصحيفة وعاد إليها يقلبان صفحاتها ويبحثان معاً عن دليل يهتدي به القراء إلى أماكن الترويح والفسحة والسهر .. لم يكن في الصحيفة شيء من هذا القبيل، أعادا تقليب الصحيفة مرة أخر، كان الأمر عجيباً، أين يذهب الناس في أوقات فراغهم، كل أبواب الأعلانات تتحدث عن أناس يعدلون إعمارهم وآخرين يعدلون أسماءهم وتعازي وتهاني ثم عطاءات، عطاءات، عطاءات .. فأين إذاً يذهب الناس؟

كانت ليلى خائفة، وزادتها الصحيفة خوفاً، وكانت ترى أن من الحكمة العودة السريعة إلى عنبر الأطفال وزجاجة الرضاعة، فليس هناك ما يوحى بأن في هذه المدينة مجالاً للفسحة والسهر والاستمتاع بالحب والحياة، لكن حبيبها الصغير لم يترك لها مجالاً للتردد، رأى على البعد مقهى، فأخذها من يدها وقادها إليه، وما أن جلسا إلى المقهى، حتى ترك عمال المقهى أعمالهم .. وترك رواد المقهى مقاعدهم .. وعقدوا من حولها دائرة وبقوا ينظرون إليهما في اندهاش، فمنظر ولد يدخل مع فتاته إلى المقهى كان شيئاً يثير الدهشة والفضول، وسمع سكان العمارات المجاورة للمقهى بأن بنتاً تجلس هناك، فخرجوا بلباس نومهم يتفرجون على هذا المشهد، وتكون من حولها زحام كبير كان يزداد كل دقيقة، وهما يرتعشان خوفاً ورعباً، ولا يعرفان سبباً لهذا الزحام الكبير، وهذه الأعين المفتوحة كالفناجين تضرب حصاراً حولها، ولم يكن أمامها سوى الهرب، فأخذ الطفل ليلاه من يدها، وتسللا من تحت أقدام الناس، وذهبا عدواً حتى ابتعدا عن الزحام، ووقفا ينظران إلى بعضهما في اندهاش، لايعرفان تفسيراً لما حدث، قالت ليلى في أنفاس متهدجة:

ــ ماذا لو سمع أبي؟

ــ ماذا لو سمع؟

ــ سيقتلني ايها الأبله!

وطالبته بأن يعيدها إلى العنبر، وأن يتخلى عن أوهام الحب في هذه السن المبكرة، وأن ينتظرها حتى تكمل سن الرضاعة، وتبدأ في الذهاب إلى الروضة، حيث يستطيع أن يلتقي بها أمام بوابة

المدرسة، فهذا أضمن وأسلم، لكنه مضى يرجوها أن تصبر قليلاَ، وأن تكون أكثر شجاعة، ووعدها بأن يشتري سيارة في أقرب فرصة يتجولان بها، ومر من أمامهما رجل وأمرأة فاقترح عليها أن يتبعاهما فلا شك أنهما يعرفان مكاناً للسهر .. وهما الآن في طريقهما إليه، انطلقا وبعد مسافة صغيرة وجدا نفسيهما في السوق، إذن فالسوق هو مكان السهر والمتعة واللهو والسياحة في هذه المدينة كان الأمر مخيباً للامال، لكن ما باليد حيلة، وجدا جهازاً للاذاعة المرئية بواجهة أحد المحلات، فوقفا أمامه يشاهدان تمثيلية كان يعرضها، كانت التمثيلية تتحدث عن الحب، وتحكي عن رجل وامرأة يعيشان تجربة عاطفية مثيرة، أدخلت التمثيلية السعادة على قلبيهما الصغيرين، وأعادت لهما الطمأنينة، فالحب مازال بخير في هذه المدينة ما دامت اذاعتها تحتفل به وتعرض عنه أشرطة للناس، وانتهت التمثيلية فجاء شيخ فاضل على وجهه علامات الصلاح والهداية يقدم درساً دينياً، وقفا يشبكان ايديهما في حب ومودة وينصتان إلى فضيلة الشيخ بسعادة، فقد كان علامة من علامات رقي المجتمع هذا التعايش والتجانس على الشاشة الصغيرة بين حديث في الدين وتمثيلية عن الحب، لكن شيخ الإذاعة المرئية ما أن رآهما حتى استشاط غضباً، وتخلى عن درس الدين وصار يصرخ فيهما، وينعتهما بأقبح النعوت ويمد يده خارج الشاشة الصغيرة ليمسك بخناقهما .. ويرى في مجيئهما إلى السوق على هذه الحالة وتشابك أيديهما مروقاً على الدين والأخلاق .. وفجوراً ودناءة، ثم بصق في وجهيهما، مسح كل منهما البصاق عن وجهه، لكنه لم يكتف بهذا فقد أخذ يصرخ ويستنجد برجال الشرطة والمطافيء والإسعاف والمرور، أن يأتوا جميعاً بسياراتهم ودراجاتهم النارية، يضمون هذه (الرذيلة) التي تتجول في الأسواق، انهمر الطفل في بكاء متواصل، وأصاب الطفلة الصغيرة رعب لا حد له فمضت تجري وهي تصرخ (ماما .. ماما .. ماما) وجرى وراءها الولد وسحبها من يدها حتى أخرجها من السوق، ومضى مهرولاً حتى وصل بها إلى مستشفى الولادة، كانت أخبار الفضيحة قد وصلت إلى المستشفى، وكان أهل الطفلين قد تبرأوا منهما ورفضوا استلامهما، وجمع مدير المستشفى هيئة مكتبه يفكرون معه في طريقة للخروج من الأزمة والتخلص من هذين الطفلين المارقين، وبعد نقاش استغرق ساعات طويلة قررت إدارة المستشفى أن تحيل أوراقهما إلى المفتي!

■

رجـــل مـــن زمـــن الأساطير

في عنبر المواليد الجدد اكتشف الممرضون وجود طفل زائد عن العدد، لاعهد لأحد به، ولم يأت له ذكر في دفاترهم، ولايذكر أحد منهم أنه رآه أو جاء به إلى العنبر، ظنوا في البداية أن هناك خطأ في مكان ما، وأنه لابد وأن لهذا الطفل أم تنام الآن بأحد الأسرة، لكنهم رجعوا إلى الدفاتر والسجلات وأعادوا حصر الأمهات وعمليات الولادة التي تمت في ذلك اليوم واليوم الذي قبله، فلم يهتدوا إلى الخطأ، ذهبوا يرفعون الأمر إلى إدارة المستشفى ويبحثون معها عن حل لهذا اللغز دون جدوى تأكد لهم أن الطفل دخيل على المستشفى، وأن امرأة ما، خاطئة من الخاطئات أنجبت ثمرة حراماً، وتسللت في غفلة من أعين الممرضين والخفراء إلى عنبر المواليد الجدد ووضعت هذا الطفل في سريره حيث ينام الآن، حتى و إن بدا واضحاً أن الطفل لم يولد الا منذ لحظات قصيرة مضت، وأنه يرتدي نفس اللفائف التي يستعملها المستشفى، فلا يستبعد إذاً أن يكون الأمر قد تم بمعرفة وتواطؤ أحد الممرضين أو الممرضات، وأن في الأمر شيئاً يثير الظنون والشبهات، وأنه لا بد من تحقيق في الموضوع يشمل كل العاملين بهذا القسم، ولكن شيئاً جديداً طرأ على الموضوع جعل الاستعداد لإجراء التحقيق يتوقف على الفور، وأن هذا الطفل ليس سوى معجزة ظهرت فجأة في هذا العنبر من عنابر المستشفى، فقد بدأ الطفل ينمو بشكل غريب وقامته فجأة تطول بصورة تثير الرعب، خرجت قدماه عن الحيز الصغير للسرير فجاءوا بسرير أكبر وبرغم الذعر أخذوا الطفل ووضعوه فوقه ووقفوا ينظرون بعيون يملؤها الخوف والإندهاش إلى المعجزة التي تتحقق أمام أبصارهم، غمرت المستشفى حالة طوارئ، ترك الأطباء أعمالهم وترك المدراء مكاتبهم وجاءوا يتحلقون حول السرير، ويشاهدون الطفل في نموه المخيف الغريب، ساقاه وذراعاه وأصابع يديه وقدميه وملامح وجهه كلها تنمو وتكبر وتطول وتربي عضلات وينمو فوقها الشعر، أمام أعينهم في مشهد كأنه الحلم أو الكابوس وهم جميعاً في حيرة وذهول لايعرف

أحد منهم إن كان ما يراه كذباً أم حقيقة، تكاثر الزحام حول السرير، جاء علماء الدين يرتلون آيات من القرآن الكريم، وبقية الناس ساهمون لا يجدون للأمر تفسيراً سوى أن هذا علامة من علامات مجيء الساعة فصاروا يلهجون بالدعاء والاستغفار وذكر الشهادتين، مضت عدة ساعات فإذا بالطفل الذي كان قطعة ضئيلة من اللحم الآدمي، يستوى أمام أعينهم فجأة رجلاً بكامل هيئته، كأنه واحد منهم، نام لحظة ثم استيقظ من سريره في حضورهم، وضع لفافة حول جسمه وقفز من السرير واقفاً أمامهم، كان الأمر فوق ما يتصوره العقل، وكان المستشفى قد دعى لمشاهدته عدد كبير من المسؤولين في الدولة والصحافيين ومصوري الاذاعات والصحف ووكالات الأنباء، وكان يصدر عنهم هرج كبير، والمصورون ينهمكون في التقاط الصور، وعدد من النساء والرجال انهار يبكي وآخر أغمى عليه وهو يرى الطفل رجلاً يقف أمامهم، أطلق الرجل صيحة كأنها الزئير فتجمدوا في أماكنهم رعباً، التفت شمالاً ويميناً وظنوا أنه سيبدأ على الفور بخنقهم فرداً فرداً، إلا أنه فاجأهم قائلاً:

ـ أين الشهادة؟

تنهدوا في ارتياح عندما رأوه رجلاً مثلهم يبحث عن شهادة علمية يؤمن بها لقمة عيشه، هرول عدد منهم وأحضر من فوره شهادة جامعية عليها الأختام والطوابع والتوقيعات، استلم الشهادة في نفور وطواها دونما اعتناء ورمى بها في جيبه، ثم التفت شمالاً ويميناً مرة أخر كأنه يتفقد شيئاً، عاد إليهم خوفهم وتداخلوا في بعضهم البعض يحتمي أحدهم بالآخر، لكنه قال في لهجة تمتليء تبرماً وشخطاً:

ـ ألم تحضروا الزوجة بعد؟

ها هو يؤكد مرة أخرى أنه ليس سوى رجلٍ مثلهم من طينة هي نفس طينتهم وأن المسكين لاهم له بعد الشهادة سوى الحصول على الزوجة، ذهبوا مهرولين احضروا الزوجة عقد عليها بحضورهم، وضع يده في خصرها وقال بلهجته الآمرة!

ـ اين القرض إذاً ؟

كاد بعضهم يضحك من السعادة ويتقدم ليضربه على ظهره في ألفة ومودة كأنه أحد الأصدقاء القدامى، إنه ليس فقط رجلاً مثلهم، إن له ايضاً نفس ضعفهم ومطامعهم، هرولوا إلى المصرف يحضرون له قرضاً، جاء القرض وفتح الحقيبة ليطمئن إلى كمية النقود أعاد قفلها، وقال وقد لانت لهجته قليلا.

ـ هل السيارة جاهزة الآن؟

لم تمض دقائق حتى جاءت السيارة، وضعوها أمام المستشفى وجاءوا يسلمونه المفاتيح، تأكد لهم الآن أن ماظنوه معجزة ليس سوى رجلٍ من أبناء جلدتهم، توقف العلماء عن القراءة، فقد أدركوا أن ليس في الأمر شيء يوحى بقيام الساعة هذا اليوم، وتوقف المصورون عن التقاط الصور، وبدا الرجل

أمامهم عادياً لا يثير الفضول إلى حد أن إحدى الممرضات كادت تتولى طرده لولا أن مسئولاً أوقفها، كان الرجل قد وضع المفاتيح في جيبه وأخذ حقيبة المال في يده وسار يقود زوجته وهم يتبعونه حتى صعد السيارة، لوح بيده إلى الجمهور الذي احتشد حول السيارة وأدار المحرك اندفعت السيارة إلى الأمام قليلاً، ثم فجأة أخذت ترتفع وترتفع حتى تجاوزت الابنية والعمارات، لم يثر الأمر فضولهم أو دهشتهم فهذا ما يفعلونه هم أيضاً في أحيان كثيرة، رأوه مسرعاً يشق بتلك السيارة الفضاء، حتى اختفى بها خلف السحب!

انصرفوا بعد ذلك في هدوء كأنهم كانوا يشاهدون عرضاً مسرحياً!!

■

من مفكرة عاشق

- ١ -

في مكان ما ..

في مكان ما من هذه المدينة .. لي حبيبة ..
لكنها لاتعرفني .. لأنها لم ترني بعد ..
وأنا لا أعرفها لأنني لم أرها بعد ..
أنا على يقين كامل، بأنه في مكان ما من هذه المدينة .. ثمة إنسانة .. تختزن في قلبها حباً عارماً لي ..
وأنا احتفظ لها في قلبي .. بمدائن حب ..
هي في وحدتها تناديني .. ولا اسمع ..
وأنا في البعد أناديها .. ولا تسمع ..
في مكان ما من هذه المدينة
في مكان ما من هذه المدينة
في مكان ما من هذه المدينة !
لكنهم ضربوا من حولها سورا
وقطعوا عليّ فرصة أن أكتشف من تكون؟
إذاً فهي لن تراني .. ولن تعرفني ..
وسيبقى الحب متكلساً بداخلها ..
وأنا لن أراها ولن أعرفها .. وسيتكلس في قلبي ما أحلمه من حب ..
في مكان ما من هذه المدينة
هذه المدينة .. هذه المدينة

ـ ٢ـ

فوق الماء ...

لم استغرب !
رأيت رجلاً يسير فوق الماء مسرع الخطى .. ولم استغرب!
رأيته ـ متعجلاً ـ يعبر الطريق إلى الشاطىء ثم يضع قدماً ثابتة فوق الماء .. ويمشي بزهو فوق موج البحر .. ولم استغرب ..
قلت في خاطري ..
هذا يحدث .. عندما يكون للرجل موعد على الشاطىء الآخر مع الأنثى التي يحب ..

ـ ٣ ـ

الرجل المعجزة:

رأيته يقف وحيداً في المعركة، تجمع عليه عشرات منهم، لكنه بات يهزمهم جميعاً.. جميعاً ! ..
جلافاً، غلاظاً كانوا .. وهو في حجم ذرة الغبار .. لكنهم يتساقطون كالذباب تحت ضرباته ..
تجمع الناس يشاهدون الرجل المعجزة باندهاش ..
لم اندهش ..
عرفت ـ من فوري ـ أن حبيبته تقف في الشرفة المقابلة؟

ـ ٤ ـ

كيف يبقى ؟

أعرف إنساناً عاش عمره لم يعرف الحب ..
وعندما آفاق في الصباح ذات يوم، وجد أن أسنانه تحولت إلى أنياب، وأصابعه تحولت إلى مخالب، وغمر يديه وقدميه وأذنيه وأنفه وجبينه وقفاه شعر خشن كثيف ..
ولم أعجب ..
فكيف يبقى الإنسان إنساناً إذا لم يفتح قلبه للحب ..

ـ ٥ ـ

المغني ...

يغني للحب مغنياً..
ويقول كلاماً .. عن حب يتواصل حتى أبد الدهر
ذلك أن مغنينا لايعرف عاطفة الحب معرفة شخصية، إنه يقرأ عنها في كتب (الميثولوجي) إن كان يجيد قراءتها .. أو يسمعها خرافات من جدته وجارته..
لكن مغنيهم يعرف عاطفة الحب ويحياها..
إنه ابداً لايذكر شيئاً عن حب يتواصل حتى ابد الدهر فهو يقول: (احبيني الليلة).
مغنينا ـ في جوعه ـ يحلم بالخير .. معالف وشكائر..
في عطشه .. يحلم بالماء بحيرات وأنهار..
مغنيهم، يجلس للمائدة..
فلا يتناول من خبز الحب ألا رغيفاً واحداً..
لايشرب من ماء الحب .. ألا كأساً واحدة.

ـ ٦ ـ

الحب والقمر ...

لا أشك لحظة في أن أول من فكر في الصعود بالانسان إلى القمر .. كان عاشقاً..
أراد أن يصل بتحديه في الحب .. إلى القمر .. فمضى .. يخترع طريقة للذهاب إليه..

ـ ٧ ـ

عنترة ... وعنترة

هل كان يمكن لعنترة .. أن يكون عنترة الذي عرفناه، لو لم تكن في حياته .. علبة.
أُراهن أنا .. أنه سيظل حتى يلقى الله ذلك العبد الذي رضي بهوان العيش، ورعي الغنم، مقتنعاً أنه لم يخلق الا ليكون العبد والراعي..
حتى جاء الحب..
جاء وجه التي أحبها، فجر في عروق العبد نبض الكبرياء، نزع الغطاء عن مارد البطولة فيه: فتح الأختام عن قوارير الشعر..
فإذ بعنترة العبد والراعي..
يصير ـ فجأة ـ عنترة الحرب والشعر، والحب..

ـ ٨ ـ

سعـادة العمر ..

مضى يحبها في صمت
وهي من بعيد .. تحبه في صمت !
كان يخشى أن يذهب إليها فترفضه ..
وكانت هي أكثر حياء .. من أن تذهب إليه ..
ولم يلتقيا أبداً ..
ضاعت ـ عليها وعليه ـ سعادة العمر ..

ـ ٩ ـ

أمتع ذكرى ..

أجمل ما في حكايات الحب أنها عندما تنتهي، فهي لاتنتهي ابداً .. إنها تمنح الميلاد لسعادة جديدة هي الذكرى ..

افتح صندوق ذكرياتك .. ولسوف تجد أن أمتع هذه الذكريات وأكثرها عذوبة .. هي ذكريات حب قديم ..

ـ ١٠ ـ

لحظـات

أتعس اللحظات في الحب
أبهى من كل اللحظات بعيداً عنه ..

ـ ١١ ـ

كم مضى من الوقت ..

ما هذا؟
أحس بالوهن يعتريني !
بالتعب والإعياء يملآن كياني

بشيء كأنه صقيع الشيخوخة يدب في مفاصلي ..
بالحياة رتيبة، بطيئة، تمضي من حولي ..
بعمري وقد صار إناء مملوءاً بالضجر ..
ما هذا يا إلهي؟
كم مضى من الوقت لم أحب؟

● (مسرحية من فصل واحد)

زائر المساء

(غرفة الاستقبال في بيت إحدى سيدات المجتمع ببلد في أوروبا الغربية حيث الصالون والمدفأة .. ومنضدة صغيرة فوقها مزهرية ..الوقت مساء، شعاع من الشمس الغاربة، يأتي عبر نافذة بالخلف، من خلال النافذة تظهر حديقة البيت خضراء مزهرة .. ترفع الستارة (الخادمة) وحدها على خشبة المسرح تفرغ منافض السجائر، وترتب أثاث الغرفة .. وتغني لنفسها الأغنية التالية):

الخادمة : (تغني)
عالياً تطير أيها النسر
عالياً أنت تطير
هل أعرتني جناحيك
لأقول تسبيحة حب صغيرة
إلى أغلى الرجال لدي
في مكانه العالي
في سمائه البعيدة
حيث يتداخل الظل بالضوء .. والضوء بالظل.

السيدة : إنك لا تصمتين لحظة عن الغناء لهذا النكرة الذي تحبين، ناسية أن تشعلي النور كما طلبت منك، لا تتعبي نفسك .. فلن تكون بك حاجة للصعود إليه إنه الآن في منتصف الطريق هابطاً إليك.
لابد أن شمس الربيع قد أذابت سحابة الشتاء التي اختارها ملجأ له .. وسنسمع عما قريب

صوت ارتطامه إلى أسفل .. فوق سطح هذا البيت ربما.

(تطفئ النور)

الخادمة : الشمس لم تغرب بعد يا سيدتي .. كيف نضيء النور والشمس مازالت تغمر الدنيا.

السيدة : إن هذا كمين للظلام، ألا تفهمين يا مارثا، إنه خطوة أمن احتياطية أتخذها ضد هجوم الظلام المفاجئ .. إنني أخشى الظلام هذا المساء يا مارثا أخشى الظلام، ستختفي الشمس عما قريب في مياه البحر المالحة، وسيستيقظ من نومه حيوان الظلام الخرافي .. لهذا فإن كل أنوار البيت يجب أن تضاء قبل أن يصل زاحفاً بأطرافه الأخطبوطية داخل حجرات البيت .. مغرقاً كل شيء هنا بالهواء الأسود الذي ينفثه (لحظة صمت).

مارثا هل أشعلت شجرة عيد الميلاد أيضاً.

الخادمة : ماذا تقولين يا سيدتي ! هل ذكرت شيئاً عن شجرة عيد الميلاد.

السيدة : قلت أوقديها .. مارثا ..

الخادمة : ولكن .. سيدتي .. تفصلنا عن عيد الميلاد أشهر عديدة مضت .. أو بالأحرى أشهر عديدة تأتي.

السيدة : إنني فقط أريد أن أرى شجرة عيد الميلاد مضيئة هذه الليلة .. اريد أن يغمر البيت الكثير من الضوء .. لعل هذا يزيل قليلاً من الكآبة التي أحس بها تحط في قلبي هذا المساء.

الخادمة : أمر سيدتي .. (تخرج إلى حجرة داخلية).

السيدة : هل رأيت أزهاراً أحضرتها من الحديقة منذ قليل.

الخادمة : (من خارج المسرح) إنها هنا في المطبخ.

السيدة : أحضريها معك.

(تحضر مارثا باقة الأزهار وشجرة عيد الميلاد متوسطة الحجم).

السيدة : (وهي تنظر إلى شجرة عيد الميلاد) إنها مليئة بالغبار .. انفضيها قبل اشعالها.

(تتحرك السيدة نحو إناء الزهور لتضع الأزهار الجديدة مكان الأزهار الموجودة بالإناء)

الخادمة : (تغني بصوت خافت مقطعاً من أغنية الاستهلال في حين تنفض الغبار عن الشجرة .. ثم تستدرك قائلة) ..

بعد قليل سيطرق الباب، مثل عادته دائماً.

السيدة : نعم، إنه سيأتي، ما إن تغيب الشمس حتى يظهر هو.

الخادمة : كما لو كان يأتي راكباً شفق الغروب .. مع مجيء الشفق يجيء، ما حاد يوماً عن موعده أو غير يوماً من الطريقة التي يدق بها باب البيت.

السيدة : انه ابداً لا يخشى الظلمة .

الخادمة : ربما هو يخشى النور.

السيدة : لابد أنه قد مل هذا الطرق اليومي على باب بيتنا.

الخادمة : إنني اتساءل أحياناً عن السر في أنه لايستعمل الجرس أبداً .. إنه فقط يأتي ويدق الباب برفق وهدوء .. تاك .. تاك .. تاك .. في إيقاع منظم ورتيب كأنما هو شفرة سرية.

السيدة : كان في صباه يعزف البيانو .. كان عزفه أشبه بالسحر .. بحيث يغوي قلوب البنات الصغيرات فلا تخفق إلا له.

الخادمة : ثلاث مرات .. إنه أبداً لا يدق على باب البيت أكثر من ثلاث مرات، وعندما لايسمع جواباً يعود .. تاركاً وراءه صمتاً غريباً شفافاً. أكاد أراه من خلال أقدامه وهي تضرب الأرض .. وأسمع خطاه وهي تذوب في البعد.

السيدة : إنه ناضج الآن بالدرجة التي يعرف بها أن أربع طرقات هي أكثر مما يلزم.

الخادمة : لقد فكرت فيه دائماً بإعتباره .. شاباً وسيماً وصغير السن .. شعر كثيف وملامح دقيقة كملامح الأطفال .. وبالرغم مما أسمع عنه فإني احتفظ له في قلبي بصورة مشرقة زاهية.

السيدة : إنه أكبر سناً مما تظنينه يا مارثا .. إنني أحرص كل يوم على أن أرى صفحة الحظ في جريدة المساء وأقرأ ما تقوله النجوم أمام تاريخ ميلاده .. وهذا في الحق هو مصدر معلوماتي الدائم عنه .. فمنه أعرف تماماً ما يعانيه وما يمر به.

الخادمة : لقد مضى الآن ما يقارب من عام منذ أن بدأ في المجيء إلى باب بيتنا .. ومنذ ذلك الحين لم يفشل يوماً واحداً في أن يؤدي طرقاته اليومية .. حتى في أقصى عنفوان الشتاء بأمطاره وثلوجه لم يتوقف عن المجيء .. أو عن طرق الباب .. إن المرء ليحتاج إلى طاقة جبارة من الإصرار لأن يفعل ذلك بنفس هذه الدقة والمثابرة.

السيدة : لقد كان طوال عمره عنيداً.

الخادمة : هل قرأت ما تقوله النجوم عن حظة اليوم ..

السيدة : لم أفعل بعد ؟

الخادمة : أي الأشهر هو ؟

(تلتقط الجريدة من منضدة قريبة).

السيدة : أبريــل ..

الخادمة : وأي الأيام هو يوم ميلاده؟

السيدة : لا تشغلي بالك بهذا .. اتركي الصحيفة جانبا واهتمي بتنظيف الشجرة.

الخادمة : إنها لا تأخذ مني دقيقة .. أي الأيام في شهر أبريل؟

السيدة : الرابع عشر.

الخادمة : (تتمعن في الجريدة) سيدتي .. أليس اليوم هو الرابع عشر من أبريل.

السيدة : (بدهشة) ماذا تقولين يا مارثا.

الخادمة : نعم .. إنه اليوم .. (بسعادة) إذا اليوم عيد ميلاده .. عيد ميلاده يا سيدتي.

السيدة : (بعد لحظة تفكير) كأنني كنت أدرك هذا .. إحساس غامض دفين كان يلازمني طيلة المساء .. كأنني كنت أعرف..

الخادمة : (بكآبة مفاجئة) إذا فهو لن يأتي اليوم مع غروب الشمس .. لن يدق كما هي عادته كل يوم باب بيتنا .. سنفتقده إذا هذا المساء.

السيدة : لماذا؟ لماذا تقولين إنه لن يأتي اليوم؟

الخادمة : بالتأكيد .. سيذهب ليحتفل بعيد ميلاده في مكان ما .. لن يجد وقتاً ليأتي، خاصة وهو يعرف أن أحداً لن يفتح له الباب .. أو يقول (عيد ميلاد سعيد) على الأقل.

السيدة : سيكون هنا تماماً في الموعد المحدد .. إذهبي وضعي الإناء فوق النار .. وأعدى المائدة لشاي المساء .. فأنا أشعر بأنه سيكون ضيفنا هذه الليلة..

الخادمة : هل معنى ذلك أنك ستسمحين له بالدخول إلى البيت إذا جاء .. أرجوك يا سيدتي لا تفعلي هذا .. إنها مجازفة كبيرة، لا أحد يدري عواقبها، أنت تعرفين مدى خطورة الرجل.

السيدة : إنه لا يبحث عن المتاعب .. إنه رجل يبحث عن مخبأ.

الخادمة : ولكن كيف تستقبلين في البيت مجرماً .. هارباً، تطارده سلطات الأمن في كل مكان .. إن لديك اسمك الطيب واسم المرحوم زوجك..

وأن تضعي في الاعتبار سمعة (ملاجيء الايتام) التي تشرفين عليها .. فكري في كل ما يمكن أن يجلبه هذا من تأثير سيء على المكانة الاجتماعية التي تحتلينها والشركة التي ترأسينها .. لا تنسي مسئولياتك الكبيرة يا سيدتي.

السيدة : فعلاً لقد حان الوقت لأن أعي مسئولياتي.

الخادمة : ثمة شيء آخر .. لو تسمحين له بالدخول اليوم فإنه يكون قد حقق غرضه، ولن يأتي بعد ذلك ليطرق الباب أبداً، وستكون حياتنا شيئاً لا يطاق بدون دقاته اليومية لقد صار مجيئه جزءاً من طقوس المساء .. يضيف لونا ونكهة لأمسياتنا .. إنني لا أستطيع تخيل أمسية تمر دون دقاته الحميمة فوق باب البيت .. إنك لن تضحين بهذا أيضا.

السيدة : من أدراك أنه لن يتوقف عن المجيء وهو لا يجد غير الصدود طيلة عام كامل.

الخادمة : إنك تخطئين يا سيدتي .. أنا على ثقة من أنه يستمتع بهذا الصدود .. فلقد صار المجيء إلى بابنا عادة محببة إلى قلبه لا يستطيع تركها .. يأتي ليطرق الباب ثم يعود كأنما هي طبيعة الأشياء أرادت ذلك.. فدعي الأمر كما هو يا سيدتي .. لا تتدخلي فيما ارادته الطبيعة كي لا يختل الميزان .. لا تفتحي الباب الآن يا سيدتي إذ إنه لا معنى لأن تتركيه بالخارج عاماً كاملاً ثم تأتي الآن وتفتحين له الباب.

السيدة : أنا ملزمة بأن أفتح له الباب يا مارثا .. لا أستطيع أن أبقيه خارج البيت لمجرد التسلية.

الخادمة : أأنت حقاً ملزمة بأن تفتحي له الباب يا سيدتي؟ و إذا لم يأت اليوم.
إذا ذهب محتفلاً بعيد ميلاده في مكان ما.

السيدة : إنه سيأتي، وسيحتفل بعيد ميلاده هنا .. (لحظة صمت) ذلك أنه يعرف أن الميعاد قد حان لأن يفتح له الباب.

الخادمة : إنه يهددك إذن يا سيدتي، لابد أنه يهددك بطريقة ما .. كنت على ثقة من أن مجرماً مثله لابد وأن ..

السيدة : (تقاطعها) سيكون ضيفنا على الشاي هذا المساء .. ضعي على المائدة أكوابا فضية بدلاً من أكواب الاستعمال اليومي .. دعيه يحس بأننا نحتفي بقدومه .. اجعلي كل شيء يبدو مبهجاً بما فيه الكفاية.

(مارثا تضيء شجرة عيد الميلاد، تذهب إلى المطبخ .. السيدة تجلس وتأخذ الجريدة تتصفحها .. مارثا تعود).

الخادمة : وضعت الإناء فوق النار .. (تنتبه الى أن السيدة تقرأ الصحيفة) أتقرإين باب الحظ ؟

السيدة : لقد حان ذهابك يا مارثا.

الخادمة : يجب أن أبقى يا سيدتي، لأفتح له الباب وأقدم له الشاي.

السيدة : سأفتح له أنا الباب وأقدم الشاي.

الخادمة : ولكن سيدتي.

السيدة : عودي إلى بيتك .. مارثا.

الخادمة : أود فقط أن ألقي عليه نظره.

السيدة : سترينه فيما بعد .. مارثا.

الخادمة : لكنني لا أعرف مكاناً غير هذا المكان أذهب إليه.

السيدة : يجب أن أقابله وحدي .. (تأخذ بعض النقود من حقيبة يدها) سيساعدك هذا في العثور على مكان تأوين إليه.

الخادمة : هل أحضر غداً في الصباح.

السيدة : تعالي متى تشائين.

(السيدة تدير ظهرها لمارثا التي تترك الغرفة إلى حجرة داخلية، تأخذ معطفها وحقيبة يدها وتخرج، الشمس غربت الآن، السيدة تشعل سيجارة تتفقد وعاء الزهور وشجرة عيد الميلاد، تتصفح الجريدة .. بقلق .. فترة وجيزة ثم يطرق الباب).

تخرج السيدة لتفتح الباب).

صوت الرجل (قادماً من خارج المسرح) طاب مساؤك .. اليزابيث.

صوت المرأة (قادماً من خارج المسرح) طاب مساؤك .. دونالد..

(يظهر الرجل على المسرح في الأربعينات، بقامة فارهة، وبناء عضلي قوي يرتدي لباساً زاهياً لكنه تقليدي .. يحمل معه ربطة من الزهور الذابلة).

السيدة : لقد تقدمت بك السن يا دونالد.

الرجل : وأنت كما أنت، اليزابيث، لا شيء فيك قد تغير.

السيدة : إنني امرأة وحيدة .. ادركها الكبر.

دونالد : لكن التوهج الذي كان يفيض به وجهك مازال ذاك التوهج.

السيدة : (بعد لحظة صمت) هل هم يتبعونك.

دونالد : من هم؟

السيدة : الناس الذين يتبعونك.

دونالد : إنهم لا يعرفون لي مكاناً.

السيدة : ألست متعباً من هذه اللعبة.

دونالد : لا أتعب منها أبداً لأنني ألعبها جيداً .. حتى عندما كنت صغيراً كنت أكثر الأطفال موهبة في العثور على مكان اختبيء فيه .. عندما نلعب ألعاباً كالتي ألعبها أنا الآن.

السيدة : (فجأة) لماذا جئت؟

دونالد : كنت ماراً بالصدفة من أمام البيت، ورأيت أنه من اللائق أن آتي إلى هنا .. طالما أن لديك مناسبة تحتفلين بها (يقدم لها الزهور) عيد ميلاد سعيد لك يا سيدتي.

السيدة : (تأخذ الزهور) عيد ميلاد سعيد لك أنت أيضاً .. لكن هذه الزهور تعني أن الزيارة كانت مقصودة.

دونالد : إنه الربيع .. ينتشر في كل مكان خارج البيت .. والزهور أيضاً في كل مكان .. لا يقتضي الأمر إلا أن تمد يدك وتقطفها أينما ذهبت، ضعيها في الإناء .. إن لديها عبيراً معتقاً.

السيدة : شكراً على أي حال (تضع الزهور في الإناء بدلاً من الزهور التي كانت موجودة أصلاً) يبدو أنك انتظرت طويلاً.

دونالد : الانتظار .. إنني أمارسه بخبرة ومهارة لا مثيل لها منذ أول يوم عرفت فيه العمل لحساب الآخرين.

السيدة : لقد كنت دائماً طفلاً صعباً.

دونالد : وكنت أنت دائماً باباً مفتوحاً لي.

السيدة : ولكنك ذهبت بعيداً .. صرت إنساناً آخر مدانا من كل الناس، أخبار الجرائم التي ترتكبها في كل صحيفة .. إنك مطلوب .. مطلوب.

دونالد : إن هذا أفضل من أن يكون الإنسان غير مطلوب من أحد.

السيدة : ذهبت إلى السجن مرات عديدة.

دونالد : وحطمته وخرجت منه مرات عديدة أيضا.

السيدة : أناس أبرياء (صمت) أنت قتلتهم (صمت) لقد كانوا أبرياء.

دونالد : بينما أنت هنا تقدمين التبرعات الطائلة لجمعيات الأيتام.

السيدة : لقد كنت هناك بالخارج لا تفعل شيئاً سوى اغتيال سعادة الناس الأبرياء.

دونالد : وأنت هنا لا تفعلين شيئاً سوى الاعتناء الكامل بالأعمال التجارية التي خلفها زوجك الراحل.

السيدة : إنني أخشاك يا دونالد.

دونالد : لا تخشين شيئاً طالما أن أعمالك التجارية رائجة.

السيدة : لقد كانوا أبرياء.

دونالد : لا أحد بريء

السيدة : الأيتام أبرياء (صمت) لقد كنت يتيماً أنت نفسك، عمرك ستة أيام عندما جاءوا بك إلي .. غزت براءة وجهك قلبي .. فوضعتك فوق حجري ومنحتك صدري، أرضعتك وغذيتك حتى صرت كبيراً.

دونالد : ثم طلبت مني أن أذهب .. رميت بي إلى بحر هائج وقلت لي (حان وقت الابحار) ..

السيدة : كان ذلك عندما بلغت سن الفطام.

دونالد : وحيث أني ذهبت مبحراً تحت رايتك الخاصة .. فإن كل الرحلة لم تكن إلا نزهة.

السيدة : طموحك العظيم هو أن تغزو هذا العالم.

دونالد : ليس مهماً إذا ما كنت قد غزوت العالم أو لم أغزه طالما أنني لم أكن هناك بالخارج إلا لأداء مهمة هي أن أقدم امدادات لملاجيء أيتامك أغذيها بأيتام جدد .. لكي تواصلي المسيرة ..

السيدة : ما ظننت عمري أنك ستغدو شريراً إلى هذا الحد.

دونالد : ليس سهلاً أن تنفضي يدك من الأمر بكل هذه البساطة، ومهما كان ظنك بي فأنت تعرفين تمام المعرفة أنني كنت هناك بالخارج أفعل ما أردتني أن أفعل، أنجز مهمة أنت أوفدتني إليها وكلما فعلت شيئا كنت أفكر فيك جالسة هنا في ركنك المفضل تقرأين بسعادة بالغة أخبار ما فعلت في صحف اليوم التالي عارفة أنني أفعل ذلك بالنيابة عنك.

السيدة : ليس ثمة من دليل على ما تقوله فأنا باعتباري أرملة رجل حاز في الإقتصاد أعظم الأوسمة حاولت دائما أن ارتفع إلى مستوى السمعة التي خلفها وراءه المرحوم، أن أواصل ما بدأ وأقود حياة كريمة شريفة.

دونالد : وباعتبارك رئيسة مجلس الإدارة فأنت حريصة على أن تزدهر أعمال الشركة تحت رئاستك ..

السيدة : وأن أنشر السعادة والهناء بين التعساء من الناس.

دونالد : ارامل رجال لم يأخذوا أوسمة.

(يصفر إناء الشاي في المطبخ)..

السيدة : حان ميعاد الشاي..

(يذهب دونالد إلى جهاز الأسطوانات ليضع اسطوانة حديثة يرقص على الموسيقى تدخل السيدة تجر منضدة الشاي الصغيرة وعليها إناء الشاي واثنان من الأكواب الفضية وقطعتي جاتوه تملأ فنجاناً له وآخر لنفسها).

السيدة : (وهي تقدم له فنجان الشاي) نست الخادمة أن تحضر شموعاً تعمل بها كعكة العيد .. ليعد عليك بالخير والهناء.

دونالد : وأنت أيضاً .. بالمناسبة لابد أنك قد كتبت وصيتك الآن.

السيدة : هل هذا ما جئت من أجله.

دونالد : إنني هنا فقط من أجل أن أراك سعيدة.

السيدة : ألست باقياً هنا.

دونالد : تعرفين تمام المعرفة أنني لا أستطيع أن أبقى.

السيدة : إنك هنا لكي تبقى .. دونالد .. إنهم يبحثون عنك في كل مكان .. سوف يجدونك، ولسوف يأخذونك إلى السجن مرة أخرى .. وربما يصل الأمر إلى حد شنقك..

دونالد : إنني لست باقياً .. وأنت تعرفين ذلك .. لقد جئت فقط لأذكرك بالوصية. إن لدي مهاماً لابد من إنجازها .. بعد أن أكون قد أكملت مهمتي هنا.

السيدة : يجب ألا تذهب .. يادونالد.

دونالد : يجب أن أذهب .. اليزابيث..

السيدة : لما يجب أن تذهب؟ هل هو موعد؟.

دونالد : حسناً إنه موعد..

السيدة : أين مكانه؟

دونالد : ليس بعيداً.

السيدة : مع من هذا الموعد؟

دونالد : أحد الناس ممن لا تعرفين.

السيدة : ما هو اسمه؟

دونالد : لم هذا الاستجواب؟

السيدة : تواعد امرأة هذه الليلة، أليس كذلك؟.

تسألها أن ترافقك إلى النادي الليلي .. تدعوها إلى وجبة عشاء فخمة، ورقص يمتد إلى آخر

الليل وما إلى ذلك.

لابد أنها طفلة غرة، ترضي زهوك الذي لا حد له .. كم عمرها يا ترى .. أربعة عشر .. خمسة عشر .. يفضل أن تكون شقراء .. أو فقط (ذات جمال ملحوظ) كما يحلو لك التعبير.

إلى أين ستأخذها يا ترى؟ ملهى الدانيوب .. أليس هو ملهى الدانيوب؟ .. أكثر الأماكن في المدينة أمناً بالنسبة لرجل هارب من العدالة حيث الأضواء ناعمة خافتة تضفي على ملامحك طابعا من النبل المزيف؟ وبسلوك مبالغ في وجاهته سوف تسأل الساقي زجاجة من الشامبانيا الباريسية ومقداراً كافياً من الكافيار .. شيء يليق بمناسبة كهذه؟

وستذوب الطفلة السكرية تحت تأثير كرمك وشهامتك ونبل ملامحك .. بعد ذلك ـ سيحين موعد الرقص .. نحن جميعاً نعرف كم أنت بارع في الرقص .. نحن جميعاً نعرف أنك تفضل الرقص بطيئاً .. لذا كن رفيقا بأضلع الطفلة الصغيرة .. لا تحطم صدرها الغر .. فالليلة لم تنصرم بعد .. انتهى الرقص .. وهمست لها بقصيدة (الأنجم السعيدة) التي تحتفظ بها لمثل هذه المناسبات .. وحان الآن موعد ذهابكما سوياً إلى ركنك المظلم حيث تختبيء النهار كله. وبعد أن تكون قد مضغت لبانتك معها .. لا شيء تبقى سوى أن تسألها السؤال المعتاد: ما هي رغبتك الأخيرة؟

وقبل أن تفتح شفتيها لتجيب تمد إليها ذراعين كذراعي الأخطبوط وتلف حول عنقها الصغير أصابع يعلوها الشعر، ودونما رحمة، ودونما خفقة في الضمير .. تكتم أنفاسها .. قل لي: أنا مخطئة .. قل: إن هذا كذب. (تبكي).

دونالد : إن هذه أعراض سيئة لمرض خطير .. اليزابيث إنك تعرفين أنني لم أتصرف يوماً بمحض إرادتي، كنت دائما مجرد الخادم المنفذ لرغباتك .. المطيع لها طاعة عمياء.

السيدة : لا تذهب إذا. إبق هنا. كفاك تسكعاً وسفكاً للدماء.

دونالد : لم أخلق للبقاء داخل البيوت. متعتي الوحيدة في الدنيا أن أكون في الهواء الطلق .. مؤدياً واجباتي.

السيدة : ناشراً الموت.

دونالد : والارتياح.

السيدة : ألا تستطيع أن تضع حداً لكل هذا؟.

دونالد : لا أستطيع .. اليزابيث ..

السيدة : ألا تحاول.

دونالد : لا فائدة، وصلت إلى نقطة اللاعودة.

تتوقف السيدة عن بكائها الخفيف).

دونالد : (بعد فترة صمت) اليزابيث.

السيدة : ماذا تريد يادونالد.

دونالد : جففي دموعك.

(السيدة تجفف دموعها بمنديل معها .. لا تقول شيئاً) ..

دونالد : والآن اليزابيث.

السيدة : والآن ماذا؟

دونالد : (واقفاً) لنبدأ العمل الآن.

السيدة : «تقف مرتجفة .. وهي تحاول التراجع إلى الخلف». العمل؟؟

دونالد : تعالي إلى هنا .. اليزابيث (هي لا تتحرك يتجه دونالد نحوها في خطو بطيء) تعالي إلى هنا .. اخبريني الآن ..

(يمد نحوها ذراعية .. يتجه فاتحا يديه نحو عنقها .. بينما هي تتجمد رعبا).

ما هي رغبتك الأخيرة؟.

(ستـــار)

■

الصحيفة

(غرفة الجلوس في بيت عائلة انجليزية، الوقت صباح، الرجل يجلس إلى منضدة وسط المسرح، يرفع أمامه صحيفة تحجب وجهه عن المشاهدين في الصالة، من وقت إلى آخر يأخذ رشفة من فنجان الشاي الذي أمامه، زوجته أمرأة كبيرة في السن، تدخل من باب في إحدى جوانب المسرح، تأخذ طبقاً فارغاً كان أمام الرجل، ترتدي لباساً منزلياً بسيطاً وتعقد حول وسطها مريلة المطبخ، في الجانب الأيسر مدفأة تشتعل بالحطب، وبجوارها كرسي فوتيل، الرجل في سن زوجته).

هي : (تأخذ الطبق الذي أمام الرجل) هل أعجبتك؟

هو : (بلا حماس) نعم عزيزتي .. نعم، لقد أعجبتني !

هي : (بحماس شديد) إذاً ستكون هذه وجبة نتناولها كل أسبوع. ما رأيك؟

هو : لا لا تتولي ذلك، ستعرفين جيداً أننا لا نستطيع أن نجعلها وجبة أسبوعية (لحظة صمت) الأفضل أن تبقى على هذا الحال، لتبقى دائماً لذيذة (لحظة صمت) الروتين سيقتل طعمها؟

هي : ولكن لن يقتل رائحتها، فدائما لها نفس العبير!

هو : تعرفين ما هو الروتين، عندما يصبح الشيء روتينياً فقد انتهى!

هي : (بصوت يشوبه بعض الأسى) لقد كانت هذه وجبتنا المفضلة. التي نتناولها كل يوم في السنين الأولى من زواجنا أليس كذلك يا عزيزي!

هو : نعم، نعم، في تلك الأوقات المبكرة!

هي : (في طريقها إلى خارج الغرفة) لعل الوقت قد تأخر بنا الآن (لحظة صمت) هل أنت متأكد من أنها أعجبتك؟

هو : نعم يا عزيزتي، و إلا ما كنت أكملت الطبق!

هي : حسناً إذاً.

(تأخذ الطبق إلى الخارج وتعود بعد أن خلعت مريلة المطبخ، تجلس في كرسي الصالون قريباً من المدفأة، يقلب هو الصفحة الأولى من الجريدة).

هي : هل من جديد في صحيفة اليوم أيها العزيز.

هو : لا جديد، إنها هي هي، كما كانت بالأمس، وكما هي غداً.

هي : لماذا إذاً تصر على قراءتها كل يوم أيها العزيز!

هو : لأنها تكتب طريقة مختلفة كل يوم، نفس الشيء ولكن بأسلوب مختلف.

هي : هل هذا ما يسمونه «سحر الكلمات»؟ هل هذا ما يجعلك تقرأها كل يوم؟

هو : بالضبط، هذا ما يجعلني اقرأها كل يوم يا عزيزتي!

هي : (بدلال) ولكنك تعاملني بطريقة مختلفة!

هو : ماذا تقصدين يا عزيزتي.

هي : لو قلت شيئاً مرة، فإنك لا تنصت إليه لو أعدته مرة أخرى .. أليس كذلك؟

هو : سأنصت إليه، بالتأكيد سأنصت إليه لو قلته بأسلوب مختلف يا عزيزتي؟ هل تفهمين؟

هي : نعم أفهم، ولكنني لا أملك ما يسمونه سحر الكلمات، ولا أريد أن أملكه، فهو يبدو كما لو أن الإنسان عليه أن يتحول إلى ساحر أو ساحرة، وأنا لا أريد ذلك، عندما كنت طفلة صغيرة. استمع إلى حكايات الأطفال كنت أتمنى فعلاً أن أكون تلك الساحرة التي تملك قوة سحرية تحت تصرفها، ولكن هذه الفكرة لم تعد تروق لي بعد أن كبرت!

هو : إنك رائعة كما أنت يا عزيزتي!

هي : ولكنهم يملكون هذه القوة السحرية التي تجعلهم يجبرون الناس على قراءة ما يعيدون كتابته كل يوم .. أليسوا هم كذلك يا عزيزي!

هو : (مستغرق في قراءة الصحيفة) إنهم كذلك يا عزيزتي!

هي : (كأنما وقعت على اكتشاف) ويبيعون الأسلحة إلى إسرائيل أيضاً .. أليسوا هم كذلك؟

(يقلب صفحة أخرى ولا يقول شيئاً).

هي : إنهم يبيعون الأسلحة إلى اسرائيل أيضاً .. أليسو هم كذلك!!

هو : (بنفاذ صبر) هذه مسألة أخرى!

هي : أعني في الصحيفة .. أليس هذا ما يقولونه في الصحيفة كل يوم!

هو : نعم يا عزيزتي، إنهم يفعلون ذلك، إنهم يبيعون أسلحة إلى اسرائيل، إن هذا في الصفحة الأولى، وأنا الآن اقرأ الصفحة الرابعة!

هي : هل بدأت قراءتها من الصفحة الأولى كما هي العادة!

هو : نعم يا عزيزتي .. من الأولى كما هي العادة!

هي : ماذا تقرأ في الصفحة الرابعة!

هو : «أين تسهر هذا المساء»!

هي : هل تقرأ هذا أيضا!

هو : وهل تريدينني أن أبقى جاهلاً بما تعرضه المسارح ودور العرض هذا المساء!

هي : (باشمئزاز) إنها تمتلىء بالنماذج الشاذة!

هو : ماذا تعني!

هي : أعني أن موضوع أفلامهم ومسرحياتهم هذه الأيام صار يمتليء بالحديث عن النماذج الشاذة!

هو : إنني لا اهتم مطلقاً بهذه الأشياء!

هي : (بغضب وحدة) لماذا تقرأها إذا!

هو : (مرتبكاً) ماذا؟

هي : (بنفس الحدة) لماذا تقرأها إذا؟

هو : لأعرف ماذا يعرضون !

هي : ولكنك تدرك، كما أدرك أنا، أننا لم نعد نذهب إلى السهر خارج البيت!

هو : ماذا تقصدين يا عزيزتي، إننا دائماً نخرج للسهر خارج البيت!

هي : (تترك الكرسي .. وتذهب نحو الرجل) متى كانت آخر سهرة ذهبنا إليها.

هو : منذ أسبوع مضى!

هي : (بلهجة المحققين) و إلى أي مكان ذهبنا؟

هو : إلى المسرح!

هي : إلى أي مسرح ذهبنا!

هو : الاولدفيك.

هي : وما هي المسرحية التي ذهبنا كي نشاهدها؟

هو : عطيل.

هي : (بلهجة هادئة وقد عادت إلى مقعدها) كان ذلك منذ خمسة عشر عاماً يا حبيبي!

هو : لا لا تقولي هذا، لقد كان ذلك منذ أسبوع واحد مضى، أنا واثق مما أقول!

هي : (بإشفاق حقيقي) ما أسرع ما يمضي الزمن أيها العزيز، وخمسة عشر عاماً يمكن أن تلوح وكأنها أسبوع واحد..

هو : (وقد بدا التأثر واضحاً في لهجته) ولكن الصورة ما تزال واضحة في ذهني، اذكر عندما قتل زوجته ديدمونة، وعندما وضع الوسادة فوق وجهها حتى ماتت اختناقاً في سريرها..

هي : (وكأنها اشتمت قصداً سيئاً في كلامه) ولكن ندم كثيراً على فعلته بعد ذلك؟

هو : نعم، نعم، لم أنس شيئاً من ذلك، لقد كلفته حياته!

هي : كانت حقاً «فترة دموية» كما يقول الحوار في آخر المسرحية!

هو : إذا فقد كانت الأسبوع الماضي!

هي : لا يا عزيزي، إن «الخارج» الوحيد الذي نذهب إليه هو الكنيسة يوم الأحد، والحديقة عندما يكون النهار مشمساً، هذا هو «الخارج» الوحيد الذي نذهب إليه.

هو : كيف تقولين ذلك في حين أننا منذ فترة بسيطة مضت حضرنا حفلاً كبيراً، كنت أنا ارتدي بدلتي الرمادية، وكنت أنت ترتدين ثوباً ناصع البياض، كان هناك عدد من أكبر وأهم شخصيات المجتمع!

هي : (وقد سرحت بأفكارها مع كلماته) نعم .. نعم، وزراء ومدراء وأعضاء برلمان، وضباط من الرتب العالية في الجيش، كل واحد كان يبتسم لنا ويأتي إلينا مصافحاً ومهنئاً، كل شخصيات المجتمع المشهورة كانت هناك، حتى نجوم المسرح والغناء حضروا الحفل!

هو : وصحفيون، أفضلهم، وأكثرهم شهرة كانوا هناك، واذكر الآن أضواء كاميراتهم كيف كانت قوية إلى حد أنها كادت تحرق عيني!

هي : لقد كتبوا عنه في كل الصحف التي صدرت في اليوم التالي، وهناك كانت صورتنا، أنا وأنت، وأنت تضع ذراعك حول كتفي، وكان العنوان «حدث الأسبوع»؟!

هو : والشمبانيا .. كان كل الناس يشربون شمبانيا!

هي : وكتبوا على لسانك في الصحيفة تقول إن ذلك اليوم كان أسعد أيام حياتك!

هو : أفضل فرقة موسيقية في المدينة .. جاءت لتعزف لنا ذلك اليوم!

هي : نعم نعم، لقد رقصنا سوياً، وغنينا، وشربنا، وضحكنا كثيراً كثيراً، كم كان ممتعاً كل ذلك .. كم كان ممتعاً.

هو : ما أكثر ما ابتهجنا ذلك اليوم، وكم كنت أنا وأنت سعداء إلى أبلغ حد (لحظة صمت كأنهما يستعيدان بهجة ذلك اليوم) كم يوم مضى على ذلك الحفل؟ عشرة أيام؟!

هي : لا لا يا عزيزي ليست عشرة أيام، لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد مضى.

هو : كيف تقولين ذلك، إنها مجرد مدة بسيطة فأنا أذكر كل تفصيلة من تفصيلات ذلك الحفل، وكذلك أنت!

هي : كل شيء ممكن يا عزيزي، إن لك حساً قوياً بتلك القدرة الهائلة التي يمرق بها قطار الزمن السريع، فلا تجعل الأمر يزعجك، استمر في قراءة صفحة الترفيه، لا تجعل هذا الحديث يفسد عليك «ترفيهك»!!

(لحظة صمت طويلة)

(قل لي .. عندما تصل إلى صفحة الوفيات أيها العزيز!

هو : (بشيء من الضيق) إنها في الصفحة السادسة عشرة، ولن أصل إليها فيما تبقى لي من العمر لو استمريت تقاطعيني بهذه الصورة!

هي : نعم يا عزيزي، لم يبق من أعمارنا إلا القليل، ولكن لماذا تريدني أن أبقى صامتة، هي لأنني ذكرت

اسم اسرائيل؟

هو : لا، لم يكن ذلك هو السبب!

هي : لابد أن يكون ثمة شيء جديد في صفحة الوفيات!!

هو : نعم يا عزيزتي ربما لأنها الصفحة الوحيدة التي تكتب دائماً بنفس الأسلوب، كل يوم نفس الكلمات، إن تحريرها أكثر سهولة من كل الصفحات الأخرى!

هي : هل يأخذون أجراً على كتابتها!

هو : من ؟

هي : الناس الذين يكتبونها!

هو : نعم إنهم يأخذون أجراً يا عزيزتي .. نعم!

هي : ويبيعون الأسلحة إلى اسرائيل .. ألا يفعلون ذلك يا عزيزي!

هو : نعم إنهم يفعلون، كم مرة يجب أن أقول لك ذلك!

هي : ولمن أيضا يبيعون الأسلحة!

هو : إلى مختلف بلاد الدنيا!

هي : ويبيعون الأسلحة إلى جنوب أفريقيا أيضا!

هو : إنهم يفعلون، إنك تعرفين كل شيء حول هذا الموضوع!

هي : أليس هذا هو العنوان الرئيسي في الصحيفة لعدد اليوم!

هو : لا يا عزيزتي، إنهم يحتفظون به للعدد الذي يصدر غداً!

هي : لماذا يا ترى يبيعون الأسلحة، ماذا تقول الافتتاحية حول هذا الموضوع!

هو : إنهم يصنعون كميات كبيرة منها، فلا بد أن يجعلوا أحد الناس يشتري شيئا منها!

هي : ويصنعون الحروب، إنهم يبيعونها من أجل الربح إذاً.

هو : لا أظن ذلك، الافتتاحية لم تذكر إطلاقاً هذا الكلام!

هي : ماذا تقول الافتتاحية إذا؟

هو : ما هذا الوهم الذي سيطر على ذهنك اليوم. لقد أصبتني بالارتباك، يجب أن أعيد قراءة هذا العمود، لم أستطع أن أفهم ماذا يريد الكاتب أن يقول.
(تمنحه .. لحظة كي يواصل القراءة)

هي : (دون أن تنظر إليه) ما الذي جعلك تبتسم؟ لأي شيء يا ترى أنت تبتسم!

هو : (بخوف) لم ابتسم

هي : (في غضب) لقد ابتسمت!

هو : كيف عرفت ذلك؟

هي : ليس ضروريا أن أذهب إليك وأضع عيني في وجهك لأعرف إن كنت تبتسم أو لا، فقد تربت لي من خلال هذه السنين ملكة أستطيع أن أعرف بها كل تصرفاتك حتى لو لم أرك!

هو : قد لا يكون ابتساماً!

هي : ما هو إذا؟

هو : لا أعرف!

هي : (تذهب نحوه) أنا واثقة من أنها كانت ابتسامة، ابتسامة غمرت وجهك كله، وبللت بالدموع عينيك، ما الذي جعلك تبتسم؟

هو : لا أعرف على وجه اليقين.

هي : هي هي نكتة في الصحيفة جعلتك تبتسم!

هو : لست متأكداً.

هي : هل كنت تحلم!

هو : لا أدري!

هي : هل كان في الأمر كابوس؟

هو : لا أعلم!

هي : أنت تعلم أنك لا تستطيع أن تبتسم دون أن تجعلني أنا أيضاً أعرف سبب هذا الإبتسام .. فهيا قل لماذا ابتسمت!

هو : لعله .. لعله ..

هي : (مقاطعة) لعله ماذا؟

هو : لعله التعب!

هي : من القراءة؟ (عادت إليها لهجتها الهادئة) لماذا لا تترك الصحيفة إذا!

هو : لا أستطيع، تعرفين جيداً أنني لا أستطيع، إن علي أن انتهي من قراءتها كاملة!

هي : حسناً عزيزي، سأحضر إليك نظارة القراءة، فهذا ما تحتاجه الآن!

(تذهب مسرعة وتحضر إليه نظارة سوداء، تجلس إلى مقعدها، في حين يقلب صفحة ثم أخرى).

هي : لقد قفزت صفحتين مرة واحدة، هل هما نقد الكتب!

هو : نعم .. إنهما كذلك!

هي : إنك دائما تمتنع عن قراءة هذا الباب، ولكنك لم تقل لي لماذا؟

هو : لأنهم أبداً لا يكتبون هذا الباب بلغة انجليزية، إنهم لا يكتبون الموضوع إلا ونصفه بالفرنسية أو اللاتينية القديمة!

هي : ولكننا نحب هذه الصحيفة، إنها تغطي الأحداث بطريقة عظيمة، أحداث الوطن وأخبار العالم، أخبار الفن وأخبار الرياضة، المواليد والأموات، الزواج والطلاق، كل شيء!

هو : إنها بالتأكيد أفضل الصحف جميعاً.

(لحظة من الصمت تمر، ثم تبدأ هي في الضحك، ثم يزداد الضحك علواً، إلى أن يصبح أقرب إلى الهستيريا).

هو : ماذا هناك؟

هي : مضحك!

هو : ما هو المضحك؟

هي : هل تعرف ماذا فعلت يوم أمس؟

هو : ماذا؟

هي : (بضحك هستيري) مضحك إلى حد فظيع!

هو : (يتوجس خوفاً) ماذا تقولين؟

هي : لقد كنت تمسك بالصحيفة وهي مقلوبة!

هو : (باندهاش وذعر حقيقيين) ما هذا الذي جئت تقولينه!

هي : لقد كانت الصحيفة مقلوبة، وكنت تقرأها كما لو كانت في وضعها السليم!

(يرمي بالصحيفة بعيداً، يتحسس بيديه المنضدة، يقع فنجان الشاي على الأرض، يبدو وجهه للمشاهدين واضحاً يدركون الآن أنه كان رجلاً أعمى، يذهب باتجاه المرأة، يتكيء على حافة المنضدة).

هو : (منفجراً) إنك تكذبين .. تكذبين!

هي : إنها حقيقة.

هو : لقد خدعتني .. خدعتني، كان يجب أن أعرف، كان يجب أن تقولي لي إنني أمسك الصحيفة بطريقة خاطئة، لا أن تجعليني استمر في قراءتها وهي مقلوبة. لقد خدعتني، خدعتني، إنني اختنق، خدعتني، إنني أختنق!

(يحاول أن يفك ربطة عنقه، تذهب لتساعده).

هي : كنت سأقول لك، ولكن الوقت كان متأخراً عندما أدركت أنك تقرأها بطريقة خاطئة، كنت قد قاربت من الانتهاء. من قراءتها!

(تلتقط فنجان الشاي الذي سقط فوق الأرض) لا تحمل هماً يا عزيزي، أما اليوم فقد كانت كل شيء على ما يرام!

هو : قد لا يكون الأمس فقط، قد يكون نفس الشيء حدث اليوم، قد أكون كل هذه السنين اقرأها مقلوبة .. من يعرف من يعرف!

هي : لقد حدث ذلك مرة واحدة .. بالأمس فقط.

هو : كيف حدث ذلك؟

هي : اعترف بأن الغلطة كانت غلطتي، فعندما وضعت الصحيفة على عتبة الباب كما جرت العادة نسيت أن أحافظ على نفس الوضع الذي كنت أضع به الصحيفة كل يوم، رميتها كما اتفقت وجئت أنت وأخذتها معتقداً أنها وضعت بنفس الطريقة القديمة!

هو : وكيف تسمحين لنفسك بارتكاب غلطة فظيعة مثل هذه!

هي : كل يوم ولمدة خمسة عشر عاماً، آخذ الصحيفة بعد أن تكمل قراءتها، أضعها هناك على عتبة

الباب لتقرأها في اليوم التالي، نفس الصحيفة، بنفس الطريقة، دونما خطأ واحد كل هذه السنوات، ثم تأتي اليوم لتسمي هفوة بسيطة مثل هذه «غلطة فظيعة»!

هو : هل أنت غاضبة مني!

هي : أبداً يا عزيزي لست غاضبة (لحظة صمت) هل أنت غاضب مني!

هو : لست غاضباً يا عزيزتي منك ..

(تذهب هي في بطء وتلتقط الصحيفة من فوق الأرض)

هو : لا أستطيع أن اقرأ شيئا فيها!

هي : اترك الأمر اليوم، وغداً ستقرأها وكأن شيئاً لم يكن (تذهب نحو عتبة الباب ثم تقف) سوف نفكر في موضوع مليء بالإثارة لنجعله العنوان الرئيسي للصحيفة غداً.

هو : أين هي (يتحسس المنضدة) أين هي الصحيفة؟

هي : سأضعها قرب الباب!

هو : هاتها (ويمد إليها يداً ترتعش).

هي : (وقد أحسست بالخطر في لهجته .. تردد في إعطائه الصحيفة).

هو : (بتصميم) هاتها (مازالت يده ممدودة).

(تردد مرة أخرى، ثم تتقدم منه في بطء شديد. تضع الصحيفة في يده. يبدأ هو في تمزيق الصحيفة إلى قصاصات صغيرة، تقترب هي حتى تقف بجانبه، بعناية شديدة تأخذ الصحيفة الممزقة إلى قصاصات، تذهب بها إلى نار المدفأة، تضع القصاصات في النار وتجهش بالبكاء وهي ترى هذا الوهم الذي صنعته مع زوجها لمدة خمسة عشر عاماً قد تحطم اليوم. في حين وقف هو ينظر إلى البعيد بعينين انطفأ نورهما في حزن وصمت!

(ببطء شديد ينزل الستار)

هذه المسرحية ومسرحية زائر المساء كتبهما المؤلف أصلاً باللغة الإنجليزية حيث تم تقديمهما على المسرح من قبل أكثر من فرقة أجنبية، وهذه ترجمة للمسرحيتين قام بها المؤلف.

■ اربطوا احزمة المقاعد

اربطوا احزمة المقاعد

انا ذاهب لارتاح

في عروقي يجري دم بارد متخثر كمياه المستنقعات .. وفي مكان ما من هذا العالم سأجد راحتي وعلاجي!

انا ذاهب لارتاح ..

والسهول البيضاء تمتد عريضة متماوجة لا يحدها البصر .. امتلأت بحيرات زرقاء، وانتصبت في منخفضاتها خيام بيضاء وارتفعت فوق ارضها سلاسل من الجبال التي يغطيها الثلج.

وانا ذاهب لارتاح ..

قطعت تذكرة سفري، ووقفت على سلالم الطائرة انشر منديل وداعي، واعجبني مقعد بجوار النافذة جلست اليه .. الذي اعجبني اكثر ان جارتي في المقعد امرأة بلا زوج ولا اطفال .. مسافرة وحيدة وانا مسافر وحيد، ربطت حزام مقعدي .. ثم اغمضت عيني احلم بالجارة الجميلة .. ارتفعت الطائرة ودفنت نفسي في السحب.

انا فوق السحب، والسحب تتلون وتتغير وتصنع عوالم وتهدمها. وانا اصنع عوالم ولا اهدمها.

نظرت اليها .. كانت تسبح بنظرة هائمة في مجتمع الطائرة، كان كتفها يسيل شهياً مغرياً .. خلعت الجاكيتة وبقيت في قميص بدون اكمام. وجهها دقيق ناعم كوجوه الاطفال .. لا بد انها امريكية كانت تزور اقارب لها في ليبيا .. او سائحة سويدية او المانية او انجليزية .. كل هذا لا يهم الذي يهم انها

مسافرة وحيدة، وانها جميلة، وانها بجواري على المقعد، وحركة صغيرة وكلمة صغيرة، ستفتح بيني وبينها عالماً جديداً. سوف يجري فيه دمي، وأجد فيه علاجاً لامراضي. ونظرت باشتهاء الى ذراعها الذي يسيل كنهر العسل .. تفصل بيني وبينه مساحة صغيرة تزيد على موضع اصابع اليد.

انتظرت ان تبدأني بالحديث، انها رحلتي الاولى الى الخارج .. وقد سمعت كثيراً عن صراحة وشجاعة الاجنبيات، المرأة الاجنبية هي التي تبدأك بالحديث .. هي التي تمد يدها الناعمة الى شعرك الاجعد تستأذنك في ان تتحسسه وتستمتع به .. وتنظر الى ملامحك السمراء التي لفحتها اشعة الشمس وتهيم بها، هكذا كانوا يقولون لي، حتى شجعوني على ان اغامر بشراء التذكرة وركوب الطائرة وقضاء هذه الاجازة خارج بلادي .. ومن اجل هذا رحت أمرر بيدي بشعر رأسي لانبه الجارة الجميلة ان لي شعر أجعد. واتنحنح وابتسم واتحرك في مقعدي كي تتنبه الى ان بجانبها ملامح سمراء لفحتها الشمس .. لكنها بدت عنيدة متكبرة .. تشمخ بانفها الى سقف الطائرة .. ساعرف كيف اكسر عنادها وكبريائها .. مهلاً ايتها الجارة الصغيرة، لست بدوياً غشيماً كما تظنين .. ساعرف من اين آكل كتفك الناعم .. ونظرت الى ذراعها الذي يسيل في نعومة .. والى كتفها العاري. وقررت ان ابدأ اجازتي ..

خلعت انا ايضاً جاكيتي .. اقتربت قليلاً من مقعدها .. وحركت كتفي ليزحف حتى يخنق المسافة التي تفصل بيني وبينها. لاصل اليها والتحم بها واستمد من بدنها الطازج دفئاً للدم البارد في عروقي .. حرصت على ان تكون حركة عفوية لا اثر فيها للرصاد والترصد .. ولكي ازيد في التغطية اشعلت سيجارة ونفخت نفسها طويلا وعندما حركت كتفي ليصل اليها بدا وكأنني اريد ـ فقط ـ ان اتبحبح في الجلسة. وكدت اقترب من ذراعها .. لولا انها وبحركة واعية تململت في مقعدها .. وابتعدت في آخر الكرسي .. كأنها تريد ان تمنحني الفرصة لارتاح في جلستي كما اريد.

وفتحت مسافة جديدة بيننا .. مساحة ستكون اكثر صعوبة .. فقد كان سهلاً ان اغطي المساحة الاولى لكن مع هذه المساحة الجديدة فإن علي ان اتخلى عن شيء من وقاري واتحرك في محاولة مفضوحة نحو مقعدها .. ونظرت حولي وعندما لم اجد عيناً تراقبني قررت ان اواصل الزحف .. كان ذراعها مترجرجاً شابته حمرة خفيفة كفاكهة في تمام نضجها وكنت انا الثعلب الذي يحاول ان يقفز ويمد براثنه ليقطف الثمرة الناضجة.

اتكأتُ على المسند الذي يجمع بين مقعدي ومقعدها .. وكان عليَّ أن أجمع كل شجاعتي وخبرتي وأن ازحف بكتفي .. زحفاً بريئاً .. هادئاً... لا غبار عليه، كانت هي تنظر الى الامام وتلوك في فمها قطعة الحلوى التي قدمتها المضيفة في بداية الرحلة. لكنني لم ارتاح الى نظرتها الامامية هذه، احسست انها نظرة كاذبة تموه بها عليَّ. احسست انها قد باتت تدرك اغراضي الخبيثة، وانه يستغرقها اهتمام عظيم بالمحاولة التي ابذلها للوصول اليها، وانها تفتح اذنيها بقدر ما تستطيع تتحسس دبيب كتفي فوق ظهر المقعد .. وهي لا تزال صامدة .. والمساحة اللعينة تفتح فمها ..

ما زال امامي جزء صعب يجب ان انهيه .. لقد رحلت مشاوير بعيدة .. وقطعت على قدمي مساحات شاسعة عندما كنت صغيراً اتنقل مع والدي وهو يذهب الى الحرث والحصاد .. لكن اشق المسافات هي هذه المسافة اللعينة التي لا تزيد عن موضع اصبعين .. لكنني ساخنقها .. سأروي عطش كتفي الى مرمر كتفها .. ونظرت الى الأمام .. لكى أبدو وكأنني لا ادري على شيء .. كأن كتفي يمارس عمله بمعزل عني وعن ارادتي .. لكنه كذب .. فكل ارادتي وجهدي تتركز هنا .. في هذا الكتف ليغطي المسافة الصغيرة .. وتهيأ لي في لحظة خاطفة كرمش العين انني وصلت الهدف وان ذراعي يعانق ذراعها الآن ويلتصق به ويبثه حنينه وشوقه .. لكن شيء من هذا لم يحدث .. فبحركة لم اشعر بها ولم أدرِ كيف حدثت وكيف احست جارتي بدنو كتفي وكيف تداخلت في نفسها وانكمشت.. لم ادري كيف حدث هذا .. كل ما ادريه ان مساحة جديدة تزيد عن موضع ثلاث اصابع قد فتحت فمها من جديد .. كان كفاحي وصبري قد تلاشى في الهواء .. واصابني حزن عميق. وللحظة قررت ان اتنازل عن هذه اللعبة، تهيأ لى ان ما افعله عمل صبياني لا يليق برجل وصل الثلاثين من عمره. وان علي ان اكف حالاً عن هذه اللعبة واعود مسالماً الى مقعدي. لكنني وجدت كتفي مصراً على البقاء في مكانه، كانه احتل موقعة حربية خطيرة من الصعب ان يتنازل عنها، واحسست بانني لو لم اصل بكتفي حتى يلامس كتفها ويعانقه ويشرب من مائه، لسوف اشعر بخيبة تتضائل بجوارها كل خيبة عمري في الحصول على النساء عندما كنت اطوي الشوارع ليلاً ونهاراً والف المدينة بسيارتي ككلب اصابه السعار لاطفىء جوع عواطفي .. ثم اعود وانا اجر خيبتي وجوعي.

ورمقت المساحة بغيظ لا حد له .. ساناضل ضد هذه المساحة اللعينة حتى الموت .. وبدا عليَّ ان هذه آخر مساحة اقطعها على ان انال غرضي. فلقد انزوت في الكرسي حتى لم يعد هناك مساحة اخرى .. وانكمشت على نفسها حتى لم يعد هناك مجال الى مزيد من التداخل والانكماش .. الحصار الآن محكم .. ولم يبق الا اصابع ثلاث واصل. وانتظرت لحظة حتى مرت المضيفة تؤرجح ابتسامتها امامها .. ورمقت بنظرْ جانبية جارتي الصغيرة .. ما تزال تنظر الى الامام، ولكن اثر الحصار واضح على ملامحها .. تفتحت براعم انفها في غيظ .. .وكشرت بين حاجبيها. وحط غبار الضيق فوق ملامحها. ولم يؤثر هذا في معنوياتها .. فالمساحة لا تزال تفصل بيننا. ولم تعد في فكري مساحة واحدة تفكر في ضيق الجارة او حزنها او سعادتها .. كان كتفي ذئباً جائعاً .. وفتح الذئب انيابه .. وتقدم في حذر الى الفريسة في دبيب خافت كدبيب اقدام الموت .. وكانت عضلاتي تتشنح كأنني خائف من ان اخوض هذه المغامرة القاسية ثم يلحقني الفشل .. وكان عليَّ ان اتحرك كحركة عقرب الساعات في ساعة يدي الذي يحط فوق الساعة الخامسة ثم السادسة ثم السابعة دون ان اراه يتحرك .. كحركة الكرة الارضية التي تدور كل يوم ونحن فوقها دون ان نحس بانها تدور تحت اقدامنا .. حركة ثقيلة بطيئة، ولعله مضى وقت طويل قبل ان احس ان المساحة اللعينة تختنق، تموت، بل اكاد تسمعها تصرخ، وانا اكتم انفاسها بدبيب كتفي البطيء .. وقبل ان استكمل سعادتي واذوق طعم الانتصار. وجدت كأن الطائرة قد اتسعت، وان المقعد امتد اشباراً اخرى حتى استطاعت جارتي الصغيرة ان تجد مكاناً آخر تنزوي اليه

وتمنح الفرصة لمساحة جديدة. وحطت في قلبي سحابة هم ثقيلة، كانت مساحة في حجم المساحة الاولى .. كأنها طرف لسانها في هزء وسخرية .. ورغم ما بدا لى من انني لو واصلت المحاولة فساضطر الى ان انكفىء نحوها في وضع مفضوح وابدو كإناء مدلوق .. وان ليس هناك مجال لأميل بجسدي وازحف بكتفي اكثر من هذا لن يصعب على من يرانا ان يكتشف لعبتي ومضايقتي لهذه المرأة الصغيرة. رغم هذا لم اتراجع .. بدا لي ان التراجع ليس الا خيبة وانهزام، يجب ان امضي، ما زلت ارى ذراعها العاري شهياً يسيل له لعاب كتفي، وكان علي ان ابدأ معركة اخرى. معركة رحت اخوضها وانا اكثر احراجاً .. وكانت حبات من العرق الصغيرة تنبت على جبيني، ولكنني ساكمل هذا الشوط اللعين .. بدأ كتفي زحفه الكوني البطيء وكانت عيناي كجهاز رادار يراقب ويلتقط الصور ويقوم بدور الرقيب لحركة كتفي .. كان تعبير من الانزعاج يغمر ملامحها كأن الذي يزحف نحوها براثن وحش خرافي خرج من كهوف خفية مجهولة .. ليسحقها. ومسحت مجتمع الطائرة بنظرة شاملة .. كان كل شيء هادئاً، بعض الركاب يستغرقهم الحديث، وبعضهم يدفن وجهه في السحب، وبعضهم يطالع الصحف .. لا احد يشعر بهذه المعركة التي تدور الآن. كان مجتمع الطائرة هادئاً كانه يتواطىء معي ضد الجارة الصغيرة. اطمأننت. وشحنت هذه الطمأنينة كتفي بقوة دفع جديدة يواصل بها الزحف. وكأنما اوقفت الطائرة محركاتها وحطت فوق القمر كأنما الارض والكواكب واجرام السماء فقدت وقارها واسرعت في الدوران حول نفسها طرباً .. فقد وصل كتفي الى كتفها وسجد راكعاً فوق رخام ذراعها .. وعمرت مسام جسدي قشعريرة لذيذة، سرت من ذراعها الى كتفي الى جسدي، واحسست بدمي يتحرر من ثقله وتخثره ويركض كجياد برية لم تمتد لها يد سائس .. تركض عبر سهول عريضة ممتدة، وصرت امتص رحيق سعادة صافية استشعر طعمها على طرف لساني .. لكن هذا لم يدم طويلاً فقد بدى على جارتي كأنها تريد ان تطلق صرخة تحطم جدران الطائرة واعرف اذا ما كانت تخصني ام لا .. وادركت انها ضحكة يحاول صاحبها ان يكتمها في كم قميصه، وبدون ان التفت ادركت ان هناك راكباً في المقاعد الخلفية يراقب ويشاهد ما يحدث الآن، وكأنما فتحوا نافذة من الطائرة واسقطوني لارتطم واتهشم فوق الارض. تلاشت سعادتي كالسحاب، ووجدت نفسي انفلت هارباً وانزوي في الركن الاقصى من مقعدي، وانا احس بخجل عظيم وعرق يبلل جسدي وكأنني طفل تبول في سراويله .. احسست سخافة ما كنت افعله ومدى بشاعته.. انبت نفسي وعنفتها فقد كنت جلفاً قاسياً لا يعرف كيف يعامل الناس بأدب وذوق .. كنت مستنقع صغير يفوح بروائحه الكريهة. كان بامكاني ان افتح مع جارتي باباً لحديث ودي عن الرحلة والطائرة والسحاب، وستكون ودودة طيبة وهي تبادلني الحديث وتسألني عن رحلتي وهدفي، بدلاً من ان ازعجها بدبيب كتفي، احسست ان كل العيون في الطائرة تحاصرني وتغمرني ببصاق لزج يسيل على وجهي، كنت فأراً مذعوراً وقع في المصيدة، وفي صعوبة حاولت ان التفت الى الخلف لئلا يكون مجرد وهم ضيع عليَّ متعتي. لكنه لم يكن وهماً، كان هناك ينتصب باكتاف عريضة ويقتحمني بنظراته، وعندما رآني التفت اليه، ابتسم في خبث واشار باصبعه الى لافتة التعليمات. كانت تضيء ضوء الخطر الأحمر .. وترسل تحذيرها الى الركاب.

اربطوا احزمة المقاعد.

أدركت اننا نجتاز الآن احدى المطبات الهوائية. ربطت حزام مقعدي. ودفنت رأسي في السحب. رأيت السحب كوجه شيخ له ذقن اسود يتخلله بياض الشيب .. وجه شيخ موفور الصحة مرتاح الضمير .. .وكان الشيخ ينظر نحوي في حزن !!

■

جياد السحب الرمادية

فجاء الشتاء

وتضاءل حجم النهار ما عاد ضخماً عريضاً له قامة طويلة كظلال الصباح، ما عاد بدنه الجبرى يفرز ضوءا شرساً متوحشاً، صار النهار امرأة صغيرة وديعة كالزوجة الوفية وشمسه المخيفة الكبيرة قلم الشتاء مخالبها فلم تعد تخدش وتعض. صارت طيبة وديعة كعيون القديسين.

وجاءت السحب .. غزت بقوافل عرباتها وجيادها سهول السماء ..

(وهاهو يقف في شرفة البيت، مر صيف ثقيل يجرجر وراءه خريفاً اصفر وشمساً مريضة .. وادركه الشتاء، فصل الغضب والهدير والاعراس التي تقام في السماء، انه هنا ينتظر الشتاء كي يبدأ رحلته الخطيرة فوق جواد قوى جامح من جياد السحب الرمادية. كان شعر رأسه الخشن الغزير كالانسان الاول يتهدل فوق جبينه وعنقه وقد اختلط سواده ببياضه، وكان شعر ذقنه الكثيف اشعث مغبراً اختلط بشعر شاربه حتى اختفى فمه تحت غابة الشعر .. ومد ذراعين ينتشر فوقها الشعر وفرد الاصابع المخشونة التي نبت فوقها زغب ناعم كأنما احد ذر فوقها دقيقاً اصفر فسفورياً .. وبدا كأنه يريد ان يتسلق سلماً لا مرئياً الى سحب السماء .. وومضت عيناه ببريق فرحة غريب، وتفتحت براعم انفه وهو يلهث بالفرحة التي ضاق بها صدره .. وظهر فمه من تحت غابة الشعر وهو يغمغم، كانه يرتل تعويذة سحرية، تطيعه بعدها النجوم والسحب ويخضع له الكون).

يا عالم السحب العجيب يا مدائن وحدائق مسحورة معلقة في الهواء .. يا جياداً قوية راكضة اريد ان اركبها واعبر الكون ..

ها انت قريبة .. هنا

وها انا هنا .. اجتر احزان آدم الاولى، الذي اركبه الرب ظهر جواد ملعون، عبر به الفضاء وهبط الى جبال وصخور هذه الأرض، فأراد ان يبني فوق الصخور بيتاً جميلاً، كبيت مولاه الذي خرج منه مطروداً، هكذا اراد، ولكن روحا مخرباً شريراً انتشر في الفضاء، افسد على آدم كل مشاريعه، اراد ان يزرع في بيته السعادة، فنفث الروح انفاساً سوداء من الحزن، اراد ان ينمي الصدق فارسل وراءه كلاب الاكذوبة لتفترسه اراد ان يبني العدل والمحبة، فغضب الروح الشرير ونفخ في صدر قابيل الذي تناول الصخرة وقذف بها وجه هابيل اخيه .. فتفجرت فوق الارض انهار الدم، اراد الاب الاول ان يبني عالماً جديداً، لكن الروح الشرير اراده قبيحاً دميماً، وملأ بانفاسه الثقيلة الهواء، وسمم فوق رؤوسنا الجو، وجعلنا نتنفس الرماد والصديد.

انني اعرف هذا الروح الشرير.

انني اشعر بانفاسه دائماً، اشم رائحته دائماً تحت انفي، انني اعرفه. لقد جلست على مقعد القاضي وانا احس بالانتصار، انتظر يوماً يجرون فيه الى هذا الروح الشرير مقيداً بالسلاسل والاغلال، لانفذ فيه حكم العدالة، ولكن بدلاً منه جاءوا يجرون الناس المساكين، مزوري النقود واللصوص والقتلة .. واردت ان اكون عادلاً فاطلقت سراحهم .. .ظنني الناس مخرباً مجنوناً. ونقلوني من مقعد القاضي الى قفص المتهمين.

ــ كيف تجعل مزور النقود بريئاً ؟

ــ لقد اردت ان اكون عادلاً .. فلم اعلق الجريمة في عنقه واحاسبه بها، لانها ليست جريمته .. ان المسكين ضحية ..

ــ ضحية من ؟

ــ ضحية ذلك الروح الشرير الذي نفث في عالمنا الغش والتزوير ..

ــ وهذا اللص ؟

ــ انه ليس مسئولاً عن السرقة.

ــ اذن من هو ؟

ــ انه الروح الشرير

ــ وهذا القاتل ؟

ــ انه ليس مسئولاً عن الجريمة

ــ اذا من ؟

ــ ان المسئول هو الذي نفخ في رئتي قابيل انفاس الجريمة، هو الذي زرع المرض في صدور الناس، هو الذي حفر فوق الارض انهار الدم .. هو الذي جعل الاف الناس يموتون بالجوع، وقطع الفرصة على عالمنا كي لا يكون جميلاً، كالبيت الذي خرج منه آدم مطروداً .. ان المسئول هو الذي زرع بذور الشوك وجعل عالمنا رديئاً مراً .. انه الروح الشرير.

ولم يصدقني أحد.

لقد نفث الروح الشرير ضباباً أسوداً ثقيلاً ملأ العيون، فتعذرت الرؤيا، وصار الناس يرون العدل باطلاً. والباطل عدلاً.

من يومها اعتزلت باحدى حجرات البيت، لم اعد اطيق التعامل مع هذا العالم الذي يخربه روح

الشرير، هذا العالم الممسوخ، الذي يمتلئ بالشر والتفاهة، لقد صرت اكتشف اكاذيبهم .. ارى الاكاذيب واضحة في عيونهم .. ارى بصمات اصابع ذاك الروح الشرير في احداق العيون، ولكي اتعامل معهم فلا بد ان اتعامل بالاكاذيب ولكن عينيّ رأتا وعرفتا فلم يعد سهلاً عليهما الكذب .. الا اذا اقتلعتهما واستبدلت بهما عينين اخريين

وهكذا اعتزلت الناس، الى ان يتم تنظيف هذا الاناء المتسخ الذي اسمه العالم .. حتى يموت الروح الشرير، كي يعود العالم نظيفاً جميلاً .. لا بد لفارس ما ان يقتل الروح الشرير .. فارس ليس كالفرسان. .

فيا جيادا قوية خالدة تركض في الافق .. لم تمسها يد فارس ولا سائس .. تعالي اليّ .. فسأكون انا هذا الفارس .. الذي ليس كمثله فارس.

« واهتزت اطراف الكون هزة عنيفة، وامتدت يد ضخمة تدير الرحى الكبيرة التي تصنع الرعد .. واضاءت الدنيا ومضات سريعة متلاحقة كاشفة من البرق، وتمزقت قربة السماء فدلقت ماءها .. وامتلأ كيانه بنشوة جهنمية عربيدة جعلته يهتز ويكز على اسنانه ويرفع رأسه الى المطر، الذي غمر شعره وملابسه .. حتى اغرقه .. وبدت عيناه كجوهرتين تتألقان باشعاع غريب .. ومن بين دفقات المطر، وعلى وميض البرق.. بدا له أنه يرى لأول مرة ذلك الروح الشرير، رأى أنيابه وقرونه والشعر الذي ينبت فوق جلده كشوك القنافذ .. وهو ينشر هناك بين السحب جناحي الخفاش الذين يطير بهما، ورأى شهابين عرف انهما عيناه .. رآه واستمع اليه يرسل غناء وحشياً ويهز جناحي الخفاش في انتصار ويرقص على انغام مهرجان المطر والبرق والرعد والريح .. وبدا كانه يرقص هناك ليتحداه .. وامتلأ حنقاً وغضباً، وكشر بعينيه وانفه وفمه وحذف بقبضة يده في الهواء كأنه يوجه لكمة الى وجه الروح الشرير .. وزمجر وهو يرتل التعويذة التي سوف يحرقه بها .. خرج صوته في هدير عنيف متواصل اراده ان يعلو على هزيم الرعد .. وخاطب قوافل السحب .. والروح الشرير في آن ».

هذه الجياد العنيدة القوية. الجامحة، التي تتراكض في مواكب رهيبة عبر سهول السماء .. جياد السحب الرمادية، هذه التي ترعب الكون بصهيلها وتهزه وتجعل اطراف اصابعه ترتعش .. هذه التي تتحرك في السماء .. فتهز كل كبرياء الكون بزمجرة رعودها .. تجعله يظهر على حقيقته شيخاً قديماً عجوزاً افسده روح شرير فصار يرتعد اعياء وخوفاً ..

هذه الجياد الراكضة الخالدة ..

سوف اختار اقواها لاطاردك به.

سوف اختار الجواد القوي، الشجاع، الجامح، المليء كبرياء .. سوف اضع اللجام في فمه .. واضع فوق ظهره السروج والامتعة.

سوف اعتليه، واجلده بالسياط، ليتدفق عبر صحاري الفضاء، غاضباً جامحاً، شيطانياً، كانه مليون عاصفة .. سوف انتشر وراءك عبر كل اطراف الكون.

سوف اكون لعنة تطاردك كالرياح الابدية في كل مكان .. سوف اجعل من جوادي السماوي كلباً بوليسياً ماهراً يشم راحتك .. لاصل اليك اينما كنت.

سوف احرق أمتعتك وثيابك.

وابطل سحرك ومفعول اعشابك وابخرتك وتعاويذك.

سوف اهشم جمجمتك وعظام ظهرك وقفصك الصدري .. وستموت ايها الروح الشرير الى الابد، لكي نبني عالمنا الجميل.

ذلك .. .لانك انت .. انت .. الـ ..

(وكأنما اعياه الصراخ .. فارتخت عضلاته المتشنجة وهبط بذراعيه الى اسفل .. واكمل التعويذة .. .كأنه لا يهتم بان يسمع الروح الشرير بقيتها) ..

ذلك لانك انت الشر، وأنا الخير، لانك انت الحقد وانا الحب، لأنك انت الاكذوبة وانا الحقيقة، لانك انت الهزيمة .. وانا فارس النصر الذي لن ينهزم.

(وبدا له كأن جواداً من جيادا السحب الرمادية، هو لا شك اقوى هذه الجياد واكثرها شجاعة وجموحاً وكبرياء .. يتزحزح من مكانه بين بقية السحب ويقفز ويهبط اليه في الشرفة العالية .. ويحني له ظهره لكي يركبه، ويقفز به بعيداً .. بعيداً .. حيث يتدفق عبر صحاري الفضاء جامحاً شيطانياً كأنه مليون عاصفة يطارد الروح الشرير .. ونظر بامتنان شديد الى الجواد، وامسك بشعر عنقه .. ورفع قدمه .. وقذف بنفسه ليستوي تماماً فوق ظهر الجواد) ..

(في تلك اللحظة، تماماً، تماماً، وفي ضجة امطار ورياح ورعود العاصفة، لم يسمع احد ارتطام بدن انسان على الرصيف .. ولا شهقة الموت التي اطلقها .. ولا صوت عظام ظهره وجمجمته وقفصه الصدري وهي تتهشم)..

■

طائر الطفولة

الازغب

فتح الشباك ووقف صامتاً.

ملأ رئتيه بهواء ليل ربيعي ابتسمت نجومه.

وأسدل رموشه وملامح وجهه في شبه غيبوبة جميلة، وعادت الى الذهن ايام قديمة عن اعشاش العصافير في الربيع. واطفال القرية. والساحة الخضراء. وصيد القنافد.

وتمنى على الله ان يعيده طفلاً يحجل على قدم واحدة فوق ساحة القرية الخضراء، ويؤنس مع الاطفال دول وهمية، ويغني معهم وهو يرقص تحت المطر «يا مطر يا خالتي». وينصب في المساء فخاخاً للعصافير، ويقذف بالحجارة اسراب طيور الحجل والسمان والقنبر وهي تجدف باجنحتها عبر امواج السماء، ويتسلق صخور الجبل حتى تتسلخ اصابع يديه وقدميه بحثاً عن ضب او قنفذ ينام في الليل تحت جناح جدته العجوز بعد ان تحكي له خرافة السلطان والبحار السبعة.

وهمهم في غموض .. بصوت كهديل الحمام.

ـ ما اطيب تلك الايام.

ومرت بانفه وشفتيه واهداب عيونه نسمة ربيع ذكرته بمشاتل النعناع في بستان عمه منصور، واستشعر على طرف لسانه طعم اعشاب «الجرجير» ومذاقها الحار وثمار اشجار السدر والبطوم ونبتات الشيح والزعتر التي كثيراً ما اصرت جدته على ان تطببه بها.

وتسكع بنظراته فوق صفحة السماء التي اوقدت قناديل نجومها. وحلق فوق رأسه طائر الطفولة

الازغب .. بجناحيه الناعمين حاملاً فوق ظهره ذكرى ايام قديمة من عمره. ساكباً في اذنيه ترنيمة الطفولة العذبة .. وخالجه احساس بالسعادة وهو يتذكر اللقب القديم الذي اطلقوه عليه. ما زال بعض اصدقاء الطفولة يداعبونه به. فقد كانوا يسمونه «العصفور» وكان هو في طفولته نشطاً خفيفاً، ناعماً كزغب صغار الطيور .. وكانت العصافير هي حبه وهوايته.

« وها انا هنا يا طائر الطفولة العذب. طائر هرم بلا جناحين. لم اعد عصفوراً يغني ويضرب بجناحيه الهواء في سعادة .. فقد سلخوا عن بدني الريش .. وبانت جروحي المتورمة التي تحرق بدني .. هجرتني اسراب الطيور .. وانا اعيش في قفص خيبتي وجبني وعجزي. اصبغ شعر الفودين الابيض بالسواد. وازيف شهادة الميلاد. واغطي عربي بالجرائد القديمة. وازحف على ارصفة مدينة لا تعرف الاعشاش والعصافير. واعوى طالباً رزقي».

وفي رحلة الربيع عندما تحمل الاسرة خيامها المطوية في المخازن وتغادر بيت القرية لتنصب الخيام وسط اعشاب ربيع الوادي، كان همه الاكبر البحث عن اعشاش العصافير حيث يضع ارجاما من الحجارة يهتدي بها الى العشاش التي يعثر عليها تحت الصخور او بين نبتات السبط والرتم والعجرم، وكان يراقب بيضها حتى يفقس فراخا صغيرة مسلوخة تفتح مناقيرها باستمرار. يتابع نموها، ويأخذها احياناً بين يديه يستمتع بلمس زغبها الناعم .. وكثيراً ما كان ينشغل بالعصافير عن رعي الخراف والجديان حتى تتوه منه .. فكان عليه حينذاك ان يدبر كيف يحتمي بجدته العجوز من تهديد وعصا ابيه.

« وها انا يا طائر الطفولة عجوز لا يعرف كيف يحمي نفسه. ها انا دقيق ونخالة بعد ان طحنتني جيداً رحى طاحونة تأز دونما انقطاع اسمها المدينة. بحثت فيها دون جدوى عن ضب وقنفد وعش عصفور وساحة خضراء .. حتى جف ماء الحياة في عروقي واحسست اني امتلىء تيبساً وشيخوخة كليمونة معصورة منذ عام وعام، بعد ان اهرقت ماء حياتي فوق ارصفة المدينة وجففت جثتي فوق سطوح عماراتها. وقتلت طفل القرية القديم في اعماقي .. دفنته تحت رماد التبغ .. وسقيت قبره باقداح الشراب..

وما عدت .. انا .. انا.

فكيف يا طائراً مهاجراً عرفتني. من اين لك؟. وزرتني. من اين لك؟. وانا نفسي اكاد ان لا اعرف نفسي .. انني فقط احفظ كرت عنواني .. ورقم شقتي .. ورقم سيارتى .. ورقم بطاقتي الشخصية .. ورقم تلفوني. ورقم رصيدي في البنك .. فانا لم اعد عصفوراً يا طائري الصغير. وانا رقم ككل هذه الارقام .. نحن في المدينة ارقام .. وانا لست سوى رقم من الارقام..»

وعندما ياتي الليل كانت جدته دائماً تفتح فماً بلا اسنان. لتقول

ـ كان فيه سلطان. وما سلطان الا الله. ومن عليه ذنوب يقول استغفر لله.

فكان يقول وقد امتزج في ذهنه احساس بالاثم واحساس بالتوبة.

ـ استغفر الله.

ليفتح له بعد ذلك صوت جدته قصوراً وكنوزاً ويحمله الى عوالم بعيدة جميلة طالما حن وتشوق للذهاب اليها. وكان يحلم بانه عندما يكبر سوف يجعل نفسه سلطاناً. وسوف يجتاز بسفينته البحار السبعة بحراً وراء بحر. وسيأتي من آخر الدنيا بزينة النساء «شمس» وهي تجر جدائل شعرها الاسود الطويل فوق الارض المفروشة ببسط من بلاد العجم. وسوف يبنى لنفسه قصراً عظيماً طوبة ذهب وطوبة فضة ويجعل للقصر حديقة مليئة بالازهار وأشجار التين والتفاح والكروم. وتأتي العصافير في الربيع وتبني الأعشاش فوق اغصانها. وستكون للقصر ساحة خضراء كساحة القرية يتنزه بها وهو راكب جواداً اشهب كجواد الشيخ بلعيد الذي يعدو به في الاعراس والموالد. وسيملأ اركان القصر بوسائد من ريش النعام. وسقوفه المنقوشة بماء الذهب يجعلها تضيء وتتوهج بقناديل وثريات الفضة .. وكثيراً ما فكر بانه يجب ان يقيم في مكان ما من القصر مشنقة سوف يشنق على اعوادها كل الاطفال الذين يخاصمونه او يعتدون على الاعشاش التي يكتشفها .. ثم يعود بعد ذلك لينام على صدر شمسه راضياً، سعيداً، مرتاح الضمير.

« لكنني .. فقدت ها هنا يا طائري الازغب الجميل راحة الضمير. فقدت نعمة الطهارة والرضا .. اعيش حاملاً ذنوبي واثام غربتي في المدينة. ابحرت عبر البحار السبعة يا عصفوري الازغب وحرثت بمجاديفي امواج البحر، بلا جدوى. فقد عدت من رحلتي الطويلة خائباً بلا غنيمة بلا طويلة الشعر شمس. وقصر الطفولة الذي بنيته في اعوام عمري الاولى خربته اعوام عمري الثاني. وحديقة القصر لم تنبت لى سوى الصبار والعسج الذي ادمى باشواكه بدني وقلبي. وجعل حياتي جرح ينزف باستمرار .. والجواد الذي حلمت به مات منذ ان مات الشيخ بلعيد وحصانه. والبسط العجمية انتزعوها من تحت قدمى منذ ان هاجرت في سيارة شحن الى المدينة ..

فلماذا زرتني ايها الطائر الازغب الصغير .. لماذا جئت تحمل ذكرى طفولة لا اعرفها. الم تدرك يوماً ان الناس في المدينة يسدلون ملامحهم في وقار .. بشكل يستحيل معه التصديق بأن هؤلاء الناس كانوا يوماً ما .. اطفالاً».

والصور القديمة في ذهنه تتداعى سعيد بها، كأنه يكتشف طفولته من جديد. كان عالماً قديما مدفوناً تحت الارض .. نفض تراب الزمن وانتصب واقفاً في شموخ .. احواض الغدير وقد تزاحمت حولها عصافير عطشى تلتقط بمناقير حمراء قطرات الماء قطرة قطرة. وهو يرقبها من بعيد. صورته وهو طفل مبلل يرفع وجهه للسماء ويستقبل خيوط المطر في شجاعة. ويضع يده في ايدي بقية الاطفال ينتظمون في حلقة كبيرة يرقصون على ايقاع المطر كأنهم شياطين صغيرة وقد استبدت بهم هستيريا من

الفرح والسعادة. غير عابثين بعقاب الاباء ولا الزكام الذي يأتي بعد ذلك .. صورته وهو يلاحق ارنباً ابيض فر مذعوراً من امامه .. يعدو وراءه الى ابعد المسافات حتى يدركه الظلام فيركض عائداً الى البيت. وهو فخور بانه استطاع ان يمشي في الظلام .. وان يغيب الساعات الاولى من الليل كما يفعل الكبار..

وابتسم في نفسه لذلك الطفل القديم .. وقال في حياء وخفوت كأنه يدلي بشهادة زور

ــ لقد كان طفلاً رائعاً ..

واحس بطائر الطفولة يرفرف بجناحيه قريباً منه. كانما يذكره قائلاً انك انت هذا الطفل. انت هذا الطفل.

وردد بينه وبين نفسه في دهشة كدهشة الاطفال:

ــ ألست انا حقاً هذا الطفل ؟

وبدا له كأن عينيه تفتحتا فجأة على هذا الاكتشاف. لاول مرة صار يدرك انه كان طفلاً رائعاً ذات يوم. واحس بالفخر والسعادة لهذا الطفل. وبدا له ان باستطاعته ان يكون هذا الطفل الرائع من جديد ..

وامتلأ المكان فجأة بشذا طيب كأن قارورة عطر قد فتحت. فتنسم عطر القارورة. واحتوى بعينيه السماء والنجوم واسطح البيوت التي بدت وقد لفها ليل المدينة كصناديق الالعاب جميلة ومضيئة .. وراى الكون جميلاً رائعاً، فاغمض عينيه اغماضة صغيرة كي يختزن كل هذا الجمال في حدقتي عينيه ويبقيه هناك الى الابد.

واحس في هذه اللحظة براحة نفسية عميقة تضاءل بجوارها حجم همومه واحزانه فرآها ضئيلة صغيرة كاصفار على هامش حياته. انه الآن أكثر شباباً واطول قامة واعفى بدناً. وشعر فوديه الابيض لم يعد شارة هزيمة وانما هو شارة البطولة. والبحار السبعة سيجتازها في غمضة عين وسيعود حاملاً طويلة الشعر الى بيته. ولم يعد عارياً مسلوخاً لقد نبت له الان ريش وجناحين. وصار قادراً على ان يعود من جديد عصفوراً رائعاً. سوف يسدل الريش الناعم فوق جروحه فلن تؤلمه ويضرب الريح بجناحيه ويسافر مع اسراب الطيور في رحلة كل يوم.

وتهيأ له ان النجوم تقيم من اجله مهرجاناً في السماء. وان خشب الشباك الذي يقف عنده سيطرح الآن ..الآن ..اقحواناً وقرنفلاً وفلاً. واحس بنفسه قوياً منيعاً قادراً على ان يرتفع فوق احزانه. وقادراً على ان يهزم المستحيل واحس بالدماء جديدة حارة تتدافع في عروقه فقرر على الفور ان يمد يده الى السماء وان ينتزع من قبتها العالية عرجوناً مليئاً بالنجوم.

■



في غبشة المساء رأيته ..شبح رجل ترتفع به الارض وتنخفض ..حيناً اراه كاملاً وحيناً يظهر رأسه فقط ..وحيناً يختفي عن نظري ..
اسرعت الخطى ..

ولكن السحب تعبر فوق رأسي عبوراً بطيئاً ..تزحف على بطونها ..وتملأ بون السماء الشاسع، بضجيج الصمت.

كنت افكر فيما اذا كان الرجل قادماً نحوي ..ليس لدي ما اقدمه له ..فنبتات الشيح من حولي ذابت اوراقها. شجيرات الرتم التي كنا نستظل بظلها صارت اعواداً يابسة ..الارض صفراء، صفراء مريضة لا تعد بشيئ واحساسي ايضاً اصفر لا يعد بشيئ .. فالاشجار اختفت بعد ان حولها الناس الى فحم ..

اقترب الرجـــل ..

كان واضحاً انه قادم في اتجاهي ..تحفزت للمعركة ومددت يدي الى البندقية .. وفتحت جهاز الامان..

انتهى الحصاد وها انذا عائد، جمعنا السنابل في نادر كبير، درسناه وذرينا هشيمه مع الريح ..وتحول الى حبوب تملأ الزكائب .. وخرجت من الحصاد بلا حصاد حسبوا اجرتي واحتجزوا ثمن ما اكلته وما شربته ..وما بقي سيطعم ـ بالكاد ـ اطفالي لعدة ايام.

كان الرجل يرتدي عباءة شهباء ..والبندقية ارتفعت اشباراً فوق راسه ..واقدامه تصدر خشخشة عالية وتثير من حول خطاه التراب ..

الشمس مريضة صفراء ..تنحدر في تعب نحو الهضاب السوداء التي اعتدنا ان نسميها «أثداء الزنجية» ..شمس مريضة .. وارض مريضة ..وانا ايضاً مريض ..افكر في جرائم الثأر ..وفي قطاع الطرق .. والرجل القادم نحوي ..وعندما ارتمى ظل بندقيته بجوار قدمي ..زاد مرضى كانت سحنته ترابية باهتة كثعالب الصحراء .. وملامحه قاسية .. كأنها منحوتة من صخر ..شاربه كثيف وشعر وجهه بلا حلاقة ..وقدماه خرجتا من مقدمة خفيه، كبيرتين، اصابع قدميه بدت لي كرؤوس الافاعي ..

انتصب واقفاً امامي ..كان حجمه كبيراً ..منكباه عريضان، ظله ارتمى بجوار ظلي حتى تجاوزه ..وادركت عندها لماذا كانت قدماه كبيرتين ..

امتد من عينيه الف مخلب وجناح ..انقض عليّ بنظرة جارحة ..شحذ عينيه حتى امتلأ وجهه بالتجاعيد ..وقلت في نفسي ..

ــ ستجدني صيداً صعباً ..

ومرت لحظات صمت ثقيلة وهو يتفرس في وجهي ..كأنه يبحث عن هويتي ..قبل ان يقول

ــ السلام عليكم

ــ عليكم السلام

قلتها في تحد وتحفز ..كانني اقول ..يلعنك الله ..وكنت افكر ماذا ستكون كلماته القادمة ..لا شك انه سيقول اخلع عباءتك ..او هات ما معك من قطع النقود على عادة قطاع الطريق ..لكنه قال فجاة:

ــ هل معك ماء يا اخي ؟؟

قالها في عفوية وصدق ..اغتال بها كل مشاعر العداء في نفسي. ولاول مرة ادركت ان شفتيه مشققتان كأرض عطشى ..وغمرني خجل عظيم لانني ظننت الشر بهذا الرجل الذي يبحث عن جرعة ماء.

وعندما قدمت له «مطرة» الماء، ليشرب تناولها بين كلتا يديه واغمض عينيه ووضعها على فمه ..وظلت بلحة عنقه ترتفع وتنخفض في سرعة ..كان يعب الماء في شوق ..حتى اشعرني بالعطش .. تنهد في ارتياح ..

ــ ملعون هذا العطش ..لقد كاد يقتلني ..

سار بجواري ..وانا لم اعد شرساً ..صرت طيباً وديعاً فقد بدى لي انه رفيق سفر يمكن ان اطمئن اليه ..وكنت أحس بشيء من الزهو والسعادة لانني انقذته من الموت عطشاً ..

مددت يدي الى البندقية، وقفلت جهاز الامان ..وفتحت معه الحديث ..

ــ ماسمك يا اخي ؟

ــ عبدالله

ــ كلنا عبادالله

ــ ان اسمي الغرباوي

وصمت لحظة ثم قال:

ــ ولكنهم الان يسمونني الشرقاوي

قلت في نفسي لعل له اسماء اخرى. فبعضهم يحب ان تكون له اسماء كثيرة بل ان الله نفسه له عدد من الاسماء لا بأس به ...

وظن هذا الرجل ان الامر بدا غامضاً على ادراكي فتبرع بالشرح.

ــ لقد هاجرت، وانا صغير الى شرق البلاد ..عشت سنين هناك ..وصار اسمي «الغرباوي» لكوني قادماً من الغرب ..وبعد ان رجعت من الشرق صار الناس هنا يسمونني «الشرقاوي» وربما اسافر الى قبلي البلاد ..واعود ليسمونني «القبلاوي» ..وهكذا حتى احمل اسماء الاركان الاربعة .. وضحك ..

كانت ضحكته طيبة صافية ولكنها حزينة ايضاً ..كمن استطاع ان يصل الى حل مع حزنه .. وصار قادراً على ان يعيش منسجماً متجانساً مع هذا الحزن.

ورغم ما ظهر من كلماته من فخر .. فقد اعترفت بيني وبين نفسي ان الرجل صاحب تجربة عميقة يجب ان احترمها ..وعندما مضينا سويا في الطريق بدا لى كأننا اصدقاء قدامى ..واكتشفت في تلك اللحظة انني لست ارضاً بوراً لا تعد بشيء ..فها هي ذي اغصان خضراء من الحب والمودة تنبثق في قلبي ..وجاء الليل ..ذابت ملامحه في الظلمة ..لم اعد ارى وجهه بوضوح ..وعندما كان صوته ياتيني في وسط الظلام كنت احس به شخصاً آخر ..فلقد بدى وهو في الظلام، اكثر اقتراباً الى قلبي. شعرت نحوه بحب وتعاطف كبيرين ..كان ذلك غريباً فلم اكن انساناً ينفتح على الناس بسرعة علمتني الايام ان اكون حذراً متوجساً ..لكن صوته الذي كان يرن في صحن الليل رطباً ودوداً كأن ندى الليل بلله ورطب خشونته..

صوته هذا المليء توهجاً وتدفقاً جعلني افتح له كل ابواب قلبي واعاتب نفسي، كيف لم اكتشف هذه العاطفة والود في صوته منذ البداية، لا بد ان ملامحه التي بدت لي خشنة قاسية قد اخفت ما في

كلماته من عبير صادق ..كانت كلماته كحليب ساخن خرج لتوه من ضروع الشياه.

وانتظرت ان يحدثني الشرقاوي عن عمله ..لكنه لم يفعل ...فقلت له في ود ..

ــ وماذا تعمل في هذه الايام يا صاحب ؟

وكأنما لمست جروحاً قديمة يخفيها تحت عباءته الشهباء ..فقد انتفض في حدة وانفعال واكتسب طبقة خشنة افقدته توهجه وطلاوته ..

ــ كما ترى ..انني رجل لا ينتمي الى شيء ..لا اسم لى ..حيناً شرقاوي وحيناً غرباوي ..لا عمل لى .. حيناً اشتغل راعياً للاغنام ..وحيناً حطاباً يقتطع نبتات السبط والرتم والشعال ويحملها على كتفيه .. وحينا احرق جذوع الاشجار لاصنع الفحم .. وحيناً اقتلع جذور الحلفاء .. وحيناً اصطاد شياه الغزال لابيع لحمها في السوق ..اشتغلت كل هذه الاشياء ..وتحملت الاهانات والعذاب كثيراً .. ولكنني .. الآن ثرت على كل هذه الاشياء السخيفة..

وصمت فجأة ..
وعلقني في حبل صمته ..

لم أقل شيئاً ..صرت ادرك ان الشرقاوي يعاني من شيء ما .. وان ثمة شيء قد اغضبه ..واحسست بحزن من اجله .. بل انني انبت نفسي لانني حركت جروحه القديمة ..وانتظرت ان يعود الى اتمام حديثه .. لكنه مر وقت طويل دون ان يقول شيئاً .. حتى وصلنا مفترق الطرق ..وكان علي ان آخذ الطريق الذي يقود الى قريتي .. وان يواصل هو سيره..

شعرت بشيء من الحزن لانني سافترق عن هذا الرجل ولكن احساساً يملأني بانني سالتقي به مرة اخرى ..ومددت يدي لاودعه ..لكنه ابقى يده في يدي ..وكأنما عز عليه ان يخفي عني شيئاً ما .. وتكلم.

ــ اتريد ان تعرف يا صاحبي كيف تمردت على تلك الاشياء السخيفة ..اتريد ان تعرف لماذا خرجت اليوم عندما لقيتني ..احقاً تريد ان تعرف ..

لم اقل شيئاً فواصل كلامه ــ لقد انتقمت لنفسي. انني لست رجلاً طيباً كما تظن يا صاحبي.. وفي كلمات متدافعة .. منفعلة .. قاطعة كالسيف وضع امامي كل شيء.

ــ انني سارق ..قاتل ..قاطع طريق ..

واطرق برأسه ..

وتصورت أنني ساصاب بصدمة عنيفة، سوف تتغير مشاعري نحوه، سوف اندم لانني انقذت

قاطع طريق من الموت عطشاً ..سوف ..لكن شيئاً من هذا لم يحدث ..اردت ان يحدث هذا ..لكني بدوت في تلك اللحظة كأن ارادتي عاجزة عن ان تتدخل فيما يحدث الآن. فقد تقبلت كل هذا كأنه امر طبيعي متوقع الحدوث، لن يغير شيئاً من امر علاقتنا، ورغم ما اردت ان ابينه لنفسي من انه كان سيقتلني انا ايضاً لولا جرعة الماء التي انقذت حياته من الموت عطشاً ..وأنقذتني انا من القتل ..رغم ذلك فقد بقيت محتفظاً بمشاعر الود والتقدير العميق له ..واطوى ذكراه في قلبي ..ذكرى قاطع طريق ..فتحت له قلبي ذات ليلة ..ولم اقفله بعد ذلك ..

■

الذئاب

السماء نائمة هذه الليلة، اغمضت كل عيونها، لم يبرق ضوء نجمة واحدة!

الشجرة التي آوي اليها عجوز قديمة، برزت اضلاعها كجثة رجل مات منذ ثلاثة اعوام، اثار حروق وطرقات فؤوس تملأ جذعها العتيق، وطلقات رصاص تناثرت آثرها كثقوب كثيرة في بدن الشجرة العجوز، لا شك ان فارساً قديماً احتمى وراءها يتقي طلقات الرصاص، وهو اليوم فارس جديد يأوي اليها ليتقي رصاص ليلة شتوية عاصفة باردة!

عثمان الغول، ليس غريباً عن الليالي العاصفة، فمنذ كان طفلاً يرعى الجديان ويرتدي القميص بلا عباءة وها يطارد العواصف يهزمها حيناً وتهزمه حيناً، والغول ليس اسمه ولد معه، أو اسماً جد له او اب، انما هو اسم اكتسبه اكتساباً كما يكتسب البطل لقباً او وساماً، فقد عاش حياته غولاً يخافه الناس، سرق ايام كان قانون الجوع يفرض عليه ان يسرق، وقتل عندما اضطرته مواقف وامور ان يكون قاتلاً، وعاش هارباً في جبال وشعاب وعرة لا تطأها اقدام انسان، حتى ايام جرائم الثأر لم يكن للقرية احد آخر تقدمه ليأخذ بثأرها غير عثمان الغول، وكثيراً ما انطلقت الزغاريد في الافراح لان الغول قد استرد للقرية شرفاً مسلوباً، فعثمان الغول كان قطعة صابون تغسل للقرية عارها، حتى في خصومات الحرث، والارض كانت الكلمة الاخيرة له، عندما كان الخصوم ينسحبون في خوف لتبقى الارض للغول واهل قريته يحرثونها، وبعد أن استتب الامن واختفت جرائم الثأر والنهب، كان الغول يكره ان يعيش حياة مستقرة في القرية، فكان يبحث عن شعبة من الشعاب يختار كهفاً من كهوفها يقيم فيه وحده، يقطع الاشجار ليصنع الفحم او يجمع جذور الحلفاء ثم يبيعها، كان دائماً كضبع عجوز يعيش بين الشعاب وحيداً، وظل اسمه دائماً الغول، وظل عندما يظهر على الناس بشاربه المفتول

الكثيف الاسود، وسحنته التي ربما كانت بيضاء او صفراء فحولتها السنون الطوال من الشمس والبرد الى سحنة قاسية ضاربة السمرة ..ظل دائماً مهاباً يبعث الرعشة في اصابع القدمين!

وعندما غادر القرية هذا المساء عائداً الى احدى شعابه، كان الجو يمتليء غيوماً وغباراً، ثم اظلمت الدنيا، واشتد عواء الريح، وتخفى البرد تحت جلد الليل وجاء متسللاً يعضه من انفه واذنيه ويخترق اهراء العباءة الى كل بدنه .. ورأى من الحكمة ان يأوي هذه الليلة الى هذا الجذع العتيق يتقي شر هذه الليلة الغاضبة، ويواصل سيره في الصباح.

جمع عثمان الغول باصابع مخشوشنة معصورة لم يعد يؤثر فيها البرد قليلاً من الاعواد والقش، اوقد ناراً، مد اصابعه، يتدفأ بلهيبها، ويراقب دخانها وهو يذوب في الظلمة .. حتى لكأن هذه الظلمة الكثيفة ما هي الا دخان تجمع وتكاثف وتحول ظلاماً!

وكانت العاصفة من حوله كأنها مليون ذئب تنبح وتعوي ..وناره وعباءته وجذع الشجرة التي اوى اليها. كلها تنهزم امام البرد الذي تحول الى مدراة تنغرز في لحمه، احس عثمان الغول بنفسه ابريقاً من الفخار مملوءاً بالصقيع وفوق رأسه كانت الغصون والاوراق يصفعها الريح فتتألم وتتأوه وتضج بالصراخ وتصر صريراً موحشاً رهيباً كحشود من البشر تسحقها براثن وحش خرافي.

اخرج من وعاء كان معه رغيفاً يابساً من الخبز ...قربه من موقد النار، ليسخن ويلين قليلاً ..وبدأ يجرب ان كانت اسنانه قادرة على المضغ.

وفجأة ..

ومن خلال الظلمة، برقت على ضوء اللهب عينان تقتربان نحوه، وتزحفان فوق الارض على مهل.

لم تكن عينين آدميتين، كانتا صغيرتين مشروطتين، يتوسط كل منهما بؤبؤاً أسود كحبة عقيق صغيرة.

وبدأ يتبين على ضوء اللهب ان هناك ايضاً راساً، وان هناك ايضاً اذنين ..وشيئاً فشيئاً ظهر امامه كل شيء، كان القادم ذئباً صغيراً، ذئباً رمادياً، امتزج لونه بلون الظلام، استرد اطمئنانه .. كان ذئباً طيباً وديعاً .. رأسه في الارض، وذيله بين قدميه!

ذئب صغير جائع، مزق البرد امعاءك اخرجك البرد، من جحرك لتبحث عن طعام .. لنتقاسم هذا الرغيف ايها الذئب الجائع الصغير.

اقعى الذئب قريباً من اللهب، مد رأسه، وأذنيه ..وظل باقياً!

رمى اليه بقطعة من الخبز، في هدوء ووقار مد اليها الذئب فمه، ابتلعها شاكراً ثم مد رأسه ينتظر لقمة أخرى !

كسرة ورمى باخرى اليه التقطها الذئب سريعاً، وظل ينتظر، ثم اخرى، الذئب يبتلعها في صمت، ثم يمد رأساً رمادياً، واذنين رماديتين ينعكس فيهما الوهج ينتظر لقمة اخرى، رمى اليه بكل ما تبقى من الرغيف، مضغه الذئب في هدوء .. ثم ظل باقياً في مكانه.

آن لك ان تذهب ايها الفأر الماكر، اطعمتك عشائي، فماذا تريد ايضاً ..اومأ عليه بطرف العباءة ..ثم حرك في وجهه العصا ..لم يتحرك الذئب.

تناول حصىً كانت بجانبه، رماه بالحصاة، اختلجت شعرات بدنه قليلاً وظل باقياً.

يا لك من ضيف سخيف ثقيل الدم.

أثار الذئب حنقه فانتقى من موقد النار شهاباً كبيراً، ورمى بالشهاب بين عينيه حتى احترق جبينه، انتفض الذئب في رعب، كشر عن أنيابه، ودمدم في غضب .. وخب هارباً وسط الظلام!

وتنهد في ارتياح ..لقد عرف كيف يطرد هذا الذئب الجائع السخيف ..واتكأ برأسه على جذع الشجرة، ومدد قدميه، وسوى اطراف عباءته من حوله، وقبل ان يسبل رموش عينيه لينام قليلاً سمعه ينطلق، كأنه القذيفة، عواء ذئب قريب، عواء طويل ممدود كالاستغاثة ..اعقبته فترة صمت ظن معها عثمان الغول ان الامر قد انتهى عند هذا الحد، وهم بان يعاود رقاده الا ان العواء عاد من جديد ..انطلق من كل الجهات، لم يكن عواء ذئب واحد ..انها عشرات الذئاب تعوي ..عواء جاء به الريح من بعيد ..واخر قريب دوى في اذنيه كطلقات الرصاص ..امتلأت الشعاب عواءً وعندما ارهف اذنيه ووصل اليه صوت اقدام الذئاب وهي تخب وتعدو في كل مكان انتفض عثمان الغول واقفاً، وانتصبت اذناه في خوف، وادرك كل شيء .. ان الذئاب تتآمر عليه.

لقد عوى الذئب الصغير مستغيثاً، فردت عليه ذئاب المنطقة وهرولت جميعها نحوه، انه يعرفها هذه الذئاب، لقد حدث مرة ان جمع عليه ذئب جائع كل ذئاب المنطقة، ايامها كان حمل السلاح مباحاً، اطلق من بندقيته سيلاً من الرصاص، هربت على اثره كل الذئاب، وهو اليوم اعزل من كل سلاح .. ما العمل لقد وقع في مصيدة الذئب، سوف تهرول نحوه بعد قليل عشرات من الذئاب الجائعة، سوف تغرز انيابها في بدنه، وتأكله لحماً وعضماً، والتفت شمالاً ويميناً، وبعاطفة يكتشفها لاول مرة ود لو رأى شبح كائن بشري، حتى لو رأى وميض ناره، من بعيد لكان هذا كافياً لان يجعله يطمئن ويواجه الامر بشجاعة، لكن لم يكن هناك سوى الظلام والعاصفة. بقعة مقطوعة عن كل الدنيا ..الليل يبني جدران سوداء حوله، وهو معزول، العالم افرغ من وعائه كل البشر. لم يبق سوى عثمان الغول وحده ..وعليه ان يواجه الذئاب الجائعة وحيداً.

تجمعت الذئاب .. وصل اليه وقع اقدامها تهرول قادمة نحوه من احدى الهضاب القريبة .. وبدافع شعور غريزي يرفض ان يستسلم للهزيمة منذ اول مرة، امسك بجذع الشجرة، وتسلقها في سرعة وعندما جاءت الذئاب رآها من فوق الشجرة تتشمم مكانه، وتحوم بموقد ناره، كانت ذئاب كثيرة،

اكثر من عشرة ذئاب، جاءت يقودها ذلك الذئب الرمادي الصغير الذى اطعمه رغيفه، لكنه لن يكتفي الا بلغى دمه ومضغ كبده ورئتيه.

وعندما اكتشفت الذئاب مكانه فوق الشجرة، تبادلت النظرات، وزمجرت بالعواء، وهجمت جميعها تحاول ان تتسلق الشجرة وتنشب اظافرها وانيابها في جذعها العجوز، وكانت العاصفة تتآمر ضده مع الذئاب فجمعت كل ما لديها من برد وريح هناك بين اعراف الشجرة، لتحوله عوداً يابساً من البرد. وكان كل همه الان ان يجد غصناً لا يهزه الريح يستطيع ان يثبت فوقه قدميه. وعندما ثبت قدميه ووجد ان الذئاب قد اكملت حصارها حوله، انتزع غصناً كي يمنع به الذئاب من الوصول اليه، كانت الذئاب قد قسمت العمل بينها، اتجه عدد منها يحفر الارض وينبش تحت عروق الشجرة كي يقتلعها من عروقها بعد ان فشل في تسلقها في حين ظلت الذئاب الاخرى تنتصب على اقدامها الخلفية وتمد براثنها الامامية وتنشب اظافرها وتجدف عبر جذع الشجرة، وكان عواؤها يختلط برعد العاصفة ورياحها وضجيج اوراق الشجرة فيهبط قلب عثمان الغول الى قدميه ويملأ الوهن ركبتيه وتلهث انفاسه وتتهدج كالمخنوق ويحس انه قبل غمضة عين سوف يسقط من فوق الشجرة الى انياب الذئاب. وظل يومىء بغصنه شمالاً ويمينا ومن امامه ومن خلفه، والذئاب تقفز حتى تكاد تصله، وتمنى لو كانت الشجرة اكثر طولاً. وحاول ان يجرب غصناً اكثر علواً يثبت فوقه قدمه .. لكن الغصن تكسر تحت ثقله .. وزلت قدمه حتى كادت تسقط في فم ذئب كان يجهد في التسلق نحوه، واهتاج الذئب، وفتح انيابه وقفز في الهواء، الا انه وبقوة لا يدري كيف واتته رفع قدمه قبل ان تصلها انياب الذئب، واهتز قلبه رعباً عندما اضاءت الدنيا ومضة برق، ولمعت مع تلك الومضة عيون الذئاب من حوله رآى عشرات العيون تحوطه من كل جانب عيون شرسة جائعة تفتح افواهها، ورأته الذئاب واضحاً على ضوء البرق، فاطلقت عواءاً شرساً رن في جوف الليل رنيناً رهيباً، وتردد صداه في كل الوهاد. فبدى كأن الكون كله يمتليء ذئاباً. ولم يكن البرد الذي جمد امعاء عثمان الغول وورم انفه واذنيه وشفتيه وجعل بدنه غصن من اغصان تلك الشجرة يصطفق ويرتعد، لم يكن هذا البرد الا شيئاً هيناً بجوار تلك العيون الجائعة التي لمعت في الومض .. والتي بدت لعثمان الغول كأنها عيون ابالسة ومردة خرجت له من تحت غطاء الليل لتمسخه وتمزق بدنه. وما تنبه عثمان الغول الا وفماً مفتوحاً برزت انيابه كالمسامير على مقربة منه ورأى ذئباً ضخما قد ارتفع عن الارض وغرز براثنه في اعلى الجذع ومد عنقه كي يصل اليه بأنيابه ويجره من قدمه. وازداد العالم ضيقاً امام عثمان الغول، الغصن الذي كان يدافع به كان قد سقط، والشجرة لم تعد فيها اغصان اعلى يثبت فوقها قدميه، وانياب الذئب تقترب من قدمه، وبجسارة ومخاطرة لم يدر كيف جاءته رفع قدمه وهوى بها فوق رأس الذئب حتى ان الذئب ارتطم بالارض وهو يعوي عواء رهيباً، ثم جرى مبتعدا عن الشجرة، وولى مزمجراً غاضباً وقفز في الهواء قفزة شيطانية، لو ان الغول لم يرتم محتمياً بأحد الاعراف لكانت براثن الذئب قد جرته الى الارض.

وبدا لعثمان الغول ان الليل هو ايضاً يتآمر عليه فقد احس به يطول ويتمدد ويتحول الى دهور، الى عمر طويل لا نهاية له، وفيما كان ينتزع من اعماق الشجرة عوداً آخراً يرد به هجمات الذئاب على

احدى الجهات، لم ينتبه الا وشيئاً يمسك به فجأة من وراء ظهره ويسحبه في قوة الى اسفل، وكاد يسقط الى الارض رعباً، فقد ايقن ان ذئباً قد وصل اليه من الخلف، واطلق عثمان الغول ضرخة يائسة تردد صداها عبر الاركان الاربع، وتشنجت يداه فوق اقرب غصن، وعندما استدار لم يجده ذئباً قد نبت في ظهره وانما وجد طرف عباءته يتدلى مع جذع الشجرة وقد امسكته الذئاب بانيابها واظافرها لتجره الى الارض، وكادت تفلح في اسقاطه، لولا انه التف في سرعة وسلخ العباءة، رماها للذئاب تمزقها، وبقي يواجه هجوم البرد في اعلى الشجرة بلا عباءة، عارياً سوى قميص يغطي جلده. واحس بالبرد كما لم يحس به من قبل احس به يجلده بمليون سوط في ظهره واضلاعه ووجهه وعنقه وساقيه .. وعاودت الذئاب هجومها بعد ان لهت قليلاً في تمزيق العباءة ..وعاود البرق وميضه، وعاودت العيون، عشرات العيون الملتهبة الجائعة لمعانها من حوله. وازداد رعبه رعباً عندما القى نظرة الى أسفل فوجد ان الذئاب قد أفلحت في أن تشق خنادق اسفل الشجرة التي كانت تضرب في الارض قد تعرت بعد ان حفرتها الذئاب، وعدد من الذئاب رآه يواصل الحفر بامتداد العروق حتى يستلها من منابتها. عندها .. ايقن عثمان الغول ان الامر قد انتهى، وان الذئاب التي لم تفلح بعد في الوصول اليه فوق الشجرة سوف تقلب الشجرة بعد قليل .. لا مفر .. وفكر عثمان الغول في كل هجماته وجرائمه. فكر في كل معاركه وخصوماته ما كان افضل له لو كان هو القتيل من ان يكون قاتلاً، ما كان افضل لو اخترقت رصاصة رأسه من ان يسقط الان بين انياب الذئاب تلتذ باكله ظفراً ظفراً وقطعة قطعة .. ام هل تراه لم ينج من كل تلك الاهوال والمعارك الا لكي يكون وجبة شهية على مائدة هذه الذئاب الجائعة .. ثم هذا البرد اللعين الذي صار ينفذ من خلال جلده الى كبده وفؤاده وأمعائه يمضغها ويسحقها .. وبدا عثمان الغول خائراً واهناً في مواجهة الذئاب ..مستسلماً كخروف العيد.

وبدون ان يحس وجد ان الظلام يتبدد وان نكهة الصباح تنتشر فوق اعراف الشجرة وان الطيور قد استيقظت وملأت الدنيا تغريداً، وان الندى صار يتلألأ فوق اوراق الشجرة الخضراء ناعماً رطيباً .. والذئاب بدت تتسلل الواحد بعد الاخر .. لم يبق منها سوى التي تواصل الحفر تحت العروق .. ثم هي ايضاً مع ذهاب كل اثر لليل صارت تترك الحفر وتخب هاربة، وكان اخر ذئب تسلل هارباً، ذلك الذئب الرمادي الصغير الذي اطعمه رغيفه فجمع عليه الذئاب.

واشرقت الشمس .. ونزل عثمان الغول الى الارض في اعياء ووهن .. ومسح المكان بنظرة متعبة .. كان كل شيء يدل على ان معركة ضارية شهدها الليل الذي تسلل هاربا مع الذئاب. كان جذع الشجرة قد تقشر وتقلم كله .. صار الجذع القديم الكثير الاضلاع الذي يمتلىء حروقاً وآثار فؤوس ورصاص. صار الان مسلوخ ابيض كشاه الضحية. الاغصان التي تهشمت تملأ الارض واسفل الشجرة قد تحول الى خنادق يتراكم ترابها كقبور الرجال الطوال .. والعروق التي كانت مدفونة في الارض تمتد حتى مسافات طويلة عارية لا يغطيها شيء .. وخرق كثيرة تناثرت عرف فيها عباءته التي مزقتها الذئاب .. وكان عثمان الغول يقف يابساً معروقاً اصفر كشجرة جفت عروقها ... كانت الاغصان التي تسلقها واحتمى بها قد ملأت ذراعيه ويديه ووجهه خدوشاً وجروحاً، أما الذئاب التي

حاصرته طول الليل فانها لم تستطع ان تمسه بشيء. ان ظفراً من اظفارها او ناباً من انيابها لم يصل اليه .. ومع ذلك كان عثمان الغول وهو يخب في قميصه الممزق راجعاً الى القرية، وهو يلتفت شمالاً ويميناً كلما تكسرت تحت قدميه عشية يابسة فارتعشت اصابعه وارتعش شنبه، كان عثمان الغول يحس خلال ذلك كله انه ليس حقاً قد نجا من الذئاب .. ان شيئاً كبيراً قد فقده البارحة، شيئاً كبيراً فيه قد اكلته الذئاب!

■

الطاحونة

تيك تاك .. تيك تاك .. تيك تاك.

... وترتفع دقات الطاحونة في جو البلدة الهاديء الرزين في ايقاع سريع ومنتظم ورتيب كدقات قلب الانسان عندما يكون سليماً، معافى البدن والروح والحواس الخمس.

والطاحونة لا تذوق طعم الراحة الا عندما يأتي الليل بسواده واحزانه وكلابه الضالة، ساعتها فقط، يصمت قلبها عن الخفقان وتكف رحاها عن الدوران وتهدأ عضلاتها الحديدية عن الحركة، وتستغرقها نومة طويلة عميقة كأحلى ما يكون النوم. اما النهار بصباحه وظهيرته ومسائه فهي ابداً تهدر تلوك حبوب الشعير والحنطة، وتنفث دخانها الاسود في سماء البلده كأنه رياح الغضب، ربما هو غضب على هؤلاء الناس الذين يكدسون في كل لحظة الحمول والزكائب الكثيرة المنفوخة المليئة بالحبوب، وكلهم يدقون الارض بعصيهم واقدامهم ويصرون اصراراً رهيباً على ان يكون طحينهم جاهزاً في نفس النهار.

ـ تيك تاك .. تيك تاك .. تيك تاك

طول النهار وهي تتهدج ..

تحول الشعير الى دقيق ناعم ناعم ..

وصمت البلدة الى ضجة رتيبة ..

والتعب الى حبات عرق لزجة تنبثق على جبين عبد المولى وعلى عنقه وذراعيه. وتبتدع لها انهاراً وسط غابة الشعر على صدره، مختلطة بذرات غبار الدقيق المتطاير في جو الطاحونة، والتي يكون خاتمة

طافها دائماً هيكل عبد المولى لتستقر فوقه.

والناس في البلدة يتشربون كل نهار تكتكات الطاحونة، طبلات آذانهم تعودت ان تستقبل نداءاتها وثرثراتها اليومية التي تبدأ مع شروق الشمس وتنتهي مع غروبها. وعندما يحدث وتتعطل الطاحونة اثناء النهار فإن كل كبير وصغير، وكل رجل وامرأة في البلدة لا بد وان يفتقد صوت الطاحونة. ليس هذا فقط بل ويشعرون جميعاً ان شيئاً ما ينقصهم ويظل هذا الشعور يلازمهم لا يفارقهم الا عندما يعود الى الطاحونة نبضها وتسترجع دقاتها التي كثيراً ما احس بها هؤلاء الناس كأنها لغة سرية وغير مفهومة تحكي بها هذه الطاحونة قصة ابدية، سرمدية، لا احد يدري متى بدأت ولا متى تنتهي، ولا ما هو معناها، ولكنها قصة يتعاطفون بقلوبهم معها، ويرتاحون اليها وهم يسمعونها كل صباح.

ـ تيك تاك .. تيك تاك.

وتتعالى الدقات الرتيبة، تعلن عن مكان الطاحونة الواقع ما بين العشرة متاجر الصغيرة، التي تشكل كل ثروة البلدة القومية من حوانيت. ومن حولها كانت ترتفع الحيطان القصيرة لمنازل القرية وهي عادة ما يكون البعض منها متصدعاً، او منبعجاً، ذات لون اصفر، هذا اذا كانت مبنية بالطين. اما اذا كان اصحاب البيت من الاكابر وكان البيت مبنياً بالجبس والياجور والاسمنت ولونه ابيض ..فهذا عادة ما يكون بياضه قد استحال الى سواد كريه في لون الغربان، ذلك لان اطفال البلدة يعتبرون الجدار الابيض، كنزاً اكتشفوه من حقهم ان يتصرفوا فيه على الوجه الذي يريدونه، فيمسكون قطع الفحم بين اصابعهم، ومن ثم يحيلون الجدار الى تجارب في الرسم والخط والانشاء.

وكثيراً ما تكون هذه الجدران بمثابة الجرنال في البلدة، فاي حدث مهم جرت وقائعه بالبلدة تجده في نفس اليوم مسطراً بالبنط الاسود العريض في صدارة الجدار حتى القصائد التي يقولها معتوق بن سعدالله مفلسفاً بها الاحداث او ساخراً من رؤساء الدول والحكومات كقصيدته التي سخر فيها من انف ديجول وصلعة خروتشوف، والاخرى التي تدور في فلك الاحداث المحلية، كلها قد تجدها قد سجلت في نفس اليوم على صفحة الجدار، ليس هذا فقط بل واحياناً تجري على هذه الجدران مطارحات ومساجلات حامية الوطيس كأن يكتب احد الاطفال بخط طفولي سباً بذيئاً يوجهه الى احد الاطفال. ويأتي الاخر فيمسح السطور المكتوبة ومن ثم يلتصق بهيكله الصغير على الجدار حتى يتسخ جلبابه بالفحم وينهمك في رسم الحروف والكلمات حتى اذا ما اتى الطفل الآخر وجد في انتظاره طبخة طازجة مما لذ وطاب من اصناف الشتائم والسبائب. فهي صحيفة متكاملة لا تختلف عن اي صحيفة في العالم. لها شعراؤها وكتابها ونقادها الكبار.

ومن وراء هذه المباني تمتد السواني بشجيراتها ومزروعاتها الجافة ..

ونخيلات تغرس رؤوسها في الافق كأنها تستنجد بالسماء ..

ومنازل بعيدة، متفرقة .. تبدو من بعيد وكأنها تاهت عن البلدة.

وعندما يتعالى تهدج الطاحونة من وسط البلدة .. تكتاك تيكتاك .. تيكتاك تيكتاك تيكتاك. تبدو تماماً كأنها قلب هذه البلدة النابض..

بل هي بالفعل قلب البلدة النابض فكل حركة تكاد تكون هي مصدرها فمن قوافل الناس الذين يأتون بشعيرهم وقمحهم ومونة عيالهم في اشوالات وزكائب على ظهورهم، الى قوافل الجمال التي كانت النهار وما طوله وهي تقوم وتقعد في الوسعاية التي امام الطاحونة، تبرك لتضع حمولها من طعام وشعير ..ثم تعود لتحمل نفس الحمول وقد تحولت الى دقيق ناعم ..

ـ تيك تاك .. تيك تاك .. تيك تاك ..

والطاحونة قد تتعطل لمدة ساعة او ساعتين اثناء النهار لعطب حدث في اجهزتها سرعان ما يصلحه عبد المولى، او لغيره من الاسباب البسيطة فهذا شيء عادي الى حد ما. اما اذا تعطلت النهار بطوله، فهذا غالباً ما يعني ان شيئاً خطيراً هاماً قد حدث وهذا النوع من التعطل لم تتشرف الطاحونة ـ خلال تاريخها الطويل ـ باستقباله سوى ثلاث مرات. والناس في البلدة يحفظون عن ظهر قلب هذه المرات التي حدثت فيها عملية التعطل الغريبة. ليس هذا فقط بل ويذهبون الى اكثر من ذلك بأن يجعلوا من هذا اليوم التي تعطلت فيه الطاحونة علامة زمنية بارزة يستدلون بها على الأحداث التي وقعت في تلك الفترة، كأن يسأل أحدهم الا؟خر سؤالاً من تلك الاسئلة التي تتراقص عادة على شفاه اهل البلدة مثل سوأله عن بقرته متى ولدت عجلها؟ فسيجيبه على الفور معيناً له يوم ميلاد العجل بتعطيل الطاحونة كأن يقول: ولدته بعد يومين من تعطيلة الطاحونة الثانية.

ويذهب السائل وقد تشبعت كل خلية فيه بالفهم والاقتناع التام .. فمن لا يعرف الوقت الذي استقبلت فيه الطاحونة تعطيلتها رقم اثنين.

في الثلاثة نهارات التي تعطلت فيها الطاحونة كانت الاسباب وجيهة وهامة، فقد تعطلت المرة الأولى لأن والد عبد المولى .. العجوز .. سئم قعدته الباردة في احدى زوايا البيت فآثر السفر الى السماء، وغادر هذه الدار منتقلاً الى جوار ربه.

والمرة الثالثة عندما اتفقت البلدة على القيام باضراب شامل، وقفل اصحاب الحوانيت حوانيتهم، وعطل عبد المولى طاحونته عن العمل، وذهبوا يومها عبر الشوارع يهزون ايديهم ويضربون بخطواتهم في غضب وهتافاتهم تتصاعد في صوت عريض اجش صاخب، ينادون بموت الاستعمار وتحرير الجزائر .. فقد كان الاضراب من اجل الثورة الجزائرية.

والمرة الثلثة كانت عندما استبدل عبد المولى للطاحونة رحى جديدة بدلاً من رحاها القديمة التي هرمت وتآكلت وبادت ولم تعد تطحن ناعماً، مما جعل كل الناس في البلدة يتذمرون من اجلها، ويهددون عبد المولى بأنهم سوف يقاطعونه اذا لم يجدد رحى طاحونته ويعودون الى الطحن على الرحى الحجرية القديمة، وكانت الانذارات شديدة اللهجة بحيث لم تترك لعبد المولى فرصة التلكؤ أو المماطلة، فسرعان

ما جلب رحى جديدة اوصى عليها من المدينة، وتعطلت الطاحونة نهاراً كاملاً لهذا السبب، ولا تزال الرحى القديمة بكلتا ضلعتيها مرمية امام الطاحونة، وكثيراً ما انتهز الاطفال فرصة انشغال عبد المولى واتوا يتراقصون ويلعبون عليها. هذه كانت اسباب التعطيلات الثلاث .. وعبد المولى صاحب الطاحونة لا هو بالسمين ولا النحيف، ولا بالعجوز ولا الشاب، ولا هو بالقصير ولا الطويل .. فهو متوسط في كل شيء، شنبه طويل، ووسطه محاط دائماً بحزام من الكتان الابيض يلفه حوله عشرات اللفات حتى يظل بارزاً بثناياه الكثيرة.

وعلى ذراع عبد المولى تتزاحم حيتان ونجوم وعصافير وغزلان وبنت رموشها كحيلة وحواجبها(تقول هللة) مع خطوط اخرى كلها من الوشم الأخضر .. الداكن الاخضرار .. وربما السبب في كثرة هذا الوشم ان امه كانت صنعتها «وشامة» فلم تجد كذراع ابنها تجعل منه حقل تجارب لآخر ما تفتقت به قريحتها الزاخرة من موديلات جديدة في عالم الوشم.

ــ تيك تاك ... تيك تاك .. تيك تاك ..

وعبد المولى لا يفارق ابداً طاحونته. انه يشغلها .. ويبقى جنبها، يشبع مسامعه بتكتكتها .. ويخلط عرقه بغبار دقيقها .. ويستنشق بانفاسه الرائحة الطيبة التي تعمر الطاحونة رائحة الحنطة وهي تتحول الى دقيق سوف بلا شك يذهب الى العجن والفرن ويصبح خبزاً يأكله الناس، ويبتلع مع ريقه النكهة الخاصة التي يشعر بها للطاحونة، والتي كثيراً ما احس بها تقف ببلعومه فيسعل ويسعل. ودائماً في يده عصاً طويلة يضرب بها جنبات الطاحونة حتى لا تظل الحبوب عالقة في حديدها من الداخل، وكثيراً ما تفلسف عبد المولى بهذه المناسبة قائلاً لمن حوله رافعاً عقيرته حتى يعلو بصوته على هدير الطاحونة ليسمع الناس كلماته:

ــ اليوم كل شيء في الدنيا ما يمشيش الا بالعصا.
ــ تيك تاك
ــ علاش؟ على خاطر الدنيا هادى دنيا غدارة.
ــ تيك تاك .. تيك تاك ..
ــ دنيا ــ حاشاكم ــ بنت حمار.
ــ تيك تاك .. تيك تاك ..
ــ ما تمشيش وما يعتدلوش خطاويها وما تعرفش الطريق الا بالعصا.
ــ تيك تاك .. تيك تاك .. تيك تاك ..

وينهى عبد المولى كلامه دائماً ببصقة كبيرة على الدنيا وهتاف يصاحبه سعال بتحيا العصا.

وعبد المولى لا يهدأ .. طيلة ما رحى الطاحونة تدور وهو يتحرك ويلف ويدور .. كأنه مشدود بخيوط

خفيفة وغير مرئية الى رحاها التي تدور .. وتدور .. وتغرقه معها في الدوران.

فهو يذهب ليزن ما يأتي من حبوب ويضع خيشة او سلة فارغة في الفتحة التي تشبه الميزاب والتي يتسرب من خلالها الطحين القادم من بين فكي الرحى، ويدخل الى الحجرة الداخلية التي بها اجهزة الآلة يتلمسها ويطمئن عليها.. ويأمر ابنه سعيد (وهو ابنه البكر، وعمره ١٩ عاماً، ويتعاون مع والده في عمل الطاحونة) يأمره في ان يصب في صندوق الطاحونة هذه الخيشة او تلك .. وهذه مسألة لا تخضع للسابقين باحضار حبوبهم .. ولكنها تخضع لقانون يبدأ بسؤال ..

من هو صاحب هذه الخيشة؟ فالأولية محجوزة دائماً للضابط والمتصرف والشيخ، ثم الامام، وبعد ذلك يأتي دور القرايب والنسايب والجيران، وفي الآخر فقط يأتي دور الآخرين.

وكثيراً ما كان عبد المولى هدفاً لموجات من الحسد تأتي راكضة اليه من طرف بعض اهل البلدة الذين يتحرقون غيظاً، لأن عبد المولى سبقهم من زمان بهذا المشروع الذي لا بد انه يدر عليه الكثير من المكاسب والأرباح، وهذه الموجات على عنف تيارها حيناً، أو انحسارها أحياناً اخرى، على مدها وجزرها، لا تضايق ابداً عبد المولى بل تزيده زهواً هو زهو كا انسان يحس في أعماقه بأنه يحقق نصراً مهما كان نوع هذا النصر.

واليوم، في الصباح، سمع الناس الطاحونة تدمدم بعدة دقات متتابعة رهيبة .. ثم فجأة تصمت .. ما الذي اخرس الطاحونة؟ .. لا بد ان شيئاً ما عطل الطاحونة عن مواصلة هديرها وسرد حكايتها اليومية .. وانتظر بعضهم ربما تعود الدقات، وبعضهم رأى .. اختصاراً للموقف ان يذهب بنفسه ليستكشف جلية ما حدث.

وهكذا فقد هرول الكثيرون الى مكان الطاحونة، وكان كل من يصل هناك يجد اصحاب الدكاكين الذين بجوار الطاحونة، يحيطون بعبد المولى يلفون له ذراعه الذي كان ينبجس منه الدم بخرق يمزقوانها ــ في اغلب الاحيان ــ من قمصانهم، الا ان الدم كان يتدفق بغزارة كان يحيل الخرق البيضاء الى حمراء ويمزقون قطعاً أخرى من القماش الا انها كانت في لحظة ما تصبح وكأنها مغموسة في بركة من الدماء .. وتقدم الكثيرون يسدون فوهة الجرح بأيديهم الا ان الدم كان يصبغ الايدي بلونه ويتسرب من خلال الاصابع ساقطاً على الارض وربطوا له ذراعه من اعلى الجرح ولم ينفع .. وكان احد الماسكين بعبد المولى يصيح في الواقفين بأن يذهبوا ويحضروا الممرض الذي لا بد انه الان غارق في لعب الورق مع سليمان في قهوة البلدة الوحيدة .. ومضى آخرون يسألون عبد المولى عن كيف ضربه «الماطور» حتى احدث هذا الجرح الكبير، وكان هو يقول لهم ووجهه يابس معصور متخشرف .. كليمونة معصورة ملقاة في الشمي منذ خمسة ايام.

ــ الفرارة الصغيرة .. هي التي ضربت ذراعي .. وو

وفهموا من كلامه ان المروحة السريعة الدوران، التي تشكل جزءاً من اجهزة ومفاتيح الطاحونة التي تحتويها الحجرة الداخلية الصغيرة. هذه المروحة اشتبكت مع قميصه وكان يهم بتخليص القميص .. عندما وجد المروحة تضرب ذراعه .. فأسكت الطاحونة وخرج يكفف هذا الجرح الذي لا يكف.

وكان الشريان المقطوع يواصل عملية النزيف .. وكل ما حدث عندما حملوه الى المستوصف ان الممرض التخين بذل مساعيه لايقاف الدم .. الا ان الدم كان قد توقف من تلقاء نفسه فقد استنفدت شرايين عبد المولى ما كان فيها من دماء حارة .. واحتار الممرض التخين ماذا يعمل، وكل ما استطاع عمله، ان بعث ببرقية عاجلة الى المدينة يستنجد بسيارة الاسعاف لتنقل المصاب الى مستشفيات المدينة ليحقنوه على الاقل بدماء جديدة .. ولأن المدينة بعيدة .. مرت ساعة .. وساعتان .. وثلاث .. والسيارة لم تأت، ووجه عبد المولى مع مرور الدقائق يزداد شحوباً وامتقاعاً ثم غدت سحنته تماماً كالتراب .. ثم بدات عيناه تفقدان حيويتهما، والقهما، وصارتا كعيون من خزف، ولم يعودا ينقلان لعبد المولى المرئيات كما كان يراها واضحة جلية بل كل شيء امامه اصبح لا يراه الا مهزوزاً مرتجاً مختلطاً ببعضه البعض حتى الاصوات كانت تتداغم في اذنيه وكأن الناس من حوله يتكلمون بلغة غير مفهومة .. تماماً .. تماماً كلغة طاحونته الغير مفهومة التي شعر بها دائماً كأنها نذير بوقوع شيء في ضمير الغيب ها هو يقع اليوم.

وتتقلب الاشياء امام عيني عبد المولى ثم تأخذ في اللف والدوران تماماً كالمروحة السريعة الدوران التي ضربت ذراعه، محدثة دوامة صغيرة .. ثم شعر كأن هذه الدوامة تبتلع قدميه وتأخذ فى الزحف على هيكله وأطرافه .. وتصل حتى أنفاسه .. وقال أشهد .. أشهد.. ولم يكملها فقد اهتز للحظة ثم مال رأسه على كتفه، وهمد فجأة لافظاً آخر انفاسه.

وكان وجه عبد المولى في لون التراب .. ويداه المسبلتان بجانبه في لون التراب وكل ما في الجسد المسجى الذي سيوارى بعد حين في التراب، كان في لون التراب .. لا بد أنه حنين التراب .. الى التراب.

واصيب الناس بذهول .. لم يكن احد ليصدق ان عبد المولى ممكن ان يموت بهذه السرعة وبهذه البساطة وبهذا الجرح التافه فى الساعد الايمن. وعندما افاقوا من ذهولهم انفجروا جميعاً يبكون.

وفي لوعة وحرقة صرخ سعيد وانكفأ على جسد والده الذي باغته الموت فمزق انفاسه بهذه السرعة العجيبة، التي دونها سرعة دقات الطاحونة عندما تنطلق في الصباح الباكر تمزق هدوء البلدة. وتجمع النساء في بيت عبد المولى يلطمن وجوههن ويشددن بشعورهن ويأخذن بعضهن بالأحضان (وظاهرة الاحضان تدل على تقصير شنيع في النفس البشرية التي لا تجد سوى الاحضان تعبر بها عن حزنها في يوم الحزن وتعبر عن فرحتها في لحظات الغبطة والافراح).

وصلى الناس على جثمان عبد المولى وحفرا له قبراً واهالوا عليه التراب .. ثم قرأ الشيخ يونس بصوته

المطوط الاخنف سورة يس والقرآن الحكيم .. على قبر الفقيد، ورجعوا بعد ان رشوا فوق تربة القبر والقبور التي جنبه قليلاً من الماء ..

وكان اكثر ما يهم الناس في البلدة الان هو الامر الذي ستؤول اليه الطاحونة، وذهب الكثيرون الى ان سعيد سوف يبيع الطاحونة الى احد سراة البلدة.

وبعضهم يقول ان سعيد سوف يبقيها ويرجعها الى طرابلس فهو لن يستطيع بيعها هنا، لأنه لا يمكن لاي احد في البلدة ان يشتري الطاحونة التي رآها تقتل صاحبها.

وآخرون يذهبون الى انه سوف يبقيها علي ما هي عليه فقط. سوف يقفل عليها الدكان، لتبقى محبوسة. تماماً كما اعتدنا ان نحبس ذكرياتنا الاليمة. وسيبحث له عن مهنة عامل صوندا بإحدى الشركات.

كانوا مختلفين فيما سيؤول اليه مصير الطاحونة .. الا ان الشيء الوحيد الذي كانوا متفقين عليه هو ان سعيد لن يعود لمزاولة العمل بالطاحونة التي ارتكبت جريمة قتل والده مع سبق الاصرار والترصد.

ورغم تأثر جميع من في البلدة بموتة عبد المولى، الا ان تأثرهم واشغالهم الاكبر كان من الطاحونة التي ربما لا تعود الى الدقات مرة اخرى.

وكانت النساء هن الاكثر تأثراً لامر الطاحونة .. ذلك لان الود الذي تحمله نساء البلدة للطاحونة ود قديم .. يبتديء منذ اليوم الاول الذي اشترى فيه عبد المولى الطاحونة .. حيث كن في ذلك الوقت لا يعرفن سوى الرحى الحجرية الصغيرة التى يستعملنها في البيت .. حيث كانت الواحدة منهن تقوم في منتصف الليل الى الرحى، فتضع تحتها رقعة الجلد كى يتساقط عليها الدقيق ساعة الطحن وتضع بجانبها طبق مليء بالحنطة أو الشعير .. وتجلس وقد مدت ساقها وانحنت على الرحى تديرها بيد وباليد الاخرى تلتقط الحفنات الصغيرة من الحبوب وترمى بها في قلب الرحى، وعندما تتعب يدها التي تدير الرحى تبدلها باليد الاخرى، وتظل تغني لتبدد وحشة الليل، وتحوش عن عينيها النعاس .. تغنى عن اسطورة حب قديم، او اغنية تمجد المعركة التي انتصرت فيها القرية على اعدائها في زمان بعيد .. او باغنية عصرية تتهجم على صنف الرجال.. كن الرجال وما ان يأتى الصباح حتى تكون قد اكملت طحن ذينك الصاعين او الثلاثة من الحبوب

وعندما اصبحت في البلدة طاحونة كان من الصعب ان يصدقن بأن هناك «ماكينة» تطحن اشوال شعير في ساعة واحدة من الزمن وكانت عبارة

«يا ربي ؟ .. شن هالسحر يا مولاي ؟»

مثل هذه العبارة كانت كل واحدة منهن تظل ترددها كلما بعثت بشيء من الحبوب ورجع اليها مطحوناً .. فتأخذ تقلبه .. وتجرب مدى نعومته بين اصابعها .. وعندما تجد انه مطحون كأحسن ما يكون الطحين لا تجد سوى هذه الكلمة معبرة بها عن اندهاشها وربما عن غبطتها ايضاً.

وبقدر استغرابهن منها بقدر اعجابهن في نظر كل نساء القرية المعجزة التي استطاعت ان تنقذهن من السهر والتعب والشقاء .. وتحويش النعاس باغنية ركيكة، وعاش هذا الود يحملنه في قلوبهن للطاحونة حتى بعد ان اصبحت عادية ومألوفة وطبيعية.

واليوم كان طبيعياً والطاحونة تتعرض لهذه الازمة التي قد لا تعود بعدها للدقان ان يكون تأثر النساء في البلدة اكثر من الرجال.

وفي حين قضى اطفال البلدة اليوم الاول بعد وفاة عبد المولى يسطرون على الجدران البيضاء المرثية الطويلة التي قالها معتوق ابن سعد الله شاعر البلدة الأوحد في المرحوم عبد المولى معدداً أفضاله ومناقبه وخدماته التي قدمها للبلدة عندما اقام بها طاحونة باهت بها بلدتهم كل البلدان.

فإن الرجال الكبار قضوا هذا اليوم في التكهن بموقف سعيد حيال الطاحونة.

ربما كان بامكانهم ان يسألوه ماذا سيعمل بالطاحونة بعد موت والده .. الا انهم آثروا ان يحترموا حالته النفسية وان يترقبوا الاحداث حسب تسلسلها المنطقي دون محاولة احراج سعيد بالسؤال .. وفي صباح اليوم التالي .. والناس ما زال بعضهم لم يشرب «الطاسة» الاولى من شاي الصباح .. فوجئوا بدقات الطاحونة تمزق هدوء البلدة، متدفقة في حزم وشدة وقوة .. كأنها تقول لهم بلغتها المجهولة المتدافعة ـ صباح الخير.

وكان اول ما فكر فيه الناس هو ان سعيد باع طاحونته لاحدهم .. ولكن من هذا ـ الاحدهم ـ الذي ارتضى لنفسه ان يشتري طاحونة قاتلة ؟؟

وكان هذا السؤال هو الذي جعل بعضهم ينزل كوب الشاي من فمه قبل ان يكمل الرشفات السعيدة .. .ويهرول الى الطاحونة .. ومنهم من خرج والطاسة في يده وكسرة الخبز لا تزال بين اصابعه ويسأل بفمه المحشو بالخبز ـ اشكون هو .. .اشكون هو اللى شرى الطاحونة؟

وكان آخر ما كان يصدقه الناس في البلدة، هو ان يجدوا سعيداً يتولى العمل في الطاحونة مكان والده .. وهذا ما حدث .. فكل من ذهب الى الطاحونة وجد سعيداً يلف الحزام ـ بثناياه الكثيرة ـ على وسطه .. وماسكاً بالعصى في يده وقد اخذ مكان ـ المرحوم ـ في الطاحونة.

كانوا يقفون كالتماثيل يفركون اعينهم وينظرون الى بعضهم في اندهاش وعد تصديق .. بل منهم من لم يقوى على النظر فولىّ يجري يجري وهو يصيح في وجه كل من يقابله.

ـــ سعيد .. سعيد .. سعيد .. خدى مكان والده في الطاحونة.حتى الاطفال ادركوا سر الحكاية .. فهرولوا الى امهاتهم يبلغونهن عن الخبر.

وكانت الطاحونة تنفث دخانها الى اعلى وكأنها تريد ان يلحق بروح عبد المولى في السماء .. وكان

صوتها يعلو على كل همهمة استغراب وكل آهة تعجب او دهشة، تيك تاك .. تيك تاك .. تيك تاك.

كان ايقاعها يدمدم .. وقد بدى تماماً في هذه المرة كأنه وقع اقدام قطعان من الخيول تضرب – في سرعة وقوة واصرار – عبر طرق خفية مجهولة.

■

القمر الأحمر

أبطأ القمر هذه الليلة ..

وعندما ظهر من وراء الهضاب وكثبان المال البعيدة، كان وجهه جميلاً، داكن الحمرة كامل الاستدارة، وغمر ضوءه الوادي والهضاب ورؤوس الاشجار .. وبدى الكون في عيند «منصور» فاتناً جميلاً .. وماست تحت عيني منصور روءوس الاعشاب الخضراء التي صار لونها الآن اصفر كسنابل الحنطة، واهتزت بجوار احدى قدميه زهرة ابو قرعون صغيرة .. وتحول الحصى الذي في الوادي الى جواهر تتوهج وتتألق .. ورغم ان منصور رجل ناضج في العشرين من عمره فقد احس الان انه يعود طفلاً صغيراً، أخذ يحجل بقدمه اليسرى .. ثم قفز في الهواء قفزات كثيرة وسريعة، ثم هش على الشياه بالعصا حتى ان جدياً صغيراً فر هارباً مبتعداً عن بقية القطيع .. التفت منصور شمالاً ويميناً .. الى القمر الاحمر .. الى النجوم التي تلمع كأنها عيون السماء .. الى جواهر الحصا، والعشب الذي يركض مع النسيم، والى الشاه التي تركت الأكل واخذت تنظر باندهاش وقد تصلبت اذنيها الى القمر .. صفر منصور .. صغيراً طويلاً وسعيداً عندما رأى هذا كله، وتذكر «هند» وتذكر وقفتها هذا الصباح على البئر عندما حياها فردت عليه برقة وحب ـ صباح الخير يامنصور..

وأحس منصور حقاً بالسعادة تملأ قلبه، وراحة كبيرة يشيعها في نفسه السكون الهادىء الجميل الذي يملأ من حوله الارض والسماء .. احس منصور جمال كل هذه وجلاله .. فقرر ان يغني. واهتز معه السكون، وفتحت الهضاب البعيدة افواهاً غير مرئية تردد معه الغناء، وتحول الوادي الى كائن حي يرقص ويغني ..

آه .. يا قمر

لونك حمر
انزل لها لوادي الخضر ..
اشعل لهند النار
نور لسعد الدار
واحلب شياه عمار
واشرب لبن .. هز النخل .. كول التمر
آه .. يا قمر
لونك حمر
انزل.

انطلق منصور يغني .. وما كان منصور ليستطيع ان يصمت عن الغناء، وهو يرى قمراً مستديراً احمر يظهر فجأة من تحت غطاء السماء بالفضة والهضاب البعيدة كساها الحرير .. لم يكن ليرى هذا كله فيتوقف عن الغناء .. ذلك ان منصوراً كان هو مغنى القرية الرسمى، ما حدثت ليالي افراح واعراس الا وكان منصور هو الذي يحييها ويملأها طرباً. وفي «ليلة القنديل» عندما ينقسم بيت الفرح قسمين، في الجانب النساء، وفي الجانب المقابل الرجال، وتفرش بينهما اجمل ما في القرية من بسط ليكون مكاناً مناسباً لصبايا القرية حيث يجلسن صفاً واحداً استعداداً «للنخيخ». كان منصور يأخذ مكانه امام الصبايا وفي يده عصاه وامامه الصندوق الذي يضرب فوقه بالعصا، وبجواره سعدان بقربة عزفه الكبيرة.

وبدأ الفرح ..

تتصاعد الزغاريد، وترفع الصبايا الاغطية عن رؤوسهن ويتهدل الشعر الغزير الاسود فوق الوجوه .. ويبدأ النخيخ .. تستوي الصبية منهن على ركبتيها ليبدأ بعد ذلك الرأس والشعر واليدان في رحلة جميلة .. جيئة وذهاباً .. حتى آخر الليل عندما ينتهي زيت القنديل.

وينفخ سعدان قربته، وتتصاعد الانغام ويضرب منصور صندوقه في ايقاع منتظم سريع ثم يرسل الغناء، ومن خلفه شباب القرية يتوسطهم العريس يرددون غناءه، وأمامه الشعر الاسود يواصل رحلته على ايقاع طرقاته، وهناك في الجانب الآخر النساء يملأن الجو بالزغاريد.

يتفجر منصور بالغناء.

ليس مهماً ان يكون غناءاً جاهزاً توارثته الاجيال فما اكثر ما يبتدع منصور غناءاً جديداً يسمعه الناس لاول مرة. واغنية الشعور الغزيرة السوداء تعزف، وهو يغني ويعزف، وقربة سعدان المنفوخة تتصاعد انغامها، واصابع سعدان فوق فتحات القصبة ترقص في سرعة وبطء .. فتتلون الانغام .. وتتحرك لواعج الشجن في قلوب الصبايا فتهتز الرؤوس في طيش ونزق، ويتبعثر الشعر في صخب وفوضى

ويرتفع رنين الفضة على صدورهن، وتدمي ايدي الرجال بالتصفيق وتزداد ضجة الزغاريد، حتى شمعة القنديل الكبيرة الطويلة المتخمة بالزيت، تهتز شعلتها وتتراقص كأنها تقلد الصبايا ..

وتتصاعد زغرودة طويلة على شرف العروسة، ثم تلحق بها في سرعة ودونما ابطاء زغرودة اخرى للعريس، اما الزغرودة الثالثة فلا بد ان تكون الى «الهند»، ولا بد ان يكون لها رنين خاص طويلة .. وجميلة .. ولها ديل ينش في الهواء. تلك هي زغرودة هند.

تنطق الزغرودة الى هند .. لتجعل كل شيء في منصور يتيقظ وينتبه ويهتز انفعالاً وتتحول كل الخلايا في بدنه الى عيون تنظر في وله الى هند.

أطول الشعور وأجملها .. شعر هند.

في كل عرس مكانها لا بد ان يكون وسط الصبايا، لتسحر الجميع بطول شعرها، وابداع هزها، فما كان يحسب في عداد الاعراس ذلك الذي لا تتربع هند فيه بين صباياه.

الصبايا تهدل شعورهن الغزيرة، مدهونة بالزيت، شعور سوداء تشع وتتألق وترقص، وهو دون كل الشعور، يعشق شعر هند فشعرها اغزر واطول وادكن سواداً من شعور كل الصبايا .. وهو يضرب على الصندوق .. ليس ضرباً. ولكنه عزف ماهر فيه فن وفيه ذوق. وهو يغني. انه لا يغني لاحد من كل هؤلاء الذين يحتشدون حوله من الرجال والنساء .. انه يغني لهند وشعر هند .. فقط .. وهند امامه، تماماً. شعرها الغزير يكاد يلامس وجهه ويداها امامه، يدان مخضبتان بالحناء تخضيباً جميلاً .. رقيقتان .. واصابع نحيفة تمتلىء بالخواتم. ورائحة شعرها تملأ خياشيمه .. وهزها البديع يملأ قلبه بالسعادة.

ولم تكن هند الا ابنة الشيخ عامر ابو ليلى شيخ القرية ورأسها المدبر، واسرتها سلالة شرف وعراقة، فضريح «ابو ليلة» والد الشيخ عامر لازال مزاراً تنزل عنده القوافل يوماً بعد يوم، وما كان يشغل بال منصور هو هل يرضى الشيخ عامر ان يزوجه هند، فمع ان منصور مغني القرية ومحيي افراحها فهو ليس الا راعياً صغيراً، يرعى اغنام اعيان القرية وكبارها امثال الشيخ عامر ومن هم في مكانته ومركزه. فهل يمكن ان يزوجها له.

وفي كل الاعراس لا بد ان يغنى منصور.

ولا بد ان يتهدل ويتمايل وينش في الهواء شعر هند، ابنة الشيخ وزينة صبايا القرية، ولا بد لمنصور ان يغني لها ويغنى للقرية وللدنيا اغنيات رقيقة يقولها هو لاول مرة .. فتملأ القرية، يغنيها الاطفال في الصباح .. وتغنيها النساء في مجالسهن وعلى الرحى وساعات الطهى وعندما يردن على البئر .. ولم يكن احد يعرف هذا السر في حياة منصور، لم يكن احد ليعرف علاقة الحب بين هند ومنصور. ورغم انه لم يتبادل مع هند كلمة حب واحدة، ولم يكن ليكلمها سوى تحية حب عابرة يطلقها وهو يراها تملأ على البئر او تغسل مع النساء على الغدير وهو يرعى شياهه تحية قصيرة ترد عليها هي بتحية قصيرة لكنها

تحية مليئة بالف وعد والف اشارة خفية يلتقطها من جهازها الانثوي، من ابتسامة عينيها من اشراقة يراها تضيء ملامح وجهها عندما تراه، من اهتزازات رموشها من اصابع يديها وهي ترتبك وتنفعل عندما يلقاها، من كل ذلك صار يعرف ان هند تحبه مثلما يحبها. بل ان هذا الحب احس به صافياً عذباً ليلة ان رآها في نهاية احد الافراح وقد تأخرت عن الصبايا في العودة الى البيت. عندما التقى بها جوار الغدير .. واقترب منها وحياها وقال لها ـ يا هند .. وقالت له ـ نعم يا منصور .. ثم اشارت له ان يبتعد خوفاً ان يراهما الناس .. فابتعد وقد احس بالحب دفاقاً في قلبه .. ولم يسع فرحته الا القمر الذي كان ليلتها مستديراً احمر يستقبل غناءه .. وهكذا ايام منصور تمر بين رعى الشياه .. واحياء ليالي القرية وافراحها.

الى ان كان يوم ..

كان الفرح قائماً على قدم وساق، والزغاريد تملأ القرية، والصبايا يواصلن النخيخ، وقربة سعدان تغني على سجيتها، ومنصور مثلها يرسل الغناء على سجيته، وفي لحظة. ودونما شعور في لحظة من تلك اللحظات التي يتوه فيها منصور في غابة سوداء من شعر هند، ويذوب ويتحول الى شعرة تختلج وترتعش في شعر هند الطويل. في لحظة لم يكن واعياً فيها منصور الى نفسه ولا الى من حوله، استرسلت مقاطع الغناء من فمه تفصح وتكشف وترفع الستار وتعلن ما كان مخفياً. في لحظة قصيرة جاءت مقاطع الغناء غزلاً وولها صريحاً الى هند، عن جمالها وعن شعرها وسواده وعبيره وعن حبها له وحبه لها، وعن لحظات لقائه معها، وعن القمر الاحمر الذي كان جميلاً مثلها. استرسلت مقاطع الغناء في عفوية، وسهولة، وسرعة، فلم يكن ـ منصور ـ مغنياً محترفاً يضع مقاطع الغناء الجاهز ويكررها في كل مكان، كان غناءه دائماً سجية وتدفقاً. وليلتها فاضت سجيته وكشفت اسرار قلبه، فاضت وتدفقت غناءاً صافياً كالغدير، ولم يفكر منصور فيما سيقوله الناس، ولماذا يقول الناس، ما العجب في ان يرفع الغطاء عن قلبه ويسرد امامهم الحب الذي يملأ قلبه، الم تنبض قلوبهم بالحب مرة، لماذا يظل الانسان صندوقاً مقفولاً على نفسه، ليفتح لهم هذه الليلة صندوقه، ليدع الرافد الصغير الذي في قلبه يجري فوق الارض، لو كسر كل فرد السد الصغير الذي يقيمه في قلبه لأمتلأت الارض روافد صغيرة لا شك انها ستتجمع لتصنع نهراً كبيراً يخصب الارض والحياة، وستزداد الدنيا جمالاً. فما دامت قريتهم مليئة بأشجار النخيل والزيتون، وما دام الوادي مليئاً بالخضرة .. وما دام القمر يظهر في منتصف الليل احمر جميلاً .. فلماذا لا تتلاحم العواطف .. ولتكن الاسرة الكبيرة افرادها نهراً وقمراً ووادياً اخضر.

استرسلت مقاطع الغناء من فم منصور دونما تحفظ ..

وتحول كل من في الفرح الى عيون وآذان مشدوهة مندهشة مما يقوله منصور .. وليلتها انتهى الفرح مبكراً .. وما افاق منصور الى نفسه الا وقد تحولت الاغنية من فمه الى افواه الجميع، وما ان جاء الصباح حتى ان ملأت الاغنية القرية، حتى كان الاطفال يغنون ويلعبون بها بل ان آذانهم الصغيرة

تفتقت عن لعبة جديدة من وحي الاغنية اسمها لعبة «القمر الاحمر» وصار الشيوخ يرددونها في مجالسهم خاصة بعد ان غيروا اسمها من القمر الاحمر الى الحب الاحمر فهو فجور وفاحشة حمراء .. وبدأت الافواه تتحرك وتضيف وبدأ خيال القرية الذي يصنع قصصاً من لا شيء يجد نواة لقصة بديعة بدأ الخيال يؤلف كيف التقى منصور مع هند، كيف اختلى بها جنب الغدير في ليلة لم يكن هناك فيها سوى اثنين هند ومنصور وثالثهما القمر، وكيف اعتصر منصور جسدها البض، وكيف ان الشجر والريح والاعشاب قد التصقت بالارض خجلاً من منظرهما بجوار الغدير .. وكيف ان الغدير عكس صورة لهما، صورة لم تكن بريئة ولا طاهرة .. بل ان احد مهرجي القرية قال لمن حوله انه سيذهب الى الغدير .. فلا بد انه ما زال يحتفظ بصورتهما تلك الليلة .. طازجة.

ولم يكن خيال القرية ليلتهب كل هذا الالتهاب لو لم تكن القصة مع هند. فكيف تسقط هند ابنة الشيخ عامر ابو ليلة سيد القرية وشيخها وحفيدة صاحب الضريح الاخضر .. . كيف تسقط هكذا ولا ينفعل خيال القرية ويلتهب. بل كثيرون من اهل القرية كانوا يحملون في قلوبهم تشفياً لا يفصحون عنه لشيخهم عامر وهم يرونه يطأطىء رأسه الذي كان دائماً عالياً، يرون العار يخنق عنقه ويحني ظهره، ولكنهم كانوا يعرفون ان رأس عامر ابو ليلة سوف لن يظل مطأطأً الى الابد فهم يعرفون شيخهم وغشامته وقوة بأسه. سوف تكون له كلمة يرد بها اعتباره ويعود رأسه الى مكانه العالي. وجاءت الكلمة بعد يوم واحد.

ـــ ماتت هند.

هكذا فجأة، وقبل أن يتهيأ ذهن القرية لسماع مثل هذا القول .. حتى جاءت خاطفة موجزة كضربة السيف.

ـــ ماتت هند.

كيف ماتت؟ ما الذي حدث لها؟ لم يكن احد ليستطيع ان يفتح فمه بالسؤال، او يعرف شيئاً اكثر من ان هند مرضت فجأة وماتت فجأة، ولكن احد منهم لم يكن ليخفى عن ذهنه ان هنداً لم تمرض ولم تمت موتاً طبيعياً، وانما عامر ابو ليلة قتل ابنته ليدفن عاره ويرفع رأسه.

ومنذ ذلك التاريخ .. ولأيام وشهور طويلة، كانت الاعراس تنطفىء افراحها، وليلة القنديل تمر دون غناء ولا نخيخ .. وكان خيال القرية يسقط نادماً منكسراً على نفسه بعد ان ادرك بشاعة جريمته .. ولم يكن احد ليلتقي بمنصور، كل الذي يعرفونه عنه .. انه مع كل ليلة يسرح في الوادي وحيداً .. ينتظر القمر حتى يراه ينهض من خلف الهضاب وكثبان الرمال البعيدة. أحمر. قاتم الحمرة. كأنه بقعة كبيرة من دم هند ولم يكن منصور يغني للقمر او يطلب منه ان ينزل الى الوادي الاخضر ليحلب الشياه ويشعل النار ويهز اشجار النخيل.

كان فقط يسأله كلما رآه يظهر فجأة من تحت غطاء السماء :

ــ لماذا قتلوا هند .. يا قمر.

■

نافخ الرماد

ملايين الكلاب المسعورة تعوي ..

الطبول تزمجر بعنف ووحشية .. والجحيم في مكان ما يستعر .. ويفتح افواه لهبه يأكل النهار. النهار يلتهب ويرتعش ويرتمي فاقد القوى .. حتى يتحول شيئاً، فشيئاً الى ليل .. الى رماد اسود كثيف يغمر الكون ويسد منافذ الدنيا.

قبائل بدائية منقرضة. نفضت عن ابدانها تراب الزمن. وخرجت من كهوفها المجهولة. تدق الطبول وتوقد الجحيم وتغتال النهار. انني انفخ رماد هذا الليل الطويل بلا جدوى، فهم الآن، في مكان ما يحرقون النهار. يشعلون النار في بدنه الابيض اللبني. كما فعلوا بالليل قبل ان يصبح ليلاً. لقد تكشفت لي هذه الحقيقة. ذات ليل طويل ايام الحرب والغارات والطليان. اختفيت ايامها في الكهف واختفى عني النهار. وتكشفت امامي في قاع الكهف حقيقة الليل والنهار. لم يكن هناك في الدنيا ليل كان هناك نهار واحد طويل الا ينتهي: غلالات ضوئه لا تنتهي ابداً. شمسه طازجة تشتعل في قبة سمائه دائماً. وتخيلت في ذلك الكهف كيف حولوا النهار الى ليل عندما خرجت قبائل بدائية منقرضة من كهوفها .. وجاءت تحمل نيران مشاعلها وترقص في اهتياج رقصاتها القديمة البدائية، وترسل صيحاتها الوحشية .. كعواء ملايين الكلاب المسعورة، ضربت حول النهار حصاراً كبيراً وبعد ان عزفت طبولها واكملت اداء طقوسها، اشعلت في بدنه النار. احرقته. وشوهت ملامح وجهه حتى تحول الى فحم ورماد. واصبح ليلاً.

وعندما طالت ايام بقائي في ظلام الكهف تصورت ان ما بقي في النهار، قد قتلوه وتصورت ان الدنيا قد اصبحت ليلاً لا ينتهي، وانه مهما نفخت في رماد هذا الليل المحترق فإن ضوء الصباح لن يشتعل

تحت الرماد.

لكن النهار لم يلبث ان جاء، خرجت من الكهف ورأيته سليماً معافى. ينتشر في كل مكان. اذا فقد هزم القبائل البدائية. وجاء. واندفعت خارجاً من باب الكهف وانا ارحب بالنهار واضمه الى صدري.

لكنني من يومها وانا حزين.

كلما انتشر رماد الليل. نفخت رماده حتى يأتي الصباح واتصور انه قد يأتي يوم آخر يحرقون فيه بقايا النهار. ويحولونه الى ليل .. تخرج القبائل البدائية من كهوفها وتحرق بدن النهار حتى يصبح ليلاً. ثم ترقص فوق رماد جثته.

وهذه الليلة ..

ها هو رمادها ينتشر، وانا انفخ دون جدوى.انها تمتد وتطول. والنهار لم يأت. لا بد انهم يحرقونه الآن ويضيفون رماده الى رماد الليل ليصبح ليلاً واحداً طويلاً لا ينتهي.

واصابتني حمى رعب مفاجىء. انهم يقيمون عرساً كبيراً لحرقه. ها هو عواؤهم يخترق الجدران ويصل الى. ها هي دقات طبولهم الهمجية ترن في جوف الليل ..

وتسلخت أصابعي وأنا أضرب الجدران بقبضة يدي.

لن يحرقوه .. لن يحرقوه.

لن اعيش حياتي اتنفس رماداً ابدياً لا ينتهي، ولم اشعر بنفسي. الا وانا اندفع مهرولاً خارج داري. وفي صيحات هسترية صرت أوقظ الناس. انهم لا يعلمون ان النار ترتكب الآن جريمة حرقه (فلا بد أنهم مثلي اصدقاء النهار .. بدليل انهم يخافون الليل .. ويختبئون منه داخل بيوتهم ثم يخرجون يلاقون النهار .. في مظاهرة انسانية رائعة. طالما وقفت أراقبها عندما أراهم يفتحون مع اطلالة الصباح اسواقهم. عندما يهرولون الى اسواقهم .عندما يهرولون الى مدارسهم ومصانعهم وحقولهم. عندما يملأون الطرقات بدقات اقدامهم في مسيرة كبيرة يلاقون النهار). وهرعت الى النوافذ والأبواب المقفلة اطرقها وأصيح :

ــ هيا .. هيا استيقظوا أيها النائمون، ان صديقكم العظيم يقتلونه الآن. اخرجوا لننقذه قبل ان يتحول الى رماد.

واصطفقت الشبابيك وفتحت الابواب في حذر. واطلت الوجوه خائفة مذعورة تتساءل ما هنالك .. وانطلقت الهمسات تملأ الدنيا حتى ضاع صوتي. في همسات الاسئلة.

ولم تمض الا لحظات قليلة حتى خرج الناس في تجمعات كبيرة. بعضهم ارتدى معطفه وبعضهم جاء

يهرول في لباس النوم. وامتلأت الدنيا صخباً وضجيجاً وصار صوتي يضيع ، وانا ادلهم على الطريق. ووجدت نفسي انا ايضاً اضيع في زحام الناس الذين ملأوا الشارع ، لكن المسيرة الكبيرة بدأت. كان واضحاً انهم جميعاً يدركون الخطر الذي يتعرض له النهار وكان حجم هذا الحشد البشري يزداد شيئاً فشيئاً .. فكلما مررنا بحي او بشارع استيقظ اهله وفي صمت انضموا الى مسيرتنا الكبرى. حتى من كان واقفاً في الطريق من حراس وخفراء وعساكر دورية ومتشردين ودراويش. قام الحشد يأخذهم في طريقه .. بل حتى الكلاب والقطط الضالة. كانت تنضم الينا ، كأن الحشد مغناطيس يجتذب كل من يقع في منطقة جاذبيته.

وكانت دقات الطبول تخترق الضجيج والزحام وتصل اليّ. وصيحاتهم الهمجية يتردد صداها في اذني. انهم يحاصرونه الآن في حلقة كبيرة ويقيمون العرس الكبير الذي سيحرقون فيه بدن النهار ويرقصون فوق رماده لكننا سنصل اليهم قبل ان يكملوا مراسيم وطقوس الحرق. سوف ننقذ النهار من بين براثنهم ونطلق سراحه لينتشر بشمسه وضوئه في كل مكان ..

مضى وقت طويل. ونحن نسير دون ان نصل اليهم.

وشيئاً فشيئاً بدأت دقات الطبول. تخفت في اذني والصياح يصل اليّ خافتاً ، والظلام يتبخر في الهواء يمد اعمدة حمراء في سقف الدنيا .. ولم أصدق في البداية ، لا بد انها خديعة ، لكن شيئاً فشيئاً بدأت ملامح الصباح الحقيقي تظهر. جاءنا همس نسيمه ونشر على الارض غلالات ضوئية. ثم تأكد كل شيء عندما مد اذرع شمسه.

اذاً فقد انتصر النهار مرة اخرى. لقد حطم حصارهم واطفأ نار مشاعلهم. ان النهار قد انتصر .. .اذاً يجب ان نعود بعد ان يجيء النهار ..

ولدهشتي الشديدة ، وجدت ان احداً من الناس لم يحس بمجيء النهار. احداً من الناس لم يرمقني. ان المهمة قد انتهت. واننا يجب ان نعود. إذاً الى اين نذهب الآن. بعد ان انتصر النهار ..

ظلت المسيرة الكبيرة تتقدم كأن النهار لم يأت. والشمس لم تشرق.

وازدادت دهشتي عندما رأيتهم يسرعون الخطى بعد ان احسوا بدفء النهار. لقد ازداد حماسهم للمضي .. وبحثت عن تفسير لهذا كله. فلم اجد. اردت ان اصيح فانحبس الصوت في صدري ، وقفت افكر حتى وجدت نفسي اتخلف عن المسيرة. الى اين يذهب هؤلاء الناس؟ وقفت ارقبهم من بعيد .. كانوا يتدفقون في سرعة وقوة .. وبدا لي حشدهم من بعيد .. كأنه غابة كبيرة تزحف الى الامام .. وكان الغبار الذي تثيره اقدامهم ينتشر ويكاد يحجبهم عني .. .

وخطاهم تهز الارض تحت قدمي بعنف .. لا بد ان المهمة لم تنته حقاً ..

لا بد ان الذي جاء لم يكن صباحاً حقيقياً، ولا شمساً حقيقية. لا بد ان هناك صباح آخر وشمس آخرى. وان هناك نهاراً حقيقياً لم يأت بعد .. وتداركت نفسي، تركت موقفي. ذهبت اعدو لانضم الى المسيرة الكبرى التي تبحث عن نهار حقيقي .. .

الرمال الناعمة

عندما مدَّلي يده، يصافحني بحرارة ويبتسم لي في شوق .. لم اعرفه. احتويت يده الرطبة في يدي، وتفرست ملياً في وجهه، ولكنني لم اعرفه. اين رأيت هذا الوجه من قبل؟ علني التقيت به في احدي اسفارى العديدة، او عله كان زبوناً لا أذكره ترافعت له ذات يوم في احدى القضايا، او ربما تعرفت به حديثاً في جلسة من جلسات المقاهي والاماكن العامة. لكن لقاءه كان حاراً كلقاء الاصدقاء القدامى، بل مضى يضربني على كتفي في ود، ويشير الى كرشي متندراً ببداتني بعد ان كنت نحيفاً كجريد النخل، ورغم انني صافحته وابتسمت له، الا انني خجلت من نفسي لأنني لم اذكره .. ولم اهتد الى اسمه حتى الآن.

ولم ادر كم دقيقة مرت وانا اغطي جرحي بتكرير الاسئلة عن الصحة والاحوال، وكل ما في عقلي وذاكرتي من اجهزة تتفحصه وتحلل كلماته وملامح وجهه ونظراته وابتساماته. وعندما كان يسألني عن احوال اسرتي وزوجتي وكم اصبح عدد اطفالي، لم استنكر اسئلته كما استنكرها من رجل لا اعرفه .. تقبلت اسئلته بارتياح ومودة، وبدا لي ـ في تلك اللحظة ـ انني اعرفه، وان شيئاً عميقاً قد جمعنا ذات يوم .. لكن اين؟ وبدا لى انه قد ادرك جرحي، وادرك انني ما زلت لم اتعرف عليه، واحسست انى اصبته بخيبة امل جعلته يبدو فاتراً وزاهداً في لقائى. وهذا ما جعلني ازداد خجلاً من نفسي، كيف لذاكرتي السخيفة الحمقاء ان ترفض التعرف على الرجل، الذي كان لا بد انه كاد صديقاً حميماً، وتبدت لي في تلك اللحظة الكاشفة سخافتى وانانيتى. انني انسان تافه يقطع بسرعة خيوط العلاقات التي جمعته بالناس والحياة، وقررت ان انهي هذا الموقف الحرج، وان اتخلص منه بسرعة، اودعه وامضي .. ونظرت الى ساعتي تمهيداً لأن اقول له ـ اعذرني فأنا على موعد. في تلك اللحظة وانا

مطرق برأسي انظر الى عقارب الساعة شعرت بشيء كومضة البرق التي تمزق سحب كثيفة سوداء لتضيء ظلام الدنيا ..

وقلت هاتفاً

ـــ محـمــود

وكدت رغم الزحام والناس والشارع المليء بالضجيج ان آخذه بكلتا يدي وأبقيه في حضني الى الأبد .. فقد مرت سنين طويلة لم اره.

ـــ لقد تغيرت كثيراً يا محمود .. حتى لم اكد اعرفك!!

قلتها وكأنني اعتذر بها عن هذا الابطاء الذي حدث قبل أن أتعرف عليه .. كان هو بعينه صديق طفولتي وصباي وايام الدراسة .. محمود. بل كثيراً ما كان معلمي، علمني كيف احب وطني وكيف التزم به. اول من أكد معنى الوطن في وجداني، بل كان قدوة لي عندما جعلني اواصل دراستي مثله والتحق بكلية الحقوق لكي اخدم العدالة في وطني، كما كنا نقول في تلك الايام، وكان يتقدمنا دائماً .. شهماً، صريحاً، يتقد توهجاً، يتسامح مع كل من اخطأ في حقه، لكنه لم يكن يتسامح مع من تهاون في حق وطنه، حتى في ارض الغربة عندما كنا نواصل دراستنا كان الوطن يملأ وجدانه، فيجمعنا لنؤسس نادي باسم بلادنا، ويملأ قاعات الدراسة بالحديث عن وطنه، ويطوف بنا بين الصحف علها تنشر المعلومات التي نقدمها لها عن بلادنا .. وبعد ان تخرجنا واصر بعضهم على ان يثرى باسرع الطرق كان محمود وحده الذي ما كان حريصاً في يوم من الايام على ان يكون له بيت فاخر وسيارة فاخرة وارصدة في البنوك، كان يختار زبائن بسطاء مسحوقين، بالكاد يحصل منهم على مصاريف مكتبه وقوته الضروري، ولم ادر ما هو رد الفعل الذي حدث في نفس محمود حتى جعله يترك مهنته القديمة ويصبح رجلاً من رجال الاعمال، ومرت سنوات، أسمع أخباره، لكنني لم التق به.

ولكن كيف لم اعرفه ..

لا بد ان شيئاً قد تغير فيه .. وعدت احتويه بنظراتي واتشبع به، واتحسس اين يكمن التغيير الذي لحقه، كان محمود هو محمود كما اعرفه، انيقاً، شعره مصفوف بعناية رغم الشيب الذي سرح كثيراً في فوديه، ملابسه انيقة، وقامته كما هي طويلة .. توازي قامتي.

اعترف بأنني انسان ضعيف الذاكرة وقد ضيعت عليّ هذه الذاكرة الضعيفة كثيراً من حقائب السفر لكنه لا يعقل ان تمتد الى ان تسرق مني صديقاً حميماً مثل محمود، كان دائماً يملأ فكري، حتى في عملي كانت شخصية محمود هي التي تملأ ذهني، وتقود خطاي، وطالما تهيأت الى يوم التقي فيه بمحمود اسرد امامه همومي واضيء بروحه وكلماته بعضاً من ضباب الطريق.

فهل هذا هو حقاً محمود؟

فتشت في عينيه فلم اجده. لم تكن هما عيناه. اين توهج محمود وومضته الكاشفة الحارقة عندما ينظر اليك من هذين القنديلين المطفأين.

وعندما ابتسم .. لم تكن هي ابتسامة محمود القديمة، كانت ابتسامته المشهورة التي تشرق في وجهك، فتحس بها طازجة ساخنة كأنفاسه، قد اختفت، حلت مكانها مساحة بيضاء تظهر وتختفي دون مبرر لظهورها واختفائها، احسست بابتسامته باردة، لزجة، تسيل على وجهي ويدي وقدمي، حتى اشعرتني بالاشمئزاز ..

هل هذا هو محمود الذي احببته، وتعلمت منه، وكان قدوة لي ولزملائه. لم يكن محمود، وعندما مضى يحدثني عن نجاحه في مشاريعه الجديدة، وعن صفقاته ومعاملاته وارباحه، اكتشفت ان وهج كلماته قد انطفأ انها تأتيني وقد خفت رنينها، فتشت فى كلماته عن ذلك الالق وذلك الرنين القديم .. لم أجده .. بدت لي كلماته كقطع العملة الزائفة.

وبدا لي لحظتها ان شيئاً ما قد اغتال صديق طفولتي وصباي وان عالماً غريباً قد احتواه وامتص دماءه الحارة، عالم غريب له خيوط دقيقة ناعمة لزجة كخيوط العنكبوت .. لف خيوطه حول محمود .. وحوله الى ذبابة يأكلها العنكبوت .. وادركت في تلك اللحظة، ان ذاكرتي كانت على حق عندما رفضت ان تتعرف عليه.

وعندما ودعني ومضى يبتلعه الزحام، وقفت تائهاً مذعوراً، احسست بخيبة لم احس بها طوال عمري تحط في نفسي وتملأها، حتى كدت اجهش بالبكاء وسط الشارع .. ولم أدر لماذا كنت احس كأن محموداً كان رفيق سفري الوحيد، ثم مات عني .. ابتلعته رمال ناعمة، وبقيت اضرب في المتاهة وحدي .. كنت خائفاً مذعوراً .. تحول الرصيف تحت قدمي الى شيء رطب لزج ناعم ... كأنه الرمال الناعمة .. وكنت أمتليء خوفاً من ان تمتصنى تلك الرمال الناعمة.

■

الأيام الثلاثة

كانت السيارة الصغيرة البيضاء، تنساب عبر الطريق الزراعي في زوبعة خفيفة من الغبار، ومن حولها كانت الحقول التي امتزجت فيها صفرة السنابل بخضرة البقول والبرسيم وانبثقت في جهات متفرقة وبعيدة منها اعداد قليلة من اشجار التوت. والاثل والسرو. كانت هذه الحقول تمتد فسيحة عريضة لا يحدها شيء سوى الافق البعيد الذي بدا الان، ملوناً، متوهجاً، نابضاً تتبصر عنده غلالات من السحب الرمادية الخفيفة.

وشمس الصباح تطل، ذهبية مشرقة، كبرتقالة الهية كبيرة من برتقال الجنة. بل ثمة مهرجان قائم هناك في ذلك الشريط الذي تنحني عنده السماء لتعانق مع بداية هذا الصباح وجه الارض، الاخضر، المبلل بقطرات الندى.

والصولة الآن في هذا المكان، لنسيم الصباح وحده، فهو الذي يسري بأنفاسه بين الاغصان الخضراء، ويعبث في نزق طفولي باوراق الاشجار التي تنتصب كالحراس وسط الحقول ويمرق في خفة بين سنابل الحنطة التي اشتعلت رؤوسها بلون الذهب متسللاً ـ كعاشق يسعى للقاء حبيبته في الخفاء ـ حتى يصل السيارة البيضاء الصغيرة فيدور من حولها ويلف بها في حفيف لذيذ هامس موشوش كأنما هو يتودد اليها بلغة رقيقة مهذبة ناعمة. الا انها مع ذلك لغة سرية خفية لا يفهمها الانسان.

كانت السيارة مليئة بالركاب، كلهم شبان وشابات وكلهم من دول عربية مختلفة فالسيارة تابعة لمركز تدريب دولي، ستقبل في اول كل عام دراسي وفوداً من قبل جميع الدول العربية للتدريب على تنمية المجتمعات. واغلب هؤلاء المبعوثين موظفون في بلدانهم، منهم الموظف الكبير الذي قطع شوطاً طويلاً في الوظيفة. بل على وجه الدقة قطع شوطاً في الصعود عبر سلم الوظيفة. ومنهم المتحمس الصغير الذي

يقف على اول درجات السلم، الا انهم هنا يتساوون. يأخذون نفس الدروس. ويتقاضون نفس المكافأة. ويتذوقون نفس نكهة الغبار التي تمتد على طول الطريق من مقر المركز باحدى القرى الكبيرة الى قرى الريف المصري الصغيرة التي يتلقون فيها جزءاً من تدريبهم العملي.

والسيارة الآن في طريقها من المركز ناقلة فريقاً من المبعوثين الى احدى قرى التدريب. وبرغم ان عدد افراد الفريق خمسة فقط. وسيارتهم هي الاخرى حمولتها خمسة. الا انه يتزاحم بها الان سبعة ركاب. ذلك ان ثمة آنستين موفدتين من القاهرة لقضاء ثلاثة ايام تدريب مع فريق المبعوثين باحدى القرى التي يعمل بها المركز.

فقد اعتاد المركز ان يستضيف من القاهرة الاخصائيين المستحدثين في الخدمة الاجتماعية في دورات تدريبية قصيرة مدتها ثلاثة ايام. ولكي نتحرى الدقة اكثر نقول اخصائيات اجتماعيات، فكل الذين يأتون للتدريب بالمركز تقريباً من البنات هن في الاغلب، صغيرات ، وجميلات وحديثات التخرج، اذ ما زال جو الكلية يعربد مرحاً منطلقاً سعيداً في نظرات عيونهم، فهن ما زلن يقفن على الشاطىء لم ينغمسن بعد في تيار الحياة. ولم يستشعرن بطعمه المالح في حلوقهن. او حتى على اطراف السنتهن. ولم يعرفن بعد الصراع مع الامواج والدوامات ومواجهة الصخور. تلك الاشياء التي لا شك في انهن سيلتقين بها وسيعرفنها جيداً في تجربتهن القادمة. والتي لا شك ستخفف كثيراً من حدة الالق في اعينهن. وكان المركز يستقبل هؤلاء المتدربات بصدر رحب ولكن الذين يستقبلوهن بصدر ارحب هم شباب المبعوثين العرب الذين يقضون مدة دراستهم الطويلة بالمركز. وكان طلاب المركز يعتبرون هؤلاء الأخصائيات ضيوفاً يرحبون بهن على عادة العرب القدماء في الترحيب بضيوفهم. حتى عند قرى التدريب لحظة تحين ساعة تجميع حساب الغذاء. وتحاول احدى الاخصائيات ان تدفع نصيبها في الحساب. لحظتها تمتد اكثر من عين. واكثر من يد. واكثر من لسان كلها تستنكر وتمنع الاخصائية من ان تدفع ولا مليماً في الحساب.

ويحتجون ايضاً على محاولتها اختراق تلك القاعدة العتيقة التي لا احد يدري من اي ركن مهمل منزوي، استخرجوها. ونفضوها من التراب العالق بها. وأخذوا يلوحون بها امام البنات القاهريات وهي ان ضيف العرب ثلاثة ايام.

ولم تكن المبعوثتان، اللتان رافقتا الفريق اليوم، كلتاهما جميلتين. فإحداهما الآنسة سعاد ـ كانت مهرولة .. وسمراء ومن ذلك النوع من النساء الذي لا ينطبق عليه سوى كلمة «سيدة» الا انك عندما تكتشف انها ليست سيدة تحرج من أن تناديها يا «آنسة» لذلك فقد اختار الجماعة حلاً وسطاً كانوا ينادونها به فيما بعد وهو «الاخت سعاد».

اما الثانية فقد كانت السبعة عشر ربيعاً ترتسم على كل سنتمتر من جسمها المتناسق الرشيق. كانت صغيرة ورقيقة، وحلوة. كل شيء فيها رقيق. قوامها، خصرها، عنقها، الاسلت الناعم، ابتسامتها التي تسفر عن اسنان بديعة، منضودة، ملامح وجهها هي الاخرى رقيقة. بل تشعر بهذه الرقة حتى في

النظرات المنبعثة من عينيها العسليتين. وايضاً الرقة في كلماتها وفي حركاتها.

وعندما تنظر اليها هكذا، على بعضها، نظرة شاملة تشعر بأن فيها شموخاً واعتزازاً، ولكنه ليس مغالياً فيه. بل لم يخل هو الآخر من نفس الرقة والعذوبة.

اما عن الفريق فقد كان يضم ثلاثة رجال وامرأتان، هناك هالة من الكويت ورغم انها صغيرة السن والحجم الا انها ارملة وحديثها يدور غالباً عن ابنتها التي تركتها في الكويت، وصالح اليمنى كان في الثلاثين من عمره رغم انك عندما تنظر الى حجمه لا تعطيه سوى ثمانية عشر عاماً. ورغم ان الصادق الليبي هو الآخر له مشاكله في بلاده وله زوجته التي لم يمض على تزوجه منها سوى شهرين وارسلوه بعدها مبعوثاً الى هنا، رغم هذا فإنه لا يحكي طويلاً عن تلك الايام، انه هنا اذا لم يكن يقرأ الجريدة فهو يغني اغنيته الازلية «زوروني كل سنة مرة .. حرام تنسوني بالمرة.»

ثم طاهرة وهي آنسة سودانية سمرتها داكنة. مؤدبة ومحتشمة. بل ان ادبها كثيراً ما يغيظ زملاءها عندما يقدمونها بأن تتفضل امامهم لحظة الخروج من باب ما. فكانت دائماً تصر على ان يتفضلوا هم في الاول.

وكان خامسهم بشير من المغرب. كانت جلسة بشير في السيارة قد اتت بجوار الضيفة الصغيرة الجميلة. وكانوا مضغوطين على بعض، اربعة في كرسي مخصص لثلاثة فقط.

وكان بشير يشعر بحرج لا مثيل له وهو يحس بالجسد الناعم اللدن يلتصق به. ولولا أن شبابيك السيارة كانت مفتوحة. ونسيم الربيع الصباحى كان يهب عليهم كفيل بأن يرتشف كل قطرة عرق تنبثق على جبينه. لولا ذلك لكان بشير الآن يعوم فى بحر من عرقه، ذلك لأنه انسان خجول، خصوصا أمام النساء، فحتى البيئة التى نشأ بها لها عاداتها وتقاليدها التى تقيم أسوارا عالية بين الرجال والنساء. وبشير هذا الطويل، المنكوش الشعر. النحيف الوجه المقرون الحاجبين. الذى تعلو أسنانه صفرةرغم أنه لا يشرب السجاير والذى يبلغ الثالثة والعشرين من عمره، بشير هذا ليس من أبناء المدن، لكنه من قرية صغيرة من أعماق الريف المغربى. ولبشير مشاكله التى كثيرا ما كان يسردها أمام زملائه ومشاكل بشير عينات من كل الأنواع.

هناك التى ركبت معه الطائرة حينما سافر من أرض الوطن. ورغم أنه لم يضعها فى حقيبته أو فى جيبه ولم يأخذها تحت ابطه. الا أنه أحس بها معه، بل شعر بها تزاحم كرسيه داخل الطائرة، وهناك مشاكل أخرى ظن أنه تركها فى بلده قبل أن يهم بالسفر. الا أنه فوجيء بها قد سبقته وبمجرد أن وضع أقدامه فى أرض مصر حتى وجدها فى استقباله، تصافحه بحرارة وتأخذه بالأحضان. أما النوع الثالث فهى مشاكل لم تسبقه ولم تأت معه. ولكن بعد أن وصل بمدة وجدها قد لحقت به. لا أحد يعلم أن كانت قد ركبت فى طريقها اليه البر أو البحر. ولكن المهم أنه فوجئ بها ذات ليلة ورغم الأبواب المقفلة قد عرفت مكانه وتسللت اليه على رؤوس الأصابع. ولم تلبث أن اقتحمت عليه فكره.

هناك مثلا مشكلة أبيه المريض. الذى لا يعرف عنه شيئا فى وطنه البعيد. ومشكلة الرسائل التى يبعث بها دون أن يأتيه الرد. ثم مشكلة خطيبته .. تلك الخطيبة التى سميت له دون أن يعرف ما هو شكلها أو لونها. حسبما جرى به العرف العتيق فى قريتهم.

كان بشير فى جلسته الملاصقة للضيفة الجميلة، ما يزال يعانى من ارتباكه وخجله الا أن النسمات الربيعية التى تكفلت بلعق عرقه بعد مشوار ليس بالقصير، كانت كفيلة بأن تلعق خجله أيضا. فقد بدأ يفرد نفسه أكثر، ويتبحبح فى الجلسة أكثر فأكثر بعد ما كان متقلصاً منكمشاً فى جلسته.

للحظة شعر كأنه ينسل بفكره من أكوام المشاكل المختلفة والاحجام والأوزان وأن يحوم بفكره حول الرفيقة الحسناء.

حتى نظراته التى يفر بها عبر شبابيك السيارة الصغيرة، ابتدأ يتراجع بها. ويلتفت الى الداخل يتحسس ابنه «السبعة عشر» بنظراته.

كانت انطباعته الأولى عنها أنها فتاه جميلة فقط، الا أنه الآن ابتدأ يشعر بوداعتها وبساطتها وأيضا يحس بعمق كونها قريبة منه. ملتصقة به. وكان يراها بجانبه مغلفة بسحرها وجمالها كأنها سر مثير حتى أشعة شمس الصباح البنفسجية التى كانت تظهر وتختفى من خلال جذوع الأشجار التى تقف كمارش استعراض على جانبى الطريق. هذه الأشعة كانت تسقط بومضاتها المتلاحقة على وجهها الجميل. فكان يتراءى امام عينى بشير مشعا متوهجا كأنه يسطع النور.

وتبددت منه كل زرات الخجل. حتى المسافة الصغيرة التى تفصل بين كتفيهما والتى كان يعمل جهده على أن تظل كما هى بدأ يزحف عليها بكتفه. وانتهز أول فرصة اهتزت فيها السيارة. حتى كان كتفه يلتصق بكتفها.

كانت السيارة ما تزال تحفر طريقها كالقارب البديع، والجماعة يلفهم الصمت. ربما لأن لربيع. والصباح الرائع. والحقول المتماوجة المخضبة بالخضرة والشمس الكبيرة المرشوشة بالذهب التى يحلو للواحد أن يتأملها ويدقق النظر فيها، فى هذه الهنية الصباحية. وقبل أن تصعد الى قبة السماء. حيث تظل تبعث بمخارز أشعتها القوية التى تغشى العيون. ربما، لأن كل هذه تشكل شيئا جميلا فى قداسته وجلالته. شيئا لا يجدى معه الا التأمل الصامت العميق.

وبشير ما زال ملتحما فى جلسته بالفتاة. وكان فى مظهره، الخارجى يبدو مؤدبا وقورا، هادئا، لا غبار عليه. ولكن فى داخله لم يكن أبدا مؤدبا أو وقورا أو خاليا من الغبار، كان فى داخله مهرجا، معربدا، بل أن ثمه مهرجان فى قلبه .. مهرجان صاخب هائل، انه ليشعر الآن فى هذه اللحظة. كأنه ثمة ستارة داخل قلبه ترتفع تدريجيا لتظهر من خلفها أوركسترا بطقم كامل من الموسيقيين .. عازف الكمان والعود والقانون والبيان والناى وضابط الايقاع وضارب الدف.

وكان ثمه صوت على مسرح قلبه ينطلق صائحا فى صخب ونزق لا حدود له .. ـ «دق يا موسيقى». ـ وتدق الموسيقى وتعلو فى قلبه ضجة المهرجان.

كان داخله مليئا بالصراعات. موجاته الصغيرة تضطرم فى صخب وضجة وعنف. الا أنها لا تبدى أى تأثير على سلوكه الخارجى. فهو يجلس ساكنا. صامتا، لسانه لا يريد أن يتحرك. وفمه مطبق كأنه حانوت تاجر محجوز عليه. وضعت عليه أنيابه اشارة (اكس) كبيرة .. خطيرة .. بالشمع الأحمر.

وبدأ كأنه يحاول أن يزيح الاكس الأحمر ويكلمها، ان مئات العبارات مهيأة منتقاة من أفخر الأنواع. جاهزة أيضا .. كلها لا تريد أن تعبر .. كأن أمامها جسرا مكسورا.

والحقيقة أن أكبر قدر من اللوم يقع على خبير التدريب بالقرية، الذى نسي أن يقوم بواجب التعريف بين الآنستين والفريق. اذ لو كان قد حدث لكانت مهمة بشير الآن أسهل بكثير.. ماعلينا المهم أن بشير اقتنص أول نسمة شجاعة عبرت به .. تشبث بها. بأسنانه وأظافره .. واستطاع أن يعبر بأول شحناته عندما مال عليها وقال بصوت خرج محشرجا. كصوت مذياع. ما زلت ابرته فى حاجة الى تعديل لتنضبط تماما على المحطة.

ـ أهلا .. شرفتونا .. وآش الحوال؟ ..

هذه العبارة عندما لفظ بها. شعر بالسخط على نفسه .. شعر كأن ما قاله سخيف ومضحك .. من بين كل العبارات الجميلة الأنيقة التى صففها على شطآن قلبه .. لم يجد سوى هذه العبارة يستهل بها عملية التصدير .. ما أسخفه من بليد لا يعرف كيف يتكلم مع البنات الرقيقات.

ولكن سرعان ما تبدل شعوره بالسخافة عدما وجدها تكلمه .. وقد وقَّعت كلامها بابتسامة تقطر عسلاً.

ـ الله يسلمك .. ده أنتم اللى مشرفين بلدنا ... حضرة الاستاذ من أى بلد عربى ..

كان واضحا أنها هى الأخرى مشحونة بالرغبة فى الحديث اليه.

وصاح هو والفرحة تتألق فى عينيه .. ـ أنا من المغرب أشتغل هناك مرشد اجتماعى.

وشعر لحظتها كأن كلماتها قد فتحت أمامه البوابة الكبيرة .. ليعبر اليها ..

وعندما وصلت بهم السيارة الصغيرة البيضاء الى قرية العمل الميدانى. كان الحديث بين بشير ونوال التى صار يعرف اسمها قد وصل الى نتائج باهرة. فقد استطاع أن يقنعها بأنه ساعة التجوال عبر القرية لن تجد أحسن منه مرشدا لها. فهو أخبر خبير بأسرار القرية وبخباياها. ودروبها. ومسالكها الخفية المجهولة. رغم ـ أن الله يعلم ـ أن القرية لا تختلف عن أى قرية مصرية أخرى فى أنها بريئة براءة الذئب من

دم ابن يعقوب من حكاية الأسرار والخبايا والطرق الخفية.

وهكذا فانهم بعد أن جلسوا جميعا فى بيت الفريق ... وقرأوا الصحف وتناولوا الشاى، وتشابكوا ـ كما هى العادة ـ مع بواب البيت حول الغبار الذى ينتشر فوق المنضدة والكراسى. بعد ذلك تفرقوا متوزعين عبر طرقات القرية .. وكان بشير رفيقا لنوال فى تجواله ..

وكما هى عادة القرية بالريف المصرى. مجموعة قلية من المساكن الداكنة الصغيرة .. ومسافات شاسعة من الأرض الخضراء المزروعة حولها. لذلك سرعان ما انتهيا من الدوران عبر شوارع القرية .. وسار سويا عبر الحقول ..

وفى حديثهما خلال السير لم يكن أبدا محور الكلام عن طريقة مكافحة دودة القطن أو تغيير اتجاهات الفلاحين نحو تحديد النسل، أو تحسين البيت الريفى، أو أهمية فتح فصول لمكافحة الأمية ... أو غيرها من تلك الأحاديث التى تدخل فى اختصاص الأخصائى فى تنمية المجتمع مثلهما .. أبدا .. فقد كان هو يستغرقه حديث طويل عن المغرب وعن عمله وحياته هناك وربما انعطف الى سرد بعض من مشاكله .. وهى تتحدث عن كُلِّيتها وعن تخرجها هذا العام .. وعن وظيفة الاخصائية الاجتماعية التى عينت حديثا عليها.

وأحيانا كان يستغرقهما صمت .. ومن حولهما كانت الشمس تتسلق بهدوئها المعتاد جدار السماء .. وتوزع أشعتها الربيعية الدافئة على كل شئ فى كرم وسخاء ..

وصوت فيه رنة شجن لساقية تدور يأتيهما من مكان قريب .. وبقربهما قناة مائية تنساب وقد نمت وتشابكت على جانبيها طوابير من الأعشاب البرية الخضراء .. وغناء فلاح يحرث الأرض يصلهما من بعيد ربما كان يغنى من خلال عرقه ومتاعبه «طلعت يا محلى نورها .. شمس الشموسى».

ولأول مرة. يشعر بشير بأن القرية مليئة بالجمال. كان من قبل عندما يأتى لقضاء فترة العمل الميدانى بالقرية يستغرق كل الوقت فى التجوال عبر طرقات القرية ساعيا حينا لردم البرك. أو لحمله نظافة فى شوارع وبيوت القرية فكان لا يرى القرية الا من خلال المستنقعات المليئة بالبعوض وأكوام السباخ القائمة أمام البيوت. والتراب والذباب على وجوه الأطفال .. وروث البهائم فى طرقات القرية.

كان لا يرى القرية الا من هذا الجانب، لدرجة أنه فى أحيان كثيرة كان يشعر بالضيق والانقباض من تدريبه بالقرية. واليوم ولأول مرة يشعر بقلبه يتفتح مستمتعا بخضرة الحقول. وبغناء الفلاحين .. وبصوت الساقية التى تدور .. وأسراب البط التى تعوم أو تقف على شاطئ الترعة تنفض عن ريشها حبيبات الماء .. ويثير فى نفسه مئات الأحاسيس عن ذلك الثور المعصب العينين الذى .. يدور .. ويدور ...

وعندما كانا يمران من تحت الأشجار المليئة بأعشاش طيور أبو قردان كان يطيل النظر الى هذه

الأعشاش .. ثم يجد نفسه لا يقدر أن يغالب رغبته فى أن يحتوى نوال بنظرة طويلة. عميقة. وتبادله هى نفس النظرة .. ربما كان لسان حالها يقول:

ـ كم هو شيء جميل .. أن يكون للانسان أيضا .. عش؟

حتى عندما كان يرفع رأسه الى السماء يراها صافية، كمرآة زرقاء مصقولة .. يكاد يرى صورته مع نوال معكوسة على صفحاتها.

بل ويحس كأنه يرى الآن عربات الشمس التى كثيرا ماحكى عنها الفراعنة فى تاريخهم، وهى تجر قرص الشمس على صفحة السماء .. فى مهرجان مهيب حافل كبير.

وتمنى لو أن هذا المشوار فى التجول عبر الأرض الخضراء .. لا ينتهى.

ولكنه ـ ويا للالم ـ انتهى .. بل كل اليوم فوجئ به بشير ينقض كأنه دقيقة واحدة .. وقبل الغروب بقليل عندما ابتدأت الظلال تنتشر فى كل مكان ..

ونسمات الربيع الأصيلى تهب تلفح الوجوه، وتبعثر الشعور المصفوفة الممشطة بعناية على الرؤوس، وتصب وشوشتها اللذيذة فى الآذان.

والشمس متوهجة جميلة تنغمس هناك فى الأفق. والغسق يحاصر المكان ..

عندها. ركبوا سيارتهم الصغيرة البيضاء وعادوا من نفس الطريق.

فى اليوم التالى .. كان أعضاء الفريق يتبادلون النظرات، نظرات مندهشة حائرة وهم يرون بشير قد أتى للعمل الميدانى حالقا شعر وجهه وهو الذى اعتادوا أن يرونه دائما مهملا فى هذه الناحية .. ولأول مرة يأتيهم مرتديا بدلته الجديدة التى لا يرتديها الا عندما ينزل القاهرة .. ومن صدره يتلألأ سيفا فضيا رشقه فى ربطة العنق المزخرفة الأنيقة التى لم يره أحد يرتديها الا اليوم ..

ولأول مرة يلاحظون أن شعر رأس بشير، الذى عرفوه دائما مبعثرا منكوشا يرونه اليوم مصفوفا ممشوطا لامعا، مدهونا بالزيت.

ولم يشك أعضاء الفريق لحظة، فى أن هوسا ما أصاب زميلهم بشير أو أن عفريتا ركبه، وليس عفريت عاقل متزن، بل حتى العفريت الذى ركبه عفريت نزق مجنون أملى عليه أن يتزوق ويتأنق ويدهن شعره بالزيت، ثم يأتى ليمرغ أناقته هذه فى غبار وتراب ووحل القرية.

ليس هذا فقط ..

بل انهم لاحظوا .. أن شجيرات الورد التى أمام بيت الفريق تتناقص ورودها بشكل غريب ولم يعرفوا السبب الا عندما رأوا بشيرا يختلى باحدى أركان البيت، وقد تناثرت ورود كثيرة فى الركن الذى يقف عنده ممزقة الى قطع صغيرة وضبطوا بيده وردة أخيرة يستل أطرافها بأصبعيه كالذى ينتزع الريش من

أجنحة عصفور .. ويهمس.
ـ بتحبينى .. ما بتحبنيش ..

وأمام النظرات التى كان يشكه بها زملاؤه أعضاء الفريق .. لم يملك الا أن يعترف.

اذ انتهز فرصة ذهاب نوال مع سعاد، فى مشوار صغير لملء استمارات من بعض نساء القرية .. وسرد أمام «الزملاء» كل خبايا قلبه.

وأنهى اعترافه .. بأن أخرج من جيبه ورقه مطوية فتحها، وابتدأ يقرأ عليهم قصيدة شعرية كان قد بدأ ينظمها فى غمرة مهرجان الحب فى قلبه، وسهر عليها البارحة حتى الساعة الثالثة بعد منتصف اليل .. وأتم كتابتها ..

وكانت القصيدة مليئة بالأقمار والدرر والجواهر والاحجار الكريمة وزهور اللوتس والاقحوان التى استعملها فى وصف نوال. وأخذ الفريق المسألة كأنها مشكلة من مشاكل العمل الميدانى، تحتاج الى جلسة حول المنضدة التى يستعملونها للاكل ساعة الاكل، وللقراءة والكتابة فى ساعة أخرى وللاجتماعات عندما يكون هناك اجتماعات، أخذوا المسألة كأنها مشكلة تحتاج أيضا الى تداول فى الآراء بحثا عن الأسباب والأبعاد الخفية منها وغير الخفية ..

وكان أول من مسك بخيط الحديث صالح اليمني، ربما لأنه كان الأكبر سنا، والكبار دائما يجب أن يكونوا فى المقدمة وبعدهم يأتى دور الصغار، هكذا فى عرف صالح على الأقل. وقال صالح انه يدين أول ما يدين، الربيع. فالربيع هو المسؤول الأول والأخير وما بينهما عن هذه المشكلة التى يجتمعون من أجلها الآن.

ثم اندفع قائلا ..
ـ تزوجها يا أخى .. تزوجها ..
وكانت طاهرة السودانية، من رأى صالح أنه ليس ثمة حل سوى الزواج ..

أما هالة فقد أشارت عليه ـ كامرأة مجربة ومارست الحياة ـ بأن يتأكد من عواطفها أولا .. وليكن ذلك اليوم، لأن نوال ستسافر غدا .. فاذا وجد أنه تبادله العاطفة يتفقان على الزواج.

ورغم أن الصادق الليبى له رأى لم يتورع عن أن يرمى به وسط الاجتماع وهو أن الحب ليس سوى مرض يصيب الانسان لثلاثة أيام تماما كالانفلونزا أو الصداع أو الحمى الخفيفة .. رغم هذا فهو لم يتردد في أن يتقدم بشهامة ليبية ويبدي استعداده للمساهمة فى تمويل مشروع الزواج .. اذا ما احتاج الى تمويل.

وانتهى الاجتماع باعلان من الصادق انه ميغير اسطوانة «زوروني كل سنة مرة» التي تدور على فمه باسطوانة تلازم المقام .. ثم دق على المنضدة وغنى أغنية ليبية.

ـ رمش العين في قلبي رماني ..

حتى بواب بيت الفريق العجوز .. صار ينظر لبشير نظرات ذات معنى، ولم يلبث أن أفصح عن سر نظراته عندما قال وهو يضع كوب الشاى أمام بشير.

ـ انتو الاثنين، لايقين لبعض والله ..

وعندما حدق فيه بشير متقلصا بملامحه كأن لم يفهم ماذا يريد أن يقول؟.

لم يرد العجوز على أن بسط تجعدات وجهه فى ابتسامة عجوزية طيبة وهو يتمتم.

ـ أى والله ..

ولم يترك بشير الوقت يضيع ، فقد اقتنص أول فرصة أتيحت له لمرافقة نوال فى الذهاب الى الحقل .. ووصلا هناك ..

كانت رائحة الأرض تفوح وتتصاعد من حولها، فى القرية فقط بعكس المدينة، فى جو الغيط والحقل .. يشعر الانسان بمعنى الأرض بأن لها لون، ولها رائحة ولها طعم ونكهة لذيذة يستشعرها على لسانه.

كان الجو مشبعا بأنفاس ابريل. ونسمات الأصيل تهب عليهما طرية ناعمة محملة بروائح كل ما فى هذه الحقول من براعم تفتحت مع الربيع .. فكانت تداعب شعر نوال .. وتبعث فى نفس بشير نشوة لذيذة عندما تلفح وجهه ..

ما زالا يسيران ..

وأعراض الارتباك بدأت تظهر بشكل واضح على وجه بشير .. وعلى يده وحركاته ورغم أنه كان مطمئنا الى أن النتيجة ستكون على ما يرام .. فنوال عندما يحدث أن تنادي أحد أفراد الفريق كانت تنادى اسمه مسبقا بيا استاذ .. الا هو فهى تناديه باسمه المجرد.

ورغم ذلك فهو ما يزال مرتبكا .. ماذا يمكن أن يقول لها الآن؟

هل يصيح بها ـ قفى هنا !

ثم يملأ رئتيه بالهواء الطلق ويقول لها.

ـ لدي كلام خطير أريد أن أقوله لك .. وعندما تقف يصب فى أذنيها ما يريد أن يقوله لها من كلام.

ـ أنا أحبك .. أنا أعبدك .. أنا أموت فى نظرة من عيونك الساحرة. والا ماذا ..؟

ترى .. كيف يفعل المحبين أمثاله عندما يواجهون هذه اللحظة التى لا بد لك من يحب أن يمر بها.

لماذا .. هذا الطوفان البشرى المتعاقب جيل بعد جيل. لماذا لم يضع قاعدة لهذه العملية التى تتكرر فى حياة كل انسان ..

لماذا يكون مقدرا على كل واحد أن يعانى ويتعذب وترتجف أطراف أصابعه ... ويبتلع ريقه خمسين مرة فى الثانية .. مفكرا كيف يتصرف مع أن كذا بليون من قبله قد مروا بهذه التجربة. وكذا بليون من بعده سوف يمرون بها ..

لقد وضعوا قواعد لكل شئ فى الحياة، التافه والمهم .. ثم أغفلوا هذا الجانب ..
انها غلطة على مستوى الأجيال البشرية .. لا تغتفر ..

واكتشف أن أقصى ما يمكن أن يعمله الآن .. هو أن يضع يده فى يدها .. وهكذا فقد اقترب بأصابعه متحسسا يدها الصغيرة الناعمة .. ثم ضم عليها أصابعه، ولم تتكلم هى .. لم تمانع أو تستل يدها، بل تركت يدها طيعة مرنة بين أصابعه كحمامة اليفة وديعة، وأكثر من ذلك عندما تجرأ وضغط على يدها ضغطة خفيفة، بادلته اياها فى نفس اللحظة ..

وعندما نظر اليها من خلف أهدابه .. وجد وجهها مرشوشا بحمرة قانية تماما كأنه وردة حمراء .. ونظراتها تائهة .. وأنفاسها تتردد مسرعة مبهورة .. وكاد يصيح بقلب فرحان ريان مليان بالسرور والحبور والسعادة ..

- البنت بتحبنى ..

وأحس كأن كل خلية فى بدنه قد أثقلتها السعادة .. الى الحد الذى لم يستطع معه الاستمرار فى السير.
فوقف ووقفت ..
وهام فى تقاطيع وجهها الدقيق الملتهب بدماء الخجل كأنه شعلة مقدسة.
واحتوت هى ملامح وجهه الوسيم النحيف بنظرة معبرة من العينين العسليتين.

وكانت الشمس التى تقف على حافة السماء كأنها عين الله والأفق الذى يبدو مخضباً شفافاً، تكاد تلوح من خلاله حدائق ومدائن وقصور ودنيا أخرى جميلة مسحورة، والأشجار التى تتصاعد وشوشتها عندما يلامسها النسيم .. كأنها همسات ألف عاشق يملأون المكان.

والحقل الذى يتماوج ويميل فى تيه، كأنه فرحان بروائه وخضرته وربيعه ..

والأرض البكر التى تفوح كأنها رغيف كبير طازج أخرج لتوه من قلب الفرن، تملأ رائحتها المكان والزمان ..

وكل مظاهر الطبيعة الساحرة هذه، كان واضحا انما هى إلا إطار .. لها .. له ولها .. فى وقفتهما تلك ..

والتقط بشير أنفاسه الهاربة وهو يقول لها بلهجته المغربية الممزوجة بكلمات مصرية تعلمها بعد مجيئه الى مصر أنه يحبها .. وأنها أول حب فى حياته!

وزادت كمية الدماء الوردية المتصاعدة الى وجهها .. وأسلبت جفونها سبلة خفيفة .. وبكل حاسة فيه .. بكل درة فى كيانه .. بكل لهفة العالم التى تجمعت فى عينيه .. استعد لالتقاط ما تهمس به شفتيها.

وتمتمت فى خفوت ..

ـ وأنا كمان .. يابشير.

لحظتها لم يدر من أين واتته الشجاعة .. ولا من الهمه هذا الخاطر .. فمال عليها واقتطف منها قبلة .. سريعة .. وخاطفة .. وقصيرة. الا أنها كانت كلقمة مغموسة بكل ما فى العالم من عسل نقي مصفى ..

فى اليوم الثالث .. كان بشير يعانى من حيرته، فها هو قد تأكد من عواطفها. ولكن هل هو قادر على أن يتزوجها .. ان هناك فى المغرب مجتمعا لن يرضى .. وأسرة ستغضب وفتاة لا يعرفها ربطوا مستقبلها بمستقبله.

والوقت يمر ..

عقرب الثوانى فى ساعة اليد يجرى لاهثاً يلف ويدور صانعا الدقائق وعقرب الدقائق يلف ليصنع الساعات .. وعقرب الساعات يلف يستعجل آخر النهار الذى ستذهب فيه نوال.

وعقله هو الآخر يلف .. لكنه كطاحونة الهواء لم يصنع شيئا.

حتى انتهت فترة العمل الميدانى بالقرية .. فى منتصف النهار. وعادوا الى المركز، كان بشير ما يزال مبعثرا لم يستقر. كان السؤال .. هل يتزوجها .. يخبط على جدران ذهنه، وفى مواجهته يقف ذلك الطيف لانسانة لم يرها .. لم يعرفها .. قالو انها خطيبته .. ربطوا بخيوط وهمية مصيرها بمصيره ..

حتى فى اللحظة التى وقفت فيها سيارة صفراء كالحة كسيارات الجيش. لتقل نوال وزميلاتها بعد أن انتهت أيام تدريبهن بالقرى التى يعمل بها المركز.

كان السؤال حتى تلك اللحظة .. ما يزال يرن فى داخله، له صدى غائر عميق، صدى كبير طويل ممدود لا ينتهى، كصدى أجراس كنيسة تدق فى واد مهجور.

كان يقف وسط المركز الرحب الواسع، منقبضا، مبعثرا، حزينا، حتى عينيه اللتين تشخصان اليها وهى تمزق من بعيد وفى يدها حقيبتها لتركب السيارة. هاتان العينان تبدوان منطفئتان كأن لحظة الفراق صعقتهما، جعلتهما أشبه بعيون من زجاج.

كان يرقبها من بعيد ..

لم يجد فى نفسه حتى القدرة بحيث يذهب اليها ويودعها ..

الا أنه فى آخر لحظة أفاق الى نفسه وانطلق يجرى ليقف أمام بوابة المركز التى ستخرج منها السيارة، ربما على الأقل يستطيع أن يتزود منها بنظرة أخيرة .. نظرة وداع ..

وفى اللحظة التى تمهلت فيها السيارة وهى تمر من أمامه مجتازة البوابة ..

فى هذه اللحظة .. رأى نوال تطل من شباك السيارة .. وتودعه بهزة من يدها .. وأستطاع أن يرى دموعا تلمع فى عينيها ..

ولم يعرف ماذا يعمل ..

كل الذى استطاع أن يقوله وهو يرى السيارة تنطلق، ان صاح بصوت واهن ملهوف محروق مشروخ كأنما يراها يبتلعها العدم ..

ـ نــوال ..

ثم أومأ بيده .. وتابع بنظرات حزينة منكسرة السيارة حتى ذابت فى الطريق ..

وظل واقفا ..

وفى وقته تلك كأنه أشبه بعمود التلفون المثبت قريبا منه .. للحظة عندما تنبه الى نفسه .. شعر بأنه وحيد فى هذا العالم .. وبأنه تائه مسكين ..

وفى ذهنه ما زال يتردد صدى السؤال .. هل يتزوجها.

وهناك فقط تذكر ..

بأنها سوف لن تعود، وبأنه لن يلتقى بها ثانية، سوف يبتلعها الريف المصرى .. فى دمنهور أو بنى سويف أو الاقصر حيث سيحدد لها مكان عملها .. وهو سيعود هناك الى وطنه البعيد .. الذى يشرف على محيط كبير واسع عميق..

وسيعود الى وظيفته، وطيف زوجته التى لا يعرفها.

ستأخذ هى مدارها..

وسيمضى هو كأي درة فى دوامة الحياة لمداره المرسوم له.

هذه التى كانت للحظات بعض من حياته .. من عمره .. من نبضات قلبه .. سوف لن يلتقى بها ثانية.

وشعر لحظتها كأن مئات الأيدى المجهولة، أيدى غليظة قاسية .. تمتد لتمزقه من الداخل تعصر أشياء فى أعماقه.

وشعر كأن اليافا تتصاعد من ريقه .. هل صحيح لن يلتقى بنوال بعد اليوم هذا غير صحيح، حتى وان كان صحيحا فانه لن يصدق، ان كل شئ فيه أضعف من أن يحتمل تصديق هذه المسألة وأحس بنفسه كائن ضعيف وصغير وهش. واحساس بأنه لا يساوى شيئا يملأ عليه وجداناته .. ربما معها كان يساووي. كان له معنى .. لكنه بدونها لا شئ .. كورقة الجنيه المقصوصة نصفين .. هو هذا النصف

المقصوص. الذى بلا نصفه الآخر لا يساوى شيئا فى السوق.

والحزن داخل قلبه له هدير يكاد يسمعه بأذنيه.
وأحس بكل ما يحويه هيكله من أشجان تثور.

وانتزع نفسه من وقفته المزروعة تلك .. وفى خطوات سريعة منفعلة مرتبكة .. اجتاز بوابة المركز الأمامية. وبنفس الخطوات السريعة المرتبكة .. سار عابرا ساحاته وأروقته. وبنفس الخطوات صعد السلم المؤدى الى قسم حجرات النوم .. حتى عندما تعثر فى بعض زملائه وأساتذته على السلم، لم يكلم أى أحد منهم .. ربما لم يلاحظ حتى النظرة المتعجبة، التى شيعوه بها.

واصل خطواته السريعة المنفعلة المرتبكة.
ووصل حجرته ..

وبنفس الحالة المنفعلة، فتح الباب، ثم قفله، وتقدم بنفس الخطوات السريعة المنفعلة المرتبكة الى السرير وهو يلهث، كأنه قادم لتوه من مشوار صعب متعب طويل.

ثم ارتمى على السرير.
وارتعشت ملامح وجهه .. وتقلصت تقلصا حزينا .. أليما .. ثم انخرط يبكى .. بصوت مسموع .. بكاء حزينا قاتما .. وطويلا طويلا.

■

البحر لا ماء فيه

المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى
في القصة لعام ١٩٦٥ من اللجنة العليا لرعاية
الفنون والآداب

الأهــــداء

إلى الذي حمل «القنديل» وأضاء أمامنا الطريق
إلى يوسف ادريس

احمد

حول القصة الليبية

بقلم كامل المقهور

لم يعد خافيا ان القصة في الأدب الليبي تمثل إلى جانب الشعر انضج أنواع الأدب الذي تفجرت امكانياته بعد الاستقلال فعلى الرغم من معاصرة الشعر الليبي لسنوات طويلة من حياة الشعب وعلى الرغم من حداثة نشأة القصة الليبية على نحو سوى .. فإن المتتبع للحركة الثقافية يمكنه القول بان القصة الليبية قطعت شوطا بعيدا وحققت انتصارا لم يكن من السهل تحقيقه في باقي عناصر الثقافة الأخرى .. ويمكن ملاحظة هذا الأمر كما وكيفا .. فقد قدمت القصة الليبية عناصر متوافرة العدد خلال العشرين سنة الأخيرة .. قدموا انتاجا واضح الوفرة .. فضلا عن ان هذا الأنتاج لم يكن يخلو من قيمة فنية في شكل اضافة تتسم بطابع الجدة من جهة وبطابع العمق والخصوبة من جهة اخرى، حتى يمكن القول بحق ان القصة الليبية كانت أقرب الأشكال الأدبية مواكبة للنهضة الثقافية العربية وأكثرها تمثيلا للوجه الثقافي لهذا الشعب مما جعلها تتبوأ دون شك هذه المكانة التي تمثلها، وجعل النقاد يتجهون اليها يبينون مواطن الجمال في تناياها ويجعلونها رمزا للثقافة الليبية التي ما فتأت تسير جنبا إلى جنب مع خطوات شعبنا المكافح، بل لعل ذلك هو ما دفع أكثر الأقلام الجديدة الى الاتجاه اليها والمساهمة في حفر طريقها وتكثيف جودتها، واضافة اضافات جديدة اليها.

ولم يكن الفن الروائي غريبا عن الشعب الليبي .. بل ان سنوات الجدب الثقافي كانت تلجأ بفنون الأدب الى احضان الشعب تردها اليه ليقوم بدوره بصبها في قوالبة المعهودة ـ فنونه الشعبية ـ يحفظ اصولها وان استعمل لها أدواته فلم تخل الحكايات الشعبية والحواديت من عنصر الرواية ولم يخل الأدب الشعبي من الشكل الدرامي للقصة وللرواية في بعض الاحيان .. مما جعل للاديب الليبي الحديث

رصيدا لايستهان به يستغله حين انفتحت امامه الطرق لارتياد الأشكال الثقافية الحديثة .. فكما حفظت ألف ليلة وليلة الشكل الدرامي للرواية العربية وكما حاول الهمداني والحريري خوض غمار القصة القصيرة .. كانت جداتنا ومجالس السمر في دكاكيننا تحفظ الى حد ما عنصر الرواية والدراما في أدبنا الشعبي عندما كان الأدب والفن يكبلان بقيود شديدة من الارهاب والضغط .. بل ان بعض اشكال القصة في الادب الشعبي لا تخلو من عناصر كثيرة من عناصر الفن الدرامي وان فقدت سلاحها واداتها في السرد واستعملت سلاحها هي وادواتها مما يجعل للفن القصصي جذورا في ادابنا الشعبية ويجعل من السهولة بمكان العودة اليها باعتبارها خلفية ثقافية لفن القصة الجديد الذي تفجر بعد الاستقلال. وعلى ذلك فانه يمكن القول بان فن القصة عامة ليس جديدا على الثقافة الليبية وليس صنوا لهذه الحركة الجديدة التي يرتادها المثقفون .. وهو ان تغيرت وسائله في التعبير فان شكله كان دوما موجودا بوسائل تعبيرية اخرى .. وكان دور القصاص الليبي هو الاستعانة بهذا التراث وهذه الخلفية لخلق فن روائي حديث وسيلته في التعبير هو اللغة العربية التي استردت مكانتها بعد ان فك عنها القيد واصبحت وسيلة التخاطب ووسيلة التعليم ووسيلة الاستعمال في دواوين الحكومة ووسيلة التعبير الوحيدة في وسائل الاعلام والثقافة. ولقد بان هذا الاثر واضحا في اتجاه الكتاب الى فن القصة القصيرة دونما الرواية فالعامل التاريخي لنشوء الرواية في الادب الليبي يجعل من القصة القصيرة الابن الشرعي للبناء الروائي في هذا الجيل فقد تميزت الدراما لدى الادب الشعبي بالزجل و«الخرافة» او ما يسمى بالحدوثة .. وهي حكاية بسيطة تعبر عن لحظة معينة تحكيها الامهات والجدات للاطفال تحكى مغزى معينا يتطلب سرعة السرد ونهايته في اضيق نطاق .. وكانت طبيعة السرد وظروفه يجعل من الرواية الطويلة غير متمشية مع هذا الظرف. بل ان فقد وسائل النشر وحفظ التراث الشعبي كان يجعل من «الرواية» الوسيلة الوحيدة للنشر .. والرواية والحفظ يتطلبان على ما ارى قصر الموضوع .. وقصر النص .. حتى يمكن تداوله وانتشاره، وليس ادل على ذلك في رأينا من أن «الزجل» فقد اعظمه الا ما كان سريع الحفظ قصير النص .. على درجة غير كبيرة من الطول. وكانت الرواية كشكل درامي تبقى بين مرتاديها فيما دون في كتب وردت من الخارج وقبل فترة الاحتلال كالف ليلة وليلة وقصة عنترة .. وما الى ذلك. بينما اقتصر الابداع على محاكاة الاشكال الدرامية القصيرة مما دفع بالقصة ـ والحكاية الى أن تترعرع وتنمو داخل البيوت على حكايات النساء. وفي الحوانيت والسهريات على السنة الرجال .. بل انني اذهب الى اكثر من ذلك فارى ان فترات كفاح الشعب لصد الغاصب كانت مناخا طيبا لنمو الحكاية القصيرة والاشكال الأدبية التي تعتمد على «الرواية» دون التدوين .. فما من شبهة بان فترات النضال يمتاز أول ما تمتاز به ضيق الوقت وسرعة التنقل وعدم الاستقرار .. كما تحمل في طياتها حكايات الأيام يوما بيوم .. فلم يكن المجاهدون يعرفون مصير الغد .. اين مقره .. واين نتائجه .. بل كانت الحكايات تنقل عن معركة يوم وعن موقف لشخص معين .. وعن لحظة لموقف .. وعن حوار سريع متقطع لمجاهدين .. وعن حادثه بسيطة لمجاهد فقد حياته .. أو انتصر في موقف .. مما قيد الرواية وجعلها تقتصر على الحكايات اليومية المتجددة المختلفة .. ونقل الاسطورة من حياة البطل الطويلة الى موقفه اليومي ومعاناته الانية .. وكم كان هذا الموقف يتجدد .. وكم كانت هذه المعاناة تختلف من يوم الى يوم .. مما جعل من عنصر «اللحظة» طابعا يميز معظم الاداب والفنون في تلك الفترة .. ويطبعها بالسرعة والقصر

والاختصار فلم تكن الحكايات تحكى عن المجاهدين من يوم مولدهم حتى مماتهم. ولم تكن الرحلة الدرامية تلازم «البطل» اسطورة تحكى عن انشقاق القمر يوم مولده وخمود الرياح يوم وفاته .. بل كانت «الحكاية» تحكى عن يوم معين من حياته أو موقف وقفه .. او لحظة استشهاده ـ مما طبعها دون شك وبشيء من التجاوز بطابع القصة القصيرة وجعل لها بعض عناصرها .. وحفظ الى حد ما طريقة ابداعها .. بل انني قد اذهب الى اكثر من هذا وذاك فارى بان الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهذا الشعب لم تكن الى فترة طويلة تعطيه طابع الاستقرار لنشوء انواع من الثقافة تحتاج الى طول في البحث أو وقت للتأني .. فقبل نشوء المدينة الحديثة التي ابعدها عنها المواطن الليبي .. وحتى نشوئها كانت الحياة الاقتصادية تتسم بطابع السرعة في الانتقال بحثا عن وسائل الرزق .. لاتستقر استقراراً طويلا يمنح الفرصة لنشوء عنصر الرواية او الملحمة بل كانت تحمل في ظروفها عنصر السرعة واللحظة الشعرية او القصصية .. فالانطباع هنا انطباع سريع متجدد يتطلب مواقف متجددة ولحظات تعبير متغيرة .. مما يتنافى الى حد ما مع عنصر الرواية او عنصر الملحمة .. وانه وان جاز القول بان العمل الروائي يمكن ان يستوعب حدثا صغيرا او لحظة او فترة قصيرة ـ جيمس جويس في او ليس .. الا ان هذا مجاله تكنيكا قصصيا متطورا .. وليس واجهة ثقافية لوضع بائس وايام سوداء وسنوات من العنت والقهر .. وفضلا عن هذا وذاك فان الاسوار التي صنعها المستعمر بين هذا الشعب وبين اشكال الثقافة التي كانت تتكون في الخارج نتيجة تطورات اقتصادية واجتماعية جعلت من ثقافة هذا الشعب ثقافة بدائية لا تتجاوز حدوده ولا تستلم ثقافات اخرى ولاتستفيد من أي تطور جديد في تكنيك العلم او الفن والادب. وليس من المجحف القول بان بداية الانفتاحة الثقافية حتى في اشكال الفن والأدب العربي انما جاءت على يد عناصر كانت لها فرصة لممارسة الحياة خارج السور. وان ساهمت عناصر اخرى كانت سجينة فقد كانت مساهمتها لاتتعدى التقليد بينما وردت كافة انواع التجديد على يد المهاجرين أو ابنائهم الذين فروا من الظلم أو على يد الطلبة الذين اتيحت لهم فرصة الدراسة في الخارج، على ان الامر قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية كان سيئا حتى في البلاد العربية الأخرى كانت هناك قوى استعمارية تسيطر على اوجه الثقافة والتعليم في اغلب بلاد الشرق العربي .. وكانت اللغة العربية تلاقى العنت والضيق حتى في البلاد المستقلة استقلالا أسميا .. وكانت الثقافة توجه أوجها بعيدة عن ان تطور مضمونها او تصنع بها شكلا حديثا .. وانه لولا بعض العناصر التي حملت الثقافة سلاحا جبارا في معركة نضال شعوب الشرق العربي لما تلمس الأدب العربي عناصر التعبير الجديدة ولما وجدت اشكال الثقافة هذا التعدد وهذا التنوع الذي نراه اليوم .. بل انني أذهب الى اكثر من هذا فأرى أن انغلاقية الشعوب العربية التي فرضت عليها الى ما قبل الحرب العالمية الثانية وعدم اتاحة الفرصة لها للمشاركة في الأحداث التي تدور في المنطقة بعدت بين المثقفين وبين تلمس أبطال روائيين بالشكل الحديث .. وجعلت همهم محاكاه أغراض الأدب القديم والنسج على منوال السابقين في الأدب العربية فبرزت بالتلي صعوبة نشوء اشكال أدبية جديدة انما نشأت حالات اجتماعية حديدة وأنماط وأشكال من الواقع الجديدة. وربما كان ذلك لأن الثقافة كما سبق القول لم تكن الا لخدمة أغراض المستعمر وخدمة حاجات الطبقات المساندة له مما جعل بالتالي نضوج الرواية او الملحة او حتى القصة القصيرة بشكلها الحديث رهينا ببروز صفة البطل في الحياة العربية .. البطل اليومي الصانع

للأحداث .. وبروز طبقة من المثقفين آلت على نفسها رصد حياته وتحركلته وسرد تاريخه عن طريق عكس حياته وتطويرها. ولعل نجيب محفوظ والحكيم ويوسف أدريس لم يكونوا الا انعكاسا لهذه المشاركة من نماذجهم في الحياة ولعل بروز أدبهم لم يكن الا بروزا لهذه النماذج في الحياة العامة بل لعل تطور أدبهم من سلبيته ونماذجه المريضة الى عناصر جديدة دافقة بالحيوية، لم يكن الا تصويرا لرحلة الشعب المصري من شعب يعيش على هامش الأحداث الى شعب يصنعها يوميا بالمعاناة والصبر والكفاح.

وتأسيسا على هذا وذاك فان الأدب القصة في ألدب الليبي هو هذا النتاج للمسيرة الطويلة التي سارها الشعب الليبي .. هو هذه الخلفية الثقافية في الحكاية والخرافة وهو الانفتاحة التي حظيت بها الثقافة بعد الحرب العالمية الثانية حيث عرف الشعب نفسه مصاعب الكفاح وذاق خلاوة النصر ثم عرف مثقفوه على فترات متباعدة معين الثقافات الأخرى وأصولها ونماذجها وقواعدها وأشكالها المتعددة ولعله من الجائز القول بأن الفترة التي سبقت الاستقلال كانت فترة دفع شديدة دفعت ببعض المناضلين السياسيين الى مطالب شعبية دافقة تكونت على أثرها أحزاب متعددة ببرامج متباينة ومطالب حديثة .. ودفعت بالمثقفين الى سرعة الاستجابة للتيارات الحديثة في الثقافة والأدب يبدأونها بعنصر المحاكاة يقلدون كل شيء جديد يحاولون اختصار الزمن، والقضاء على فترة الموات الثقافي للحاق بالركب .. فما من شلك في أن الاستجابة للشعر الجديد كانت استجابة سريعة وما من شك في أن خوض المثقفين للأشكال الجديدة في الثقافة والأدب كانت جهدا واضحا حتى يمكن القول بأنه في فترة لا تتجاوز العشرين سنة عمرت الحياة الثقافية بأشكال متعددة من الفن والأدب ما كان يمكن أن يخوضها المثقفون لو لم يكونوا أبناء أصلاء لهذا الشعب الذي حافظ على ذاتيته وعلى ثقافته وأصالته طيلة ثلث قرن من القهر والغلبة والابادة. بل أن جماهير الشعب نفسه كانت سريعة الاستجابة الى وسائل التفكير الاجتماعية الجديدة والى الأساليب الجديدة في السياسة والحكم والاقتصاد مما انعكس معه الأثر كل الأثر على الثقافة والفكر فنمت ونضجت كافة المحاولات التي بدأت مؤخرا وكان نتاجها هذا الفيض من الأنتاج وكان من نتيجتها هذه الدرجة من الأتقان والنضج التي تعمر بها الحياة الثقافية...

على أنه أن كان من الجائز الوصول الى النتائج السابقة فيما يخص جوهر الثقافة ومضمونها وموقفها من تاريخ الشعب الليبي .. فان الخوض في شكل هذه الثقافة يبدو صعبا وغير سهل المنال فقد ابتدأت النماذج الأولى لأدب المثقفين الليبيين نماذج تنقصها الدراية بأشكال الأدب ..ينقصها في أغلب الأحيان الالمام بالقواعد الشكلية للعمل الفني فسميت الخاطرة لفترة ما بالقصة .. وولدت بعض المحاولات مشوهة تحتاج الى الدراية بأصول الفن وكانت العاطفة وعدم الالمام بالظروف والقواعد العلمية تغلب على البحث .. وكانت القصة بوجه خاص تأخذ طابعها من طابع الحدوثة والحكاية في الأدب الشعبي وتسير على منوالها .. وهي وان استعملت اللغة العربية الا أن استعمالها كان وسيلة للنشر بل أن هذه الأداة طغت حتى على الحوار فجرى على نحو من العربية تسهيلا له وتمسكا بإستعمال هذه الأداة كأداة وحيدة للثقافة وكردة فعل للحرب الشعواء التي تعرضت لها الثقافة العربية، بل أن الشعر على الرغم من سرعة استجابته للجديد وتبنيه الأشكال الجديدة كان ولا يزال تتنازعه الأشكال فينظم

شعراؤه قصائدهم في اشكال قديمة وأخرى حديثة، بل أن بعض الأشكال الحديثة في الشعر لازالت على نحو من عدم النضج يبعد بها حتى عن الشعر نفسه بل أن هذه المسيرة في الشكل كانت مسيرة واجبة ولعل فضل الذين أرتادوا الثقافة أنهم على الرغم من عدم المامهم ببعض القواعد الشكلية كانوا الرعيل الأول الذي مهد لهذه النقلة .. الذي جعل من ثقافة هذا الشعب تفيض بهذا الانتاج الذي يقف الى حد ما إلى جوار أداب العربية بل الى جوار أداب الشعوب الأخرى.

وما من شبهة في أن أعظم خدمة قدمت لشكل الأدب الليبي هو معرفة شبابه بالواقعية .. ذلك بأنه اذا كانت لمثقفي هذا الشعب من فضيلة فقد كانت دوماً هي هذا الالتصاق بالواقع التصاقاً هدفه تطويره وخدمته فعلى الرغم من هذا العمر القصير للأدب الليبي فان المتطلع له يجد بين طياته اهتماماً واضحاً بالواقع الليبي .. ومعالجة قضاياه واستيقاء مواضيعه وبلورة مضامينة من المعاناة اليومية لهذا الشعب فبرزت على الخصوص في أدبه مشاكل المرأة والحجاب والسفور، مشاكل الشباب والتعليم، مشاكل العامل والفقير والطبقات الاجتماعية المقهورة .. علاقاته الاجتماعية وتطويرها اقتصاده ومدى الاستفادة منه .. التقدم بفئات الشعب والعناية باجتياجاتها حتى أنه من العسير أن تجد قصة أو قصيدة دون أن يكون النموذج الفعال فيها هو هذا المواطن الكادح الذي يصنع كفاحه من مشرق الشمس حتى مغيبها .. وكان لابد إذن والأديب الليبي يصنع مادته من هذا الواقع أن يلتئم شكله .. أن يحصل على نمط من التعبير الأدبي يوائم مضمونه ويتمشى مع الموضوع الذي أختاره فاستوى الشكل الأدبي .. ونضجت التجربة الشعرية واستقامت القصة القصيرة وبعد الحوار عن لغة الأحاجي واستعاض عنها القصاص باللغة العامية وتحددت معالم الشخصيات القصصية حتى لتحس بأنك تراها أمام عينيك حية نابضة بالحياة .. وغاص القصاص بوجه خاص في نماذجه حتى صنع من بعضها ملامح انسانية رائعة تتحرك على الورق بمثل ما تتحرك على الواقع .. تشق في سبيل أن يكون للحياة طعم آخر.

ولم تكن مسيرة الشكل طويلة ولكنها كانت مسيرة شاقة فالشكل حصيلة ثقافية يتمثل في معرفة اللغات وفي الالمام بالقواعد وفي المثابرة على القراءة والدراسة وفي تكوين شخصية معينة للأديب داخل مدرسة ينطوي تحت لوائها .. ولكن الأديب الليبي خاصة القصاص كان يشتق شكله من واقع حياته وحياة أبطاله وكانت جماهيرنا تصنع أشكالها بسرعة .. تستجيب للأحداث .. تعاني مشاق الأنسان عبر العصور .. تحاول أن تلحق بالركب وكان النهج الواقعي يسمح للأشكال الأدبية بأن تتطور دون قيد من قواعد جامدة غير متطورة مما دفع بشكل القصة في الأدب أن يضيف اضافات الى شكل القصة في الأدب العربي الواقعي .. ولعل في ملاحضة أبو هروس والمصراتي والقويرى والفقيه والشريف والتكبالي والهاشمي والرويعي وفي النماذج الجديدة ما يسمح بالقول بأن رافداً من روافد الواقعية قد تكون، وأن مسيرة القصة الليبية كانت مسيرة شاقة ولكنها أفاضت هذا الفيض وأضافت هذه الاضافة يحق لنا أن نفخر بها ونعتز.

وهــكذا ..

فان أحمد الفقيه ليس نباتاً ليس نباتاً شيطانياً ولكنه حلقة في هذه السلسلة التي تتشابك لتصنع الثقافة الليبية.

وهو منذ بدايته للقصة سنة ١٩٥٨ كان يقترب بشدة من مواطن الجمال في أدب هذا الشعب .. يستقي حصيلته من حياة الناس في بلدته الاصلية «مزده» وينمي شكله ومفهومه العام من الحصيلة الثقافية في المدينة .. ثم يغذى هذين الرافدين بهذا التيار الجارف من الأدب الواقعي في الشرق والغرب .. فنماذج الفقيه هي هذه النماذج التي عايشها في «مزده» .. هي هؤلاء البسطاء الذين يحن اليهم .. وهو الى جانب ذلك يجعلهم يتخلصون من سلبية حياتهم .. وروتينيتها ليكتسبوا شوقاً الى الحياة الجديدة .. هذه الحياة التي اكتشفها الفقيه في المدينة والتي شربها دفعة واحدة.

على أن الفقيه ليس دائماً مستبشراً بالحياة .. ان مسحة من الحزن تمشي على نماذجه وكأنها ساكن قديم يعيش في أعطافهم .. وكأنهم لايعرفون الاستبشار .. ان الالم صديق قديم للفقيه .. وهو يحاول أن يكسب ألم الناس مشاعر حزينة .. وكأنه يخشى أن تموت الجدوة في قلوبهم ان أحسوا الضحك واشتاقوا الى الأمل .. ولربما كانت هذه المسحة بقايا رومانسية لا زال الفقيه يعانيها وهو يحاول أن يجد في المدينة مدخلا الى الحياة الجديدة.

على أن ذلك كله ليس كل فن الفقيه وليست النماذج التي نشرت في المجموعة هي كل اصالته .. ان المعاناة واضحة في هذه البلديات .. والشكل لازال يحتاج الى كثير من التطوير والجهد .. ولكننا جميعا نعرف أن ما نشر من القصة الليبية في مجموعات ليست كل القصة الليبية، ان شوطاً واسعاً قد قطعه الفقيه وزملاؤه .. وربما في نشره في المستقبل ما يلقى كثيراً من الضوء على القصة الليبية.

وان كان في مطالعة هذه المجموعة ما يسمح بالقول بان القصة الليبية قد استوى عودها ووقفت على قدمها فان ذلك ليس الا نتيجة لهذا التطور .. ان أحمد الفقيه وخليفة التكبالي ويوسف الشريف يقفون اليوم على قمة التطور .. وان في نتاجهم ما يشكل اضافة تجعل من السهل التنبؤ بأن القصة الليبية لازال أمامها شوطاً يجب أن تنهي بناؤه..

وبعـــد

لم يعد البحر بوناً شاسعاً من الماء لايخوضه الا الرجال الاشقياء .. لم تعد الصحراء بحراً واسعاً من الرمال تأكلها الشمس .. لم يعد هذا الوطن بحراً يعيشه الشقاء .. صحراء يأكل أبناءها حر الشمس .. لم تعد الطرق مقفولة تسدها جحافل الجنود .. يأكل زرعها الجراد .. وتعيش على مخزونها الفئران .. فمنذ أن تفجرت امكانيات هذا الشعب، أصبح البحر لا ماء فيه، خاضته مئات الاقدام تبحث عن منفذ للحياة والثقافة .. وأصبحت الصحراء طريقاً قديماً تشقه مئات الأرجل تبحث عن وسائل الرزق. وتلونت السماء بلون فضي تارة وأزرق مرات .. وغامت عليه السحب ولكنها تظلل مئات

الأزهار وهي تتفتح تلف حياة الناس وتبعث الدفء والجمال.

ولقد كانت هذه المسيرة طويلة وشاقة. فما البحر الأزرق المالح لم تكن لتبخره الا مئات الأنفس الحارة .. ورمال الصحراء الحمراء المحرقة ما كانت لتتعبد طرقاً الا بأيدي المئات وأرواح آلاف ودماء الملايين .. ولكنه الطريق الشاق .. بل انه مئات الطرق الشاقة ولقد قدم هذا الوطن مئات الأنفس ... ونفث مئات الأنفاس في سبيل أن يصير البحر لاماء فيه.

١٣ - ٨ - ١٩٦٦ م

كامل المقهور

البحر لا ماء فيه

ـ توت .. تووت .. توووووت السفينة تفك قيودها من رصيف الشاطئ، وتطلق نداءاتها.

ـ تـوت .. تـوووت

نداءات تتماوج .. تقصر وتطول هي تحية وداع، مناديل وداع تنشرها السفينة في الفضاء لمدينة نابولي.

النداء الذي تبعثه صفارة السفينة يثير حزنا في القلوب، حزناً لا كما نعهد الحزن قاتماً أسود بل حزن طيب خفيف كالغمام الأبيض، هو ذلك الحزن اللذيذ الذي يصاحب لحظات السفر والوداع والتلويح بالمناديل البيضاء في الفضاء .. السفينة تنطلق..

وطيور البحر كثيرة من ورائها ومن حولها، بيضاء ورمادية. تصوصو بثرثرة وتنشر أجنحتها في سعادة، وترافق السفينة في رحلتها مع المد.

السفينة تكف عن نداءات الوداع.

ونابولي تبتعد. تتلاشى. السفينة تشق البحر تثير من حولها معسكرات من الفقاقيع البيضاء.

ونابولي تتحول هذا الليل الى نقطة ضوء. كل شواطئ ايطاليا تبدو شريطا رفيعاً من الضوء: يظل يبهت حتى ينطفئ تماماً. تماماً.

ولا شيء غير الليل وسواده والبحر ووشوشة امواجه. السماء مفروشة تتبعثر فيها نجوم وهلال لونه أصفر والبحر ـ تحت النجوم ـ مستلقياً في دعة مصقولا، وناعماً، وطيباً...

والسفينة تنزلق فوق الماء. في خفة ورشاقة، سعيدة بالليل والبحر والنجوم، وحيتان البحر وأسماكه التي لابد انها الان تداعب قاعها وتصطدم به وتحاول أن تعضه.

السفينة عامرة بالناس المسافرين، هم لابد فرحون بالسفر. هم يتناثرون في المقهى والمقهى نظيف، وكراسيه مريحة، وأضواؤه ملونة وهادئة وتنعكس في أرضية المقهى المصقولة، وفي الكئوس المصفوفة بعناية في الادراج خلف بنك الخشب الكبير.

والعجائب يدردشين ويرتشفن القهوة بصوت عال، والرجال يلعبون الدومينو، وينفثون دخان السجائر، ويتعارفون على بعضهم البعض بسهولة من أين والى وأين وما اسمك ويصبحون أصدقاء يعزمون بعضهم على الدخان ويتبادلون كروت العناوين ويتضاربون على أكتافهم، ويقولون للجرسون التركي «تشكر آدرم» وعدة أطفال، تناثروا يتقافزون بأحذيتهم الصغيرة على الكراسي الخالية ويتشعلقون بأركاب النساء والرجال

والركاب، هم كركاب أية سفينة خليط من الأجناس، وهذا الخليط لابد أن يكون أحد عناصره الالمان، وكان هناك عدا الالمان الأتراك الراجعون الى اسطانبول، والاغريقيون الراجعون الى بيرية وأثينا، وكان هو وحده عربياً وصحفياً ووحيداً.

وهناك التقيا. هي فراشة صغيرة .. وهو شاب من ذلك النوع الذي أول ما تراه تحس بأن هذا الشاب ستكون له شيخوخة مهيبة، وهي ترتدى بنطلوناً، البنطلون أزرق، والقميص نصف كم، وبدلته هو كاملة، البنطلون والجاكيت وربطة العنق الرمادية، وقميصها ملون كأجنحة فراشة، وبه ورود وحيتان ورأس غزال وخطوط خضر وبنية وبنفسجية تماما كأجنحة فراشة، وهو يحمل سحنة سمراء وعيونها سوداء حبات زيتون، ومن سحنته سيعرف على طول أنه عربي، وشعرها أسود، ديل حصان، والحصان عنيد وجموح فديله هذا دائما يهتز وينش في الهواء ويتراقص.

وهو كالسر يسألونه في السفينة ماذا ستكتب وعمن، وهو يقول سر المهنة، وهي تمشي رشيقة، لا هي لاتمشي هي فراشة، تطير، وتتقافز .. وهو يجلس .. كرسيه فوتيل كبير ووحيد وبجواره النافذة، والغليون أسود وصغير ودائما في جانب فمه وعود كبريت مشتعل بين اصبعيه، وهي تنقر. تنقر بأصابعها المقصوصة الاظافر على البيانو في الصالون وتنقر بكعب حذائها الرفيع على ظهر السفينة، وتنقر بنظرات ورموش عينيها على أرضيات القلوب، وهو يشرب البايب وينشر من حوله سحباً كثيفة من الدخان. تصنع من حوله ستارا شفافا يساهم في صنع السر، وهي من اليونان عائدة إلى أثينا بعد أن ساحت وتجولت في أنحاء أوروبا، وهو قصاص، وككل القصاصين العرب، لابد لكي يعيش ويقص أن يشتغل بالصحافة، وهو كتب كثير، وصور بناتاً لم يلتق بهن افترض فيهن الرشاقة واللطافة والعذوبة، وهو لأول مرة يكتشف بطلة حقيقية كبطلات قصصة لطيفة ورشيقة وعذبة حقاً.

وفي الليلة الأولى نظر إليها من خلف غلالة الدخان التي تحوطه، واكتشفها، وبقي تلك الليلة يرقب

اكتشافه ويستمتع به من بعيد، كالذي اكتشف جزيرة مجهولة في عرض البحر فظل واقفا على شاطئها ليعطي نفسه فرصة يستمتع فيها بلذة الاكتشاف، وقال لنفسه مقرراً يوم الغزو.

ـ في الغـد ..

غداً سيكلمها وسيتعرف عليها، الناس في السفن يتعارفون بسهولة، وسيبادلها كرت الأسم والعنوان، وسيحكى لها عن قصصه، ويسعده أن يستمع منها الى تفاصيل رحلتها وحياتها وستحكى له لابد عن بيتها في أثينا وعن دراستها وسيطول بينهما الحديث حتى يصل الى «المرأة والرجل وبينهما الحب» وأخذ يدرب نفسه على أن يكون رباناً ماهراً لسفينة الحديث حتى يدير الدفة في الوقت المناسب للموضوع المناسب، ولكن الغد خيب أمل الفارس، فقد كان يظن أنها تتكلم مثله الانجليزية .لكن هي لاتتكلم سوى لغة واحدة «اليونانية»، ونفث ساعتها سحباً كثيفة من الدخان ووقف على سور السفينة يضربه بقبضة يده في ايقاع منتظم وعنيف كان السور هو المسئول عن اختلاف اللغات.

لماذا هذه اللغات التي تنتصب كالاسوار بين الناس. ونحن نضحك بلغة واحدة، ونفرح بلغة واحدة، ونحزن بلغة واحدة، ونحب بلغة واحدة .. لماذا لانتكلم أيضاً بلغة واحدة لماذا لايتكلم كل الناس بلغة واحدة .. هو يريد أن يقول لها أشياء كثيرة، ويريد أن يعرف عنها أشياء أكثر لكن اللغة جدار والجدار يحول بينه وبين أن يحقق هذه الرغبة.

هو حزين .. الحزن في جبينه وفي عينيه وفي ملامح وجهه، وعاد الى كرسيه ينفث دخان غليونه الاسود، في دفعات سريعة وكثيفة .. كأنه يكتب بدخان غليونه وبحروف لغة لن يجهلها أحد.

ـ أنا قلق ومنقبض وحزين

وجاءت هي لتجلس في كرسي قبالته .. ونظرت إليه، ورغم أن نظراتها لم تكن مركزة تماما عليه فربما هي تنظر للستارة المسدلة فوق نافذة من ورائه، ولكن هذه النظرة الواحدة وغير المركزة، استطاعت أن تفعل به العجب، فقد أنسته في ثانية واحدة كل ما شعر به من ضيق وحزن. كنست أحزانه والقت بها الى البحر..

وعادت نظراتها إليه تتخذ شكلا مركزاً..

هي تنظر إليه، هو ينظر إليها. هي إذن مهتمة به.

هي مثله مهتمة. هو يبتسم هي تبتسم. التقينا وربما حدث هذا لان كل من في السفينة من الكبار. كلهم رجال كبار ان لم يكونوا كهولا أو شيوخاً فهم على الاعتاب. وكلهن نساء كبيرات، زوجات وأمهات وعجائز. وكان لابد أن تبحث عن الاقرب الى سنها ويبحث هو عن الاقرب ربما لا الى سنه فقط بل والى خياله وروحه واحساسه البالغ الرهافة.

وعادا يتبادلان النظرات..

واحس كأن هناك ثمة لغة أخرى تتجاوز كل ما في العالم من لغات .. هي لغة العيون. يقول بعينية .. أين أنت من زمان يا بطلة اسطورية، عانيت مهمة خلقها، وسهرت الليل من أجل أن أجعل من ثوبها أجنحة فراشة ومن عينيها حبتي زيتون. ومن دقات كعب حذائها عزفا على أوتار قيثارة، وهي تقول بعينيها .. وأنت أينه يا فارساً عربياً وسيما. وبعينية يقول. وأنت أين؟ يا فراشة وثبت إلى هنا من بلاد اليونان. ما قاله أرسطو وأفلاطون من حوار يا بنيه أتينا العظيمة ـ اراه مكتوباً في عينيك على حبتي زيتون. مكتوباً بلغة أفهمها وأحفظها وأعرفها جيداً.

وفي الصالون كان ثمة بيانو كبير لونه بني. والبسط في الصالون تركية وستائر النوافذ خضراء ومفروجة نصف انفراجة. فبان من ورائها البحر ممتداً ومتماوجاً وأزرقاً وهي تعزف على البيانو بحذق ومهارة. اصابعها المقصوصة الاظافر كانت تتراقص فوق أزرار البيانو .. فتخرج الانغام كالفراشات .. كعصافير صغيرة تنطبق لها أجنحة مخضبة. هي الان تكلمه بلغة الموسيقى. هي تنقر له على البيانو، كتلك النقرات التي يرسلونها عبر اللاسلكي من السفن والمواني والابراج العالية. نقرات صغيرة وخفيفة وتحمل آلاف المعاني. هي الان كأنها تقول له بهذه الشفرة الخاصة .. أنت لي !!

وهناك في البعيد كان البحر يتعانق مع السماء!!
هو في بلاده معروف بثوريته، هو ينقد كل شيء، فهو يريد لمدينته أن تكون مدينة فاضلة، ربما لا مدينته فقط أو وطنه فقط .. هو يريد كل العالم أن يكون عالماً فاضلاً .. ينشد دائماً الفضيلة والكمال وهو الان. في هذا الزمان في هذا المكان يشعر بأن أمنيته الخالدة تتحقق له لأول مرة ففي عينيها وجد دنياه. وجد عالماً فاضلا وكاملاً. وهو هنا يشعر شعوراً أكيداً وعميقاً بأنه يعيش في قلب العالم الذي حلم به. هنا في عيني حفيدة أفلاطون ذلك الجد، الفيلسوف ، الحالم الأول بالمدينة الفاضلة.

وفي المساء وقف هو على السور وأتت هي واتكأت بمرفقيها على السور بعيداً عنه.

هي تتأمل الغروب وهو يتأمل، الشمس حجمها صار كبيرا وأحمرا وملتهباً كشهاب كبير وتوزع أشعتها فترتعش كل ملامح الافق بالأضواء الشفافة المخضبة. كانت هي تقف كالعابدة السحب الصغيرة المتناثرة حول الشمس تقترب، تحاصر القرص الكبير، والقرص الكبير يفلت من شباكها بخفة ومهارة هو أيضا يرقب المباراة، هو متحمس للشمس ربما هي أيضا متحمسة مثله للشمس. ويكاد هو يصفق عندما يرى الشمس تنفلت من سحابة صغيرة ماكرة ويقول:

أووو ... جـول

كان وهج الشمس الاحمر ينعكس على مياه البحر. فيبدو وكأن ثمة مصابيح داخل البحر تملأ مياهه بالنور. كانت السفينة تواصل انزلاقها. وطيور البحر الكثيرة. البيضاء والرمادية تصو صو. وتتقلب

في الهواء. وتتلاعب بأجنحتها.

وجوانب السفينة المطلية حديثاً بطلاء أبيض تعكس الوهج الذهبي فيرتد بالتالي معكوساً على مياه البحر التي تحف بالسفينة فتبدو السفينة كأنها تسير في هالة من النور المتوهج.

السفينة تنزلق .. مخلفة وراءها الافق بشريطه الطويل العامر بالأضواء والالوان والعبير .. لكن الافق لايبتعد .. انه دائما على نفس البعد من السفينة. والسفينة تبحر. وتسرع في العوم. والافق على نفس المسافة دائما. كأنما هو مشدود بخيوط رهينة تمتد تحت الماء الى السفينة فتسبحه دائماً وراءها بشمسه وسحبه الصغيرة وشريطه المتوهج.

البحر بساط تطويه السفينة والدنيا كرة. والكرة تدور والبحر لايندلق ماوءه لان الكرة تدور والناس والمدن لا تتقافز في الهواء لان الكرة تدور. ماذا لو توقفت الكرة لحظة عن دورانها. ولو عطل صغير أصاب المكنة التي تديرها، فوقفت لحظة؟ ماذا؟ سوف تتناثر المدن .. في الهواء سوف يندلق البحر في الفضاء الكوني وسفينتهم هذه سوف تهوى في الفضاء. ستتحول سفينة كونية تعوم في الفضاء في رحلة أبدية بلا محطات وبلا حبال تشدها الى الرصيف. هي تبحر دوماً. لن تكون بحاجة الى وقود ولا زاد. ولن يكون أمامها ميناء بيريه لتقف فيه ولاميناء اسطانبول. هي سفينة بلا مواني. تعوم في بحر كوني بلا شطئان. ولا ماء، ولا حدود. ولاقاع.

وعندها، عندما تنطلق نداءات الوداع الحزينة ــ تووت توت. توت ــ ستكون أكثر ايقاعا وأكثر تعبيرا لانها تودع عالما قديما. ضيقاً متهالكاً. عالم عاش فيه الناس تفصل بينهم جدران من اللغات والاديان والاجناس والالوان حتى تصدع وانهار وهوى. وتستقبل عالما جديدا .. عالما آخر رحيبا واسعا لا نهائيا.

وهى ــ عالمه الفاضل ــ ستكون معه فى السفينة الكونية. ستكون معه حواء الجديدة. وسيكون هو آدم الجديد.. سيصنع معها بشرية جديدة بجنس واحد ولون واحد، ودين واحد وتتكلم لغة واحدة ونظر اليها بارتياح وتساءل بينه وبين نفسه.. فى سذاجة أتراها أيضا تداعب مخيلتها نفس الاحلام؟

كانت هي ماتزال فى مكانها من السور.. تتأمل.. الوهج ينعكس عليها هى أيضا على وجهها وشعرها، كأنها ليست كائناً بشرياً، بل هي كوكب من كائن آخر. هبطت الى السفينة محتفظة بوهجها وهالة النور حولها. والسفينة تبحر، والافق كحمل وديع تسحبه وراءها. الدنيا قرص يتوهج،. وطيور البحر الوديعة ما تزال تصوصو، وتداعب نسيم السماء بأجنحتها، واقترب عصفور بحرى رمادى اللون. وقف على السور قريبا منها. وتألقت فى عينيها فرحة طفولية، ووثبت.. مدت يدها لتمسك العصفور. العصفور وثب.. فوثبت خلفه، والعصفور يثب.. وهى تثب.. العصفور يقفز وهى كذلك. وصل العصفور بجواره. أقتربت هى فى خفة. مدت يدها ولم تطل يدها العصفور. أقتربت حتى التصقت به.

جسده التصق بجسدها وذراعه التصق بذراعها. وأصابعه التفت قريبا من أصابعها وحملة يهاحرقت كتفة الايمن فقد مد هو أيضا يده يمسك لها العصفور. هي لحظة التحام بريئة. واستطاع أن يمسك العصفور. والتقطت هي نفسا طويلا ـ دليل الارتياح التام ـ ومرت أنفاسها بوجنتة وبشفتيه وباهداب عيونه. ثم ابتعدت وسلمها العصفور وهو يهتز.. في سعادة.

وغمرته حالة من النشوة البديعة ولاول مرة يرى نفسه يقول بانفاس مبهورة.

أمسك هاهي لحظة السعادة؟ والعصفور في يدها يريد ان يفر، ينتفض وينفش ريشه ويصفق بجناحيه ويعض اصابعها بمنقاره الصغير في غيظ. ما الذى جاء بالعصفور الصغير هنا. ربما اتى ليصطاد له سمكة صغيرة. ولكن الصياد اصبح صيدا. يالك من صياد وديع وتعيس الحظ.

واستطاع العصفور ان يفلت من اصابعها. وحاول ان يمسكه لها الا ان العصفور فر بعيدا. وتابعاه.. وهو ينشر جناحيه الصغيرتين، ويطير بعيدا. وقال لها بعينيه وباشارات من اصابعه لابد ان عصفورنا الوديع له انثاه، تنتظر عودته هناك على احد الشواطئ البعيدة..

وضحكت.. رغم انه كان واضحا انها لم تفهم مايريد ان يقوله؟ وعاد ينظر الى البعيد، كان القرص الكبير الاحمر، يقف على حافة البحر تماما، كان يتهيأ للانغماس. وهو ينظر اليه. وهى تنظر اليه.. كأن هذا القرص لهما.وحدهما. يخافان عليه من الضياع!!

كان قرص الشمس في هذه اللحظة من الغروب يبدو تماما ككرة كبيرة جميلة ملقاة فوق البحر. بل لعله فكر في انه لوكان البحر يابسا لجرى الى القرص الجميل ودحرجه بقدمه حتى اتى به هنا ولعب به معها مباراة ودية في كرة القدم!

وتمنى لو أن القرص يظل باقيا على هذا الوضع لا ينغمس. لكن قرص الشمس بدأ تدريجيا في الانغماس اختفى في الماء المالح جانبه الاسفل.. وقال في نفسه حتى هكذا.. ليبق.

ولكن القرص بسرعة انغمس حتى بقي نصفه. ونشر النصف الذى لم يغرق بعد وجهه على كل بقاع البحر ـ اذن ياالهى ـ ليبقى حتى هذا النصف.

ولكن النصف واصل اختفاءه، بقى مجرد الجانب الا على الصغير كقطعة صغيرة من الجمر تحرق الافق: وهذا الشطر الصغير. ألا يبقى؟

وانطفأ الشطر الصغير في مياه البحر.. وانسحب من فوق العالم ذلك الرداء المتوهج الاحمر، كأن الشمس اعارته له لحظة، ثم عادت فسحبته!

ونظر اليها.

كانت فى عينيها نفس اللهفة. تبادلا النظرات. كأنهما يقولان بتلك اللغة الاخرى المشتركة التى تتجاوز حدود هذه اللغات القاصرة الضيقة الحدود..

لقد ضاع قرصنا الذهبى!

ومن حولهما كان السحر الذى ينبض به المكان.. قد بدأ يختفى فجأة ليعطى الفرصة لكآبة موحشة تظل تتحرك فى كل الزوايا.

وعندما قضيا جزءا من اول الليل فى صالون السفينة مع بقية الركاب.. كان عندما يبادلها انظرات يشعر بأن بينه وبينها رصيدا كبيرا من الذكريات المشتركة. عن سفينتهما الكونية، وعن عصفورهما ذلك الصياد الوديع وعن قرصهما الذهبى الذى ارتشفه الافق!

وفى عينيها كان يرى نفس المعنى!

وفي صباح اليوم التالي كانت بلاد اليونان تلوح فى الافق شريطا رفيعا من الارض!

وعندما وصلت السفينة الى ميناء بيريه، وعندما اطلقت صفارتها بالتحية وعندما شدتها الحبال الى رصيف الميناء كان هو ما يزال يستمرى سعادته، ولا يحاول ان يصدق انها هنا ستنزل. وأنه لن يعود الى رؤيتها. وأن عينيها حبتى الزيتون. ستختفيان عن عينيه الى الابد!

توت.. تووووت.. توت

السفينة تنشر مناديل وداعها لمدينة «بيريه» وفى هذه المرة كان النداء الذى تطلقه صفارة السفينة يخلف حزنا مرا وقاتما فى قلبه.. هو فى المقهى يلتفت حوله شمالا.. ويمينا.. باحثا عنها. كأنه لا يصدق انها ليست فى السفينة، وانها منذ لحظات نزلت الى ارض بلادها وعندما لم يجدها بدأ يكتشف الحقيقة وبدأ يصدق أن فراشته الفاضلة طارت.. وانه فعلا لن يعود الى رؤيتها. وان عينيها حبتى الزيتون حقا، ستختفيا عن عينيه الى الابد.ولحظتها بدأ يشعر كأن عالمه الفاضل ينهار.. الفراشة الوادعة لها مخالب حملت بها عالمه السعيد طارت وتركته كطير يوم مسكين يعيش وسط عالم ملئ بالخراب كان كل شئ امام عينيه يهتز وينهار.

حتى السفينة لا تعرف كيف تعوم، كأنما أصابها غثيان البحر. وهو. كان هو أيضا يحث بغثيان البحر يسرىفى جسمه. فى حلقه. فى خلايا رأسه. الدنيا تلف به والسفينة تدور من تحته ورأسه يلف. ولاول مرة يكتشف أن السفينة مليئة بالعجائز، وأن الذين يشربون القهوة والشاى يشربونهما فى جلافة وقلة أدب بشفطات عالية وكريهة. وان مناضد المقهى مليئة بحروق صغيرة بانت كالجروح المتقرحة. وأن الجرسون أظافر أصابعه طويلة ومتسخة. وان التركية العجوز أم الاطفال أصرت على أن تنشر غسيلها القذر على حبال مدتها فوق السفينة. وضاق بالمقهى. فخرج الى ظهر السفينة. شعر بمكانه المفضل بجوار

السور كئيبا. هو من غيرها كئيب. والدنيا كرة تدور. ورأسه يلف ويدور. والاحزان فى رأسه تلف وتدور هى أحزان لزجة. ومقبض الباب فى غرفته أحس به فى يده كرة من عجينة. والبحر من النافذة الصغيرة لزج. والفراش عندما ارتمى عليه لزج.

والعالم كرة. كرة طرية لزجة. والالياف تملأ حلقه والسفينة فى وضع غريب. كأنها لا تسير. وهى أيضا لا تقف. ولا تهوى. هى فى وضع شاذ غريب. البحر قد جف ماؤه. غول مخيف بشع له شوارب كبيرة يسيل من أطرافها لعاب لزج. وينبت فوقها شعر كبير كالشوك ارتشف كل ماء البحر. وبقى البحر لا ماء فيه. والسفينة لا ماء تحتها. هى تمخر فى القاع. تمخر بتلبك ويأس. فى وحل القاع وبلا فائدة. ونزلت من عينه دموع لزجة.

■

محمد يوسف المريني

المجر

ذات مساء..

كان كل شيء فى القرية يسير فى الخط الذى يسير عليه كل يوم. تماما كما كان بالامس وأول أمس، ومنذ عام مضى عمران يزاول مهمة رفع الماء من البئر بالدلو والبقرة، يقدم لمزروعاته وجباتها اليومية، كان يمشي ويرجع خلف البقرة عبر المجر المحفور فى الارض. وكان الجبل الذى يجر على (البكرة) تتصاعد منه نغمة حلوة رتيبة، وعمران يغني، ويستحث البقرة، ويهش عليها بالعصى ولا يضربها ويواصل رحلته التى لا تنتهى عبر مسافة لا تزيد بأى حال عن خمسة أمتار! !

و«المبروك» الفارس بين يديه. والعرق ينز من جبهته العريضة. وأنفاسه تتردد مجهدة مبهورة. وهو يعزق الارض فى بستانه الصغير.

والحاج سالم يحرث حقله الذى يموج بسنابل القمح والشعير، يطرد حمارا من هنا. ويصيح فى قطيع أغنام من جهة أخرى، ويرمى بالحجارة سربا من العصافير نزل فى جهة ما من الحقل وأحيانا يجلس لينصب «المنداف» الكبير فى المكان الذى وجد به آثار أقدام ذئب أو ثعلب يتسلل تحت جنح الليل الى حظيرة الدجاج. وكل أهل القرية يزاولون أعمالهم اليومية. يتفرقون هنا وهناك. هذا يسوق قطيعا من الأغنام وقد ضاع صوته فى صياحها المتواصل ـ ما..ماع..ما..وآخر يشمر عن ساعديه، ويفتح قدميه، واقفا على حافة أحد الآبار يرفع الماء ويدلقه فى أحواض من الحجر لجماله الكثيرة التى راحت تتدافع وتشرب الماء بنخير عال. فى حين يهمهم هو بصوت مجهد ياههم.. ههم .. ههم..

كل شيء في القرية هادئا طبيعيا ذلك المساء. وفجأة (وكم هو شيء نادر في القرية، اندر من الذهب هذا الذى نسميه فجأة) وفجأة أتى أحد الرجال مهرولا، وأخذ يزرع صيحاته فى القرية، كأنه

النذير، كان صوته مشحونا بالحرقة واللوعة والخوف وهو ينبيء الناس فى القرية بأن (الجراد) على أبواب قريتهم الصغيرة. ان الرجاله التى لا حصر لها تنام هذه الليلة بالبطاح القريبة التى لا تبعد عن القرية سوى خمس كيلو مترات.

وكأنما استحال الناس فى القرية إلى مجموعة من المجانين يجرون هنا وهناك فى زعر وخوف.

كان واضحا أن كل إنسان فى القرية يشعر بأن وحشا مخيفا يتربص له .. فى كل زاوية وكل منعطف، وتحت كل جذع شجرة.

والبعض من أهل القرية ذهبوا إلى شجيراتهم ومزروعاتهم يكلحون أعينهم بها. ينظرون إليها فى حنين ولهفة، فمؤكد أنها مع شروق شمس الغد ستستحيل على يد الجراد إلى مجرد ذكريات ليس إلا. والحاج سالم ذهب إلى رأس حقله ينظر اليه فى حسرة ولوعة، لم يغالب حتى الدمعة التى ترقرقت فى عينيه. ولأول مرة يرى الطيور تنزل فى الحقل فلا يرميها بالحجارة، ويرى الشياه تتقدم نحو الحقل فلا يصيح فيها بصوته المشروخ، كان واضحا أن خبر الجراد يشل كل شيء فى الحاج سالم وكان لا حديث فى القرية الا عن الجراد. ماتت حكايات الشيوخ على أفواههم. والنساء اللاتى يتجمعن فى أكوام أمام مستوصف القرية أو على البئر عندما يملان الماء نسين فى تلك اللحظة أحاديثهن عن النساء الأخريات أرحنهن من السلق فى مراجل السنتهم. ولم يعد يشغل الجميع الا هذا الغول الهائل الذى إسمه «الجراد» .. الجراد الذى سيبدأ مع شروق شمس الغد غزوه المدمر لقريتهم الصغيرة، الجراد الذى سيستبيح كل شجرة فى القرية فيعريها من حلتها الخضراء، يجلدها من ظلها الوارف، يحيلها الى أعواد يابسة ميتة الجراد الذى سينتزع اللقمة من فم الحاج سالم وعائلة المبروك وأبناء عمران وكل إنسان فى القرية. فهم جميعا لقمتهم فى أشجارهم وزراعتهم. التى سيجعل منها الجراد .. اثرا بعد عين.

اذ الجراد الذى سيحيل كل شبر أخضر فى أرضهم الى جدب وخراب والجراد .. الجراد .. الجراد. الجراد.

أشياء كثيرة تجعل أحاديث الناس فى القرية تتوحد كأن يموت إنسان ما، أو يقبض البوليس على نفر فى القرية متهما بجريمة ما .. أو تصاب بالجنون امرأة عجوز الا أن الشيء الذى يوحد أحاديثهم، ويوحد معها مشاعرهم ومصائرهم. والذعر فى خطواتهم وفى أعينهم. فهذا ما لم تشهده القرية فى تاريخها الطويل الا هذا المساء. فالانفعال كان واضحا فى نظراتهم. فى طريقة كلامهم. فى.

وكعادة رجال القرية دائما عندما يدق الخطر أبواب قريتهم الصغيرة، يشعرون دائما بضرورة إجتماعهم بالمسجد. لهذا فبمجرد ما ارتفعت عقيرة عبد النبى بآذان المغرب. وحى على الصلاة .. حى على الفلاح .. حتى هرول كل رجال القرية الى المسجد. وكان المسجد لا يشهد مثل هذا التزاحيم الا فى حالتين عندما يكون هناك عيد، وعندما يكون هناك ثمه شعور بالخطر وأمام القرية كان أهل القرية

يقفون فى حزمة واحدة كانوا أحيانا يتكلمون فى صوت واحد. كانت أصواتهم غاضبة. ووجوههم يغشاها حزن عميق. وأيديهم التى نفرت عروقها الزرقاء يلوحون بها فى عصبية ظاهرة.

وكان بعض الشيوخ مضى فى سرد حكايات قيمة عن الجراد عندما هجم على قريتهم ذات مساء بعيد، ليحليها من قرية مزهوة بوداعتها وجمالها وخضرتها، كالعروسة، الى أرض خراب ينعق فيها البوم. ومرت سنة طويلة قبل أن تسترد القرية ثوبها الذى نضاه عنها الجراد. وبالغ شيخ آخر فحكى حكاية قال أنها حدثت قديما. عن عشرة من الرجال كانوا ينامون ذات ليلة فى مكان ما باحدى الشعاب. وكان أن هاجمهم الجراد وهم نيام وفى الصباح لم يبق لهم على أثر، (نعم .. حتى العظام أكلها يااخوان) ثم يأخذ الخيط الفقى مصباح ليتكلم بطريقته الخاصة عن الجراد، فكان يرفع يديه الى أعلى كأنه يتلقى بهما صاعقة ستنزلها السماء فوق رأسه، ويفتح عينيه على وسعها فى انبهار كما يفعل دائما عندما يستحضر شرتوخ وشنبروخ وغيرهما مما يسميهم اصدقائى ملوك الجان. ويتطاير لعابه وترتج لحيته البيضاء الكثيفة، ويمضى فى كلامه، بأنه عندما تقضى ارادة الله العلية بانهاء هذا العالم فان ذلك سيكون على يد طوفان عظيم من الجراد، يرسله الله لفناء العالم، يأكل الرجال والنساء والأطفال، ويأتى على الحيوان والأشجار ويلتهم القصور (وممكن الحديد) أيضا.

حكايات فظيعة عن الجراد. وخطر الجراد. الجراد. الجراد. وكان رجال الدين يقفون بوجوههم السمراء الغاضبة، يشعرون بالمأساة تزداد عمقا فى قلوبهم كانت أحاديث الشيوخ تشحن أعماقهم بمقادير هائلة من المقت، لهذا الجراد. يشعرون بانه لا الموت ولا الطاعون ولا كل مصائب الأرض، بامكانها أن تعادل مصيبة الجراد. وتمتم رجل عجوز والشعور بالخطر يهز كل شيء فيه اللهم لطفك يارب اللهم عفوك يارب.

وارتفع صوت يتساءل فى غضب والآن ماذا فكرتم لنا يارجال ؟؟ وتبعه آخر.

نعم يارجال، ما العمل يارجال؟.

وانبثقت أصوات كثيرة، الا أن جميعها تتساءل، كان الجو مشحونا باشارات الاستفهام التى تعقف رؤوسها فى حيرة، ما العمل؟ ما العمل؟ ما العمل.

وكان أول اقتراح من الفقى مصباح الذى قال أنه لا يجوز أن يفكروا فى غيره وهو أن يزهبو جميعا هذه الليلة الى ضريح سيدى أبو قنديل.

وهناك يضيئون له الشموع، ويطلقون له أبخرة الجاوى والفاصوخ واللوبان، ويتوسلون اليه بجاهه عند الله أن يبعد عن القرية هذا الخطر. وبعد ذلك بامكانهم أن يرجعوا الى بيوتهم وينامو هانئين فسيدى أبو قنديل سوف لن يخيب رجائهم، سيبعد الجراد عن طريق قريتهم فى التو والحين.

الا ان اقتراح الفقي مصباح سرعان ما ضاع فى غمارات الاقتراحات الاخرى، التى كانت من بينها اقتراح عمران الذى انصتوا اليه بتمعن، ذلك لان عمران فى الاربعين من عمره اى بمعنى انه تجاوز سن الطيش وهذه ميزة. والاخرى انه لم يصل بعد الى ارذل العمر وهذه ميزة اكبر. وكان اقتراحه يقضى بان يضرموا النار فى جهات متفرقة من البلدة فربما يتخذ الجراد وجهة اخرى غير وجهة القرية عندما يرى الدخان. ولانه ليس هناك ما يؤكد ان الجراد سيتخذ عندما يرى الدخان وجهة اخرى فانهم سرعان ماعادوا يمدون اعناقهم ونظراتهم فى انتظار اقتراح اخر، رغم عمران الذى كان يحرك قبضتة ويحرك رأسه ايضا فى غضب، مدافعا عن اقتراحه. وكان المبروك يغرس رأسه الى اسفل ولم يقل شيئا، جسمه فقط كان يتململ فى غير ارتياح وكانه يجلس على قرية نمل. (والمبروك فى الخامسة والعشرين من عمره، جبهته عريضة، ووجهه يضرب الى السمرة، وعيناه كالشعلتين تعلوها حواجب خفيفة الشعر، والده مات وترك له اسرة كبيرة وبستانا صغيرا يستنزف جهد المبروك اليومى وهو بالكاد يتمكن عن طريق البستان من انتزاع لقمة العيش للاسرة الكبيرة)

وكانت الفكرة التى تتردد بين جدران ذهنه، تبدو له احيانا مضحكة. وكان خائفا من انه لو قالها لضج الجميع بالضحك، وربما خامرهم الشك فى سلامة عقله ..

كان ما يزال يفكر وهو ساهم ساكت ..

ولكزه احد الجماعة لينبهه الى انهم يسألونه رأيه فى الاقتراح الذى قاله الحاج سالم، والذى يريدهم ان يستعدوا لمطاردة الجراد القادم غدا للقرية، باحداث صخب وضجة بطرق الحديد، وضرب الدفوف، ودق النواقيس، ورن الزجاجات الفارغة، وعن طريق هذه الضجة الصاخبة سوف تغادر ارجال الجراد القرية. بمجرد الوصول اليها وتسلم بذلك القرية.

وكان هذا الاقتراح وحده، الذى ما زاغت النظرات ولا امتدت الاعناق والاذان فى انتظار غيره..

فالقوم بدأوا يفكرون ـ جديا ـ فى العمل به. ولهذا هم يسألون المبروك.

وبدا له ان هذا الاقتراح ايضا سخيف. ونظر الى وجه القوم. كانت سحناتهم مغبرة. وبشرة وجوههم الضاربة الى الاسمرار مشدودة فى حزم .. وتراءى له فى هذه اللحظة ان الفكرة التى تتردد بين جدران ذهنه، ليست باى حال من الاحوال اسخف مما قاله الحاج سالم. وعندما قال له مزارع طويل.. شنبه كذلك طويل..

ـ تكلم يامبروك ما بك. انت ساكت هكذا لماذا؟

الم تعجبك فكرة الحاج، اتراها لا تنفع؟

وجد المبروك نفسه، فجأة يقول

ـ نعم .. اراها لا تنفع.

واستغرب الجماعة.

كان الحاج سالم مقدم الاقتراح يشحذ عينيه وينظر الى المبروك في اندهاش. كيف لا تنفع؟ وعندما، سمع المبروك يقول بانها لا تنفع لان الجراد عندما يطردونه من جهة فانه سوف يذهب الى جهة اخرى، ثم حتى لو تم طرده من القرية فانه سوف يذهب الى بلدان اخرى فيها ناس. وفيها زرع وفيها قلوب تنبض..

عندما قال المبروك ذلك وجد الحاج نفسه بحاجة الى ان يدافع عن اقتراحه. الا ان المزارع الطويل تولى عنه المهمة عندما قال بصوت مشحون بالتعجب والاستغراب ..

ـما هذا الكلام يامبروك؟ هل تريد عندما يأتى الجراد الى قريتنا ان نوقع معه عقدا بالا يزعج القرى المجاورة، التى بها ناس وزرع وقلوب تنبض؟؟ وانتهز الحاج سالم الفرصة ليواصل الدفاع عن اقتراحه.

ـالذى يهمنا جميعا هو ان تكون ارضنا وزرعنا بمنجى من خطر الجراد، وليس ثمه رأى احسن مما قلت لكم؟ وارتفعت اصوات اخرى.

ـهى فكرة الحاج سالم، لن نجد فكرة احسن منها. الا ان المبروك استمر مواصلا كلامه، وكأن احدا لم يقاطعه.

ـفما رأيكم الان، ايها الاخوان، فى فكرة اخرى؟ كان الليل من حولهم بدأ يسدل سدوله .. والوجوه اصبح لونها مبهما يلفه السواد ..ونسمات بعد الغروب تهب عليهم .. تلفح وجوههم .. وتحرك بعضهم يسوى نقاب عباءته .. واشرابوا باعناقهم، فى حين ابتدا المبروك يسرد فكرته .. كان واضحا انه الان يستشعر اقتناعا عميقا بالفكرة التى سيقولها. وكانت سماه تتخذ سمة القائد الذى يشرح لجنوده عملية حربية دقيقة ..

ـ فكرتى هذه .. ان نأكل نحن الجراد بدلا من ان يأكلنا هو. ومن خلال الظلام تبادل الجماعة نظرات حائرة ماذا يقول المبروك؟

وافصح احدهم عما يدور فى ذهنه.

ـ .. لم نفهم .. ؟ .. كيف نأكله؟!

ربما كان الامر مفهوما، اذا ما كان يتعلق بعدة جرادات طائشة يمسكها الاطفال. فيقلونها ويأكلوها. ولكن مع ارجال لا حصر لها فهذا هو العجب. كان يبدو أنهم على استعداد لهضم جبل بأشجاره وتحاريشه وحشراته على ان يهضموا هذا الكلام. وربما ان ما قاله المبروك شئ عجيب .. فلم

يكن مستغربا ان يرين هذا السكون على الجماعة لينصتوا بوضوح الى ما يريد ان يقوله سي مبروك.

وعندما مضى المبروك يوضح فكرته لم يستطع الجماعة ان يغالبوا رغبتهم فى مصمصة شفاههم وتبادل النظرات الحائرة .. التى غالبا ما كانت ترافقها شفاه مقلوبة وكان مجمل فكرة المبروك التى مضى يوضحها فى خطاب طويل .. أنهم فى هذه الليلة وفى هذه الساعات الاولى من السحر .. تماما تماما .. يجب ان يكونوا مجتمعين فى الطرف الجنوبى من القرية: على ألا ينسى كل واحد منهم ان يأخذ معه شوالا فارغا فأمامهم معركة لم تعرفها عهود المعارك من قبل معركة السلاح فيها شوالات فارغات ومن ثم يتجهون الى حيث ينام الجراد ـ وهو عادة لا يستيقظ الا عندما تلهبه أشعة الشمس ـ وهناك يعبئون الجراد النائم داخل أكياسهم الفارغة حيث يعودون الى بيوتهم ليسلقوه في مراجل سوداء ولينتقل الجراد من أجواف الخيش الى أجوافهم هم وتكون أروع عملية ابادة عرفها تاريخ الجراد.

وما كاد المبروك ينتى من ايضاح فكرته حتى كانت التعليقات الساخرة ترتفع من كل مكان فى هذا الجمع الصغير ..

ـ هذا جيش. جيش من الجراد. ليس جرادة ولا جرادتين.

ـ جيش بالملكة التى تحكم عرشه. وهمهم الجميع فى سخرية. وانتز الفقي مصباح هذه الفرصة فرجع يذكر الجماعة. برأيه الاول قائلا بأنهم يجب ان يسرعوا من الان بالذهاب الى ضريح سيدى أبو قنديل، شيخ الاولياء والصالحين.

وفى هذه اللحظة كان الظلام يستحكم أكثر فأكثر. وكثيرا من الاطفال أتوا يستدعون اباءهم الى العشاء .. و(قالت لك أمي العشاء برد).

وكان المبروك يشعر بأن الجماعة لم يتمعنوا جيدا فى الرأى الذى قاله .. وكان يهم بتوضيحه أكثر ..

ـاسمعوا يا اخوان .. واستمر بعد ان هدأت الضجة.

ـحسب ظنى يا رجال، كلام المبروك لا يخلى من صواب.

ـلكن هذا جيش من الجراد اذا انتشر فى الجو حجب السماء عن الانظار. ويريد المبروك من هؤلاءالمجتمعين الذين لا يزيدون عن الخمسين نفرا جمع الجراد والقضاء عليه. هذا هو المستحيل بعينه. وأطرق الشيخ مسعود برأسه قبل أن يقول.

ـ ولماذا هؤلاء الخمسون نفرا فقط؟ لماذا لا تخرج القرية كلها بكبارها وصغارها، العجائز والكهول والاطفال والنساء والشباب، ويشارك الكل فى عملية جمع الجراد. وران سكوت ..

فقد فتح الشيخ مسعود نافذة جديدة على اقتراح المبروك بقوله هذا .. كان واضحا أنهم الان

يراجعون أنفسهم حول اقتراح المبروك.

وكان أول الرافعين رأيه التأييد الحاج سالم.

ـ وأنا كذلك أقول .. أن رأى المبروك ليس به عيب وتوالت التأييدات.

ـ والله صحيح، لماذا لا نجرب هذه بالليل، وأذا لم تنفع لجأنا بالنهار الى فكرة الحاج سالم.

ـ ونضرب عصفورين بحجر. نقضى على الجراد من جهة. ومن جهة أخرى نتحصل على أكل أطفالنا ليومين أو ثلاثة.

شخص واحد فقط. هو الفتى مصباح رفض بشدة هذا الاقتراح المجنون .. حيث قال:

ـ أنتم مجانين، لا شك أنكم جميعا مجانين.

ثم دق الارض بعصاه، وغادر الجماعة غاضبا. كان واضحا أنه يتعجب لهؤلاء القوم الذين يتركون رأيه الرزين .. ويتبعون اقتراحا مجنونا يقوله طفل صغير كالمبروك.

وانفض الجميع ..

وفى أول ساعات السحر .. تماما .. عندما كان ديك فى مكان ما يؤذن. وكلب ينبح النجوم. وعواء ذئب حمله الريح. من مكان بعيد بعيد .. فى هذا الوقت تماما كان الطرف الجنوبى من القرية يشهد لقاءاً من نوع لم يعرفه التاريخ الاجتماعات فى هذه القرية من قبل.

كان عددهم كثيرا .. كثيرا جدا .. وقد عبر عاشور فعلا. عما يدور فى أذهان الجميع عندما قال أنه لم يكن يتصور أن القرية تضم هذا العدد الكثير من الناس.

وكانت الصفة الوحيدة التى تجمع بينهم هى هذا الشوال الفارغ الملقى على كتف كل واحد منهم أما فيما عدا ذلك فهم خليط عجيب من الرجال والنساء والعجائز الذين تحنى السنون هاماتهم والاطفال الذين لم يمنعهم الليل ولا البرد من أن يتقافزوا هنا وهناك.

وكانت واحدة من النساء قد أحضرت معها طفلها الرضيع وعامر أتى يركب حماره. أما عبد النبى فقد أحضر معه عربة اليد الصغيرة ليضع بها شوالين أو ثلاثة من الجراد. وكان عدد من الكلاب يهرول فى أعقاب ركبهم .. يشكل ذيلا طويلا للركب.

وسار ركبهم الكبير يختلط فيه نباح الكلاب. مع نهيق الحمار مع صليل عربة اليد الصغيرة. مع الصوت الصادر عن أقدامهم التى تضرب عبر الارض الواسعة.

ورغم ان الربيع يوشك على الفوات .. الا ان النسمات فى هذه الساعة من السحر .. بارده

بارده، بحيث تجعل وجودهم تلتهب وأذهانهم وأنوفهم تتحقن وتحمر. أنهم يشعرون بهذه النسمات محملة بعبير أشجارهم ومزروعاتهم بل كان واضحا أن كل فرد يضمه هذا الجمع يميز الان فى هذا العبير .. رائحة شجيرات البرتقال فى بستانه. أو سنابل الحنطة فى حقله .. أو البلح فى شجيرات نخله ولم يكن ثمة قمر يضيئ المكان عندما كانوا يسيرون. الا أن النجوم تلمع كأنها عيون السماء .. ما يزال ضوؤها يبدد شيئا من الظلمة.

أما عندما وصلوا المكان الذى ينام فيه الجراد فان أعمدة الفجر النورانية التى يتفجر بها الافق كانت كافية لتنير أمامهم المكان بحيث يستطيعون جمع الجراد بسهولة.

وكان هذا الافق يبدو أحمرا ملتهبا .. كان يبدأ حمرتة من رؤوس القرون الضاربة الى الزرقة ثم يتصاعد بها حتى تتلاشى فى السماء السوداء وكان التهاب هذا الافق فيه حيوية ونبض وحركة .. حتى ليتهيأ لك أن نار الهية هائلة تستعر خلف هذه القرون. تجعل الافق يلتهب بهذه الصورة.

وكان الجراد قد اختار لنومه هضبة عريضة انتشر فوقها. كان يبدو تحت أضواء الفجر وكأنه حقل كبير لا ينتهي من سنابل الحنطة المصفرة في لون الذهب. التى حان أوان حصادها.

وكانت لحظة البدء فى العملية ..

وابتدأ القوم يستعدون. خلع الرجال عباءاتهم ورموها فى أكوام متفرقة. وربطوا الاحزمة حول بطونهم. وشمروا سواعدهم السمراء التى ينتزع فوقها الشعر. وأصحاب السراويل الفضفاضة شمروا عن سيقانهم أيضا واختارت أم الرضيع مكانا أمينا تحت شجرة صغيرة وضعت فيه ابنها بعد أن قبلته ولفته فى أسماله الكثيرة بعناية.

ووضع عامر القيد فى قدمى حماره الاماميتين وتركه يأكل العشب. وكان بعضهم قد أحضر معه مطرة الماء .. ونساء أخريات كن يحملن معهن أكياسا صغيرة بها أرغفة من الخبز أتين بها احتياطيا لصرخات الاطفال التى ربما تعلو مطالبة بالطعام. كلها وضعوها فى أماكن متفرقة. وكان كل ما فى المكان يوحى .. بأن عملا عظيما خارقا سيشهده هذا الفجر.

ولم يحتر القوم من أين تكون البداية .. فقد ابيدأوا من سفح الهضبة .. هكذا بانتظام. على أن يواصلوا الصعود تدريجيا .. وعلى امتداد الهضبة امتد الحشد الكبير فى خط مستقيم وكان اتفاق بأن كل واحد عليه أن يمضى فى حجمه للجراد عبر خط مستقيم أمامه.

وجلس الجميع على أركابهم فوق الارض ..

وامتدت الاصابع صغيرة وكبيرة .. خشنة وناعمة .. تزج بالجراد داخل خيش أفواهها مفتوحة .. ابتدأ القوم عملية الابادة للذى كان مقدرا أنه سيبيدهم عندما تشرق شمس هذا اليوم.

الكل انهمك فى الجمع بهمة لا تقاوم. غير آبهين للاشواك ورؤوس الاحجار المدببة التى ربما أدمت أيديهم .. ولا للحشرات والعقارب المنكمشة من البر التى ربما جمعوها فى غمرة اندفاعهم .. كل ما يهمهم الان هو أن الجراد الذى أمامهم يجب أن يجمعوه فى أسرع وقت ممكن .. وقبل أن تكبس عليهم الشمس.

وكان الاطفال يجرون عبر منطقة الجراد الا أنهم سرعان ما يخرجون مدعورين على أثر الصيحات التى تركض اليهم زاجرة ناهرة. وأمي سعيدة العجوز لم تسكت عن الصياح بانهم يجب أن يعثروا على ملكة الجراد قبل أى شئ آخر والغناء يرتفع من أماكن متفرقة فى هذا الخط البشرى الطويل.

عكان بعضهم يغني أغاني الحصاد .. وبعض الشيوخ ارتفعت عقائرهم بالهجاء الذى كانوا يقولونه أيام حربهم للطليان وكأن ثمه رابطة بين الحرب وبين ما هم فيه الآن.

كانت أصواتهم ترتفع..

احنى نحاربوا والغير .. بيننا .. بيننا

على بلادنا والله لا ولينا..

هاولاد يازين .. هاولاد..

وفى مكان آخر يرتفع غناء جماعة فى صوت واحد..

كانوا يغنون .. ياقمر في العالي .. في العالي .. سافر وتعالى .. وتعالى

حتى الاطفال الذين يدرسون بمدرسة القرية اكتشفوا أنه فى هذه اللحظة من الفجر .. في هذا المكان الشاسع .. سيكون الغناء شيئا جميلا وحلوا .. فما لبثت أصواتهم الصغيرة أن ارتفعت بغناء آخر نشيد حفظوه فى المدرسة.

أما الصغار جدا الذين لا يعرفون أناشيد المدرسة، لان أعمارهم ما زالت لم تسمح بدخولهم اليها .. فقد اكتشفوا أن شيئا ما يختفى فى الوهاد القريبة يردد مع القوم الغناء فى صدى جميل .. مما جعلهم يرهفون آذانهم .. ويفتحون أعينهم الصغيرة السوداء فى انبهار .. ثم يصيحون فى صوت واحد:

ـ هــو .. هــوووووو .. هــوووووووو وعندما كان يرد الصدا

ـ هـو .. هـوو .. هـووو

كانوا ينظرون بعضهم الى بعض فى دهشة .. ثم يضحكون ويصفقون فى فرحة عارمة .. وكأنهم عثروا على أعظم اكتشاف فى العالم.

كان الجراد ساكنا هامدا كأنه ميت.

وكان الخط البشرى يتقدم باستمرار. كان أحيانا يبدو منصرما. وأحيانا متعرجا. وفى أحيان أخرى يستقيم حتى أن الجراد يبدوأمامه وكأنه بساط كبير عريض يطويه هذا الطابور الطويل.

وكل واحد منهم يود لو يتمكن من توسيع الرقعة المخصصة ليجمع جرادا أكثر. وحتى عندما امتدت يد مزارع عجوز الى الجراد الذى أمام عمران، كادت تحصل مشادة بين الاثنين، لولا أن المزارع العجوز سحب يده فى الوقت المناسب وبعض الشيوخ الموجودين كانوا فى أزمان بعيدة من ضحايا الجراد .. يستبد بهم الان شعور غريب بأن بينهم وبين هذا الجراد ثأرا قديما .. مما يدفعهم للجمع بغل ولهفة وعنفوان. وفى أعماقهم فرحة، بأنهم الان يردون الثأر. ينتقمون لنكبات سببها الجراد وكانت أصوات كثيرة ترتفع بين الحين والاخر تطالب القوم بمضاعفة النشاط .. وكان أكثرها الحاحا صوت الشيخ مسعود.

ـ اسرعوا يارجال .. انشطوا يارجال

كان يقول يا رجال .. والفجر يشهد أن نصف هذا الخط البشري الطويل يشغره نساء وأطفال.

وكانت الهضاب وهى تردد صوت الشيخ مسعود، تبدو وكأنها تبعث بتأييدها للعملية التى تجرى الان.

وفى احدى زوايا الخط لعبت النشوة بأنفار سبعة من بينهم عاشور. فاتفقوا على أن يجروا فيما بينهم سباقا حول من منهم الاول الذى يسبق بالوصول الى قمة الهضبة حيث نهاية الشوط .. ويكسب الرهان

ورغم أن الانفار الستة الذين مع عاشور كانوا يجهدون انفسهم لدرجة أن حبات العرق كانت تنبتق على جباههم رغم برودة الجو .. فان عاشور الذى سبقوه فى بداية الامر .. سرعان ما وجدوه يقطع شوطا كبيرا أمامهم ثم اذا به يصل الى نهاية الشوط .. ويكسب الرهان كان عاشور فى الخط الطويل بأكمله .. من وصل نقطة النهاية وصاح عاشور فى أعلى الهضبة .. وهو يرفع كلتا يديه فى حماس هاي .. هاي .. هاي ..

كان واضحا أن شعوره فى هذه اللحظة شعور قائد عظيم ينتصر فى أعنف معاركه الحربية .. وتوالى من بعده وصول الاخرين .. وأكياسهم مليئة بالجراد.

وقبل أن تطل الشمس من خلف القرون البعيدة .. حتى كان آخر من تبقى من الجماعة قد أكمل نصيبه. ووقفوا بجمعهم الكبير يشهدون هذه المعجزة التى تمت على أيديهم .. وفى قلب كل واحد منهم فخر بأنه أحد الذين تمت على أيديهم المعجزة. لذلك فهو يبتسم فى سرور.

كانت الهضبة حمراء .. لم يتبق من ذلك الجراد الذى كان يغطيها سوى عدة جرادات تتقافز هنا وهناك وقد راح بعض من الاطفال يتقافزون وراءها.

وكان الحاج سالم ينظر الى الارض الحمراء. وما فتأ يردد أنه حتى الان لا يصدق كيف تم الذى تم. وكان النساء يستعجلن الساعة التى سيصلن فيها القرية. حيث يقمن بسلق الجراد فى (حماميس) سوداء ويقلن فى كل عملية سلق ..

- حلالك، ملالك، سكينك فى نارك، بسم الله والله أكبر

ولسوف يسترحن من دوشة أطفالهن بالمطالبة فى كل لحظة بالخبز الذى فى الغالب ما تكون أرغفته المعددة قد نفدت. سيكتشف هؤلاء الاطفال أن الجراد طعمه لذيذ حتى عندما يذهبون الى المدرسة لن تكون فى شنطهم الصغيرة التى تخب متدلية من خيوط على أكتافهم كسرات من الخبز .. بل ستكون عامرة بحفنات من الجراد المسلوق! ويرجع أهل القرية الصغيرة .. الاكياس مليئة بالجراد على أكتافهم واظهرهم .. والفرحة فى قلوبهم وعلى وجوههم .. حتى خطواتهم تبدو فرحانة .. فقد كانوا يمشون وكأنهم يرقصون.

وكان عبد النبى يمسك بعربة اليد الصغيرة المشحونة بثلاثة أكياس من الجراد .. ويجرى بها خلف الاطفال ويصيح وهو يقلد السيارة - بيب .. بيب .. فيكركر الاطفال ..

حمار عاشور يخب وكأنه هو الآخر فرحان .. حتى الرضيع الذى كانت تحمله أمه على ذراعها كان بكاؤه يبدو جميلا كالغناء وعاشور كان يتندر بالجماعة الذين كسب منهم الرهان.

وجميعهم .. كانوا يضمون قلوبهم على الشوق الذى يحملونه لقريتهم الجميلة الوادعة التى تتراءى أمامهم .. كاجمة خضراء غارقة فى أضواء الصباح

والشمس تشرق عليهم من بعيد .. تجعل ظلالهم .. طويلة .. طويلة .. كأنهم عمالقة، وأحيانا كانت تتجمع ظلالهم فى ظل كبير طويل يتقدم الى الامام .. كأنه ظل انسان واحد لم يعرف العالم أكبر منه .. ولا أعظم منه.

■

الكوشة

الساعات الاولى من كل ليلة، تتسرب بين اصابع الظلام غارقة فى لجة الصمت. البقالات الصغيرة بالقرية تطبق جفونها بعد نهار طويل يزحم بالبيعات البسيطة والانتظار المرير ..

«هويدى» يقفل مقهاه .. المقهى الوحيد الذى يبعثر فيه شباب القرية ماتجمع لديهم من فراغ. الصمت يبتلع آخر .. تيك تاك .. يلفظها ماطور القرية الهرم.

فجأة تنطمس مصابيح الضوء التى تناثرت فى جهات متفرقة من القرية، والتى نستمد مقومات حياتها من هذا الماطور الهرم، فيبرز الظلام أكثر حلكة وكثافة ويستكمل الليل معناه. نيام .. الكل فى هذا الوقت ينامون.

المتصرف ينام وشيخ القرية ينام، وسعدون الشحات ينام، كلهم هؤلاء الذين كانوا يملأون الدنيا صخبا وضجيجا بمشاكلهم الصغيرة، ينامون، يلقى كل منهم بجسمه على سرير أو فوق بساط من تراب .. ويغمض عينيه. ويعلو شخيره .. منتشيا بالاغفاءة اللذيذة .. منغمسا فى عوالم لونتها الاحلام.

حتى رجل البوليس القائم «بالداورية» ليلا .. لا بد أن يخضع للخاطر الذى يلح عليه .. فيبحث لنفسه عن مكان أمين .. يليق باغفاءة مسروقة .. ومن ثم ينطرح ويتمدد مستسلما لسلطان الكرى .. كلهم ينامون ..

شخص واحد .. فقط شخص واحد .. يظل طول الليل لا ينام .. هذا الشخص هو عم عبد

العالي صاحب «الكوشة» الوحيدة بالقرية فهو عليه أن يظل ساهرا أمام فرن الكوشة طول الليل .. يحمى .. ويمسح .. ويرمى الخبز .. ويطرد من عينيه النعاس. والخبز لا بد أن يكون جاهزا مع بواكير الصباح، يشره الناس بسخونته اللذيذة. حتى يستطيع ابنه الوحيد مفتاح الذى يبيع الخبز فى الصباح أن يواصل نداءه على الخبز بصوته الرقيق الذى يقطر اعتزازا وفخرا كما يفعل كل يوم.

ـ سخون، كيف طالع من ناره، ايبوخ. ياللي بتفطر فطورك عندي

وعم عبد العال صابر، الحياة هكذا تريد .. الخبرة تبى والضنى غالى .. وهو لا يروم الصبر من أجل لقمة العيش فقط .. بل وكذلك من أجل طفله الصغير ..

ـ امالا كيف الكبد حرفه .. ومن خلفه الغلالة المتغضنة الكئيبة الحزينة التى تنسدل فوق وجه عم عبد العالي .. كانت ابتسامة صغيرة تأخذ طريقها لتتربع على شفتيه..

ـ متخافش يا فتوحه يا ولدي، باباك على من يخدم، انكان مش عليك.

وتدوب .. شيئا .. فشيئا .. البسمة التى طفحت فوق صفحة الوجه المتعب المكدود.

كلاب .. تمزق حجب الصمت بنباحها المتكرر العنيد. صياح ديك يثقب جدار الليل. قطط رعناء .. تتناوش .. وتموء مواءا ممطوطا، ينسكب فى جوف الظلام، حزينا كئيبا .. يفتت الكبد.

والنار وسط الفرن تستحيل الى هباب وركام .. وعم عبد العالي وحده مع أحزان الليل العريق ينز من وجهه المتغضن، يداه تمتدان الى قضيب طويل من الخشب، برأسه اثبتت خرقة متهرية بالية .... ويلوح بالخرقة فى جوانب الفرن الحالكة السواد، يمسح رمادها، ويسبح بنظره الكليل فى سوادها هذا السواد الذى زحف على أيامه فصبغها بلونه المعتم، وأغنية حزينة تتكسر على ضفاف الصمت. يلوكها فم عم عبد العالي..

ليام .. ياليام .. ياليام
ليام ياعالم على مافيهم
أوقات تحزنوا، وأوقات نزهى بهم
ليام .. ياليام .. ياليام

ومصباح الغاز الازرق الكابى ينساب بلهاته بين تغضنات جدار الكوشة .. وتغضنات عم عبد العالي .. فيبرزه تناسقا وانسجاما بين كلا الاثنين .. حتى لكأن الجدار جزء من تقاطيع عم عبد العالي .. أو وجد عم عبد العالي جزء من جار الكوشة.

مسام هذا الوجه الضارب الى السمرة .. تتشرب كل ليلة الصهيد الذى ينفثه قلب الفرن .. تتشربه حتى الثمالة .. ثم تتقياه فى الاخر بللورات صغيرة تلمع على صفحة الوجه فى ضوء المصباح

الكابي. أقراص الخبز لا تزال عجينه..

وهي ترقد بطوابيرها الصغيرة التي يجوس بينها الصمت فوق قطعة عريضة من الخشب على مقربة من عم عبد العالي كحملان وديعة أعدت للذبح، والقضيب الخشبى الرفيع الذى ينتهي بطرف مفلطح كاليد العريضة المبسوطة أمام قارئ الكف .. يمسكه عم عبد العالي بين يديه .. ثم يأخذ في سحب أقراص العجين على طرفه المفلطح .. ويرمي بها في قلب الكوشة..

الايام .. ياليام .. ياليام

ليام ياعالم على مافيهم

أوقات تحزنوا وأوقات نزهى بيهم ليام.. ياليام

الأغنية الحزينة التي يلوكها فم عم عبد العالي، لا تزال تتكسر على ضفاف الصمت .. النعاس يتسلل في حذر الى عينيه.. يتسلل اليهما على رؤوس أصابعه ..

الاغنية الحزينة لم تفلح في التصدي له..

والجبهات التي تقف فى وجه عم عبد العالي تعددت. الصمت والظلام، وأحزان الليل. ثم الاخطر وهو النعاس ملعون هذا النعاس. عم عبد العالي رغم أنه اعتاد أن يأخذ قسط من النوم أثناء النهار .. الا أنه اليوم لم ينم. اليوم بطوله لم يذق للنوم طعما. وهو شئ خارج تماما عن ارادته .. هذا الذى جعله لا ينام .. ذلك أنه فى صبيحة كل يوم، بعد أن ينهى عمله فى الكوشة. كان يأخذ الفأس والبردعة والحبال و«مطرة الماء» التى لا ينسى أن يبلل الخيشة التى تغلفها حتى يبرد ما بها من ماء ويفرش البردعة على ظهر الحماره ويضع فوقها الاشياء الاخرى ثم يحوشها أمامه مارا بها وسط القرية حتى اذا ما ابتعد عن أعين الناس قال:

ـاشتش .. اش ..

وتقف الحمارة فيعتلى ظهرها. ويهز فوقها رجليه. ويهمزها بعود صغير بين كتفيها. فتسرع به السير. حتى يصل احدى الشعاب، حيث يجمع بالفأس الذى معه من حطب ما يكفى لحمى الكوشة فى ذلك المساء .. ومن تم يحزمها بالحبال، ويحملها ظهر الحماره، وبعدها يعود الى البيت حيث يجد «اذهيبة» زوجته قد أعدت العجينة للكوشة فينام ما تبقى من وقت حتى يحين موعد اشعال النار.

الا أنه اليوم عندما عاد من التحطيب. كان الدقيق لا يزال كما هو لم يعجن .. و«اذهيبة» هى الاخرى وجدها طريحة الفراش .. وعجوز من جارتها كانت تقف عند رأسها وبيدها مجمرة صغيرة يتصاعد منها البخور فى حلقات مختلطا فى الجو بما تحوقل وتمتم وتدعو به من دعاوى وتبريكات .. وقد همست العجوز فى اذنه .. بأن ما أصاب امرأته هو من دلائل الحمل .. وأن مولودا جديدا سيعمر

البيت غدا .. أو بعد غد..

ورغم الفرحة التى زغردت بها أعماقه لم يقل شيئا .. خرج من الدار .. وابتسامة مشعة مثقلة بالسرور والغبطة تتراقص فى مرح على شفتيه..

وكان أن قض كل الساعات التى قد اعتاد أن ينامها .. كابيا على الوعاء الكبير يصب الماء..

ويصب الدقيق ليعد العجين .. وهكذا لم ينم. وهو الان يكابد الشئ الكثير ليظل محتفظا بيقظته. ملعون هذا النعاس. الفتور يتسرب الى ذراعيه ويديه .. ويصب بالعدوى القضيب الخشبى الذى يدفع به أقراص العجين الى قلب الكوشة..

الاغنية الحزينة تتعذب على شفتيه..

الطنين يملأ رأسه .. النعاس يثقل عينيه .. جفونه تنطبق وتنفتح بين لحظة وأخرى.. وصورة الطفل الذى سيولد غدا أو بعد غد تتراقص أمام عينيه. سيكون جميلا .. لا بد أنه سيكون جميلا .. وسيفتح فمه الصغير ويقول «بابا» هو الان ينام ملئ جفنيه فى بطن أمه ولكن .. هل سيلاقى هذه النومة الهنيئة بعد أن يولد .. سيلاقى لماذا لا .. آه .. ماذا لو كل الناس لم تولد. ماذا؟.. ماذا لو هو نفسه عبد العالى المخزومى لم تلده أمه .. طبعا لكان استراح من هذا البؤس الذى يعيشه .. ولكنه .. أيوه .. سيتغلب على هذا البؤس .. هذا المولود الجديد ماذا سيسميه .. المخزومى .. تيمنا باسم وانده لا. سيسميه صالح .. لا لا .. المبروك .. هو هذا خلاص سيسميه المبروك .. مبروك ان شاء الله .. علينا وعليكم.

وعيناه ترمشان فى سرعة وخفه..

والصورة المتعددة المتنوعة المختلفة التى يعج بها رأسه .. تتداخل فى بعضها البعض. وتمور وتختلط وتتشابك محدثة دوامة صغيرة.

وعلى سطح هذه الدوامة تطفح صورة .. يتبينها تومض .. وتتوهج فى وضوح .. صورة طفل صغير. سيولد غدا أو بعد غد..

وتتضخم الصورة..

تتضخم وتتضخم .. حتى تملأ عليه رأسه وعينيه والكوشة. ثم لا شئ يتراأى أمامه .. لاشئ .. سوى صورة الطفل الصغير، الجميل، الذى سيولد غدا أو بعد غد. وتهمد رموش عينيه، ويرقد رأسه على كتفه مستندا الى الجدار. والقضيب الخشبى الرفيع ينام فى هدوء على صدره. والطوابير الصغيرة المتبقية من أقراص العجين التى يجوس بينها الصمت .. تركد الى نفسها فوق القطعة العريضة من الخشب .. وكأنها حزينة على أخواتها احترقت فى قلب الكوشة المعتم السواد..

وكلاب .. تمزق حجب الصمت بنباحها المتكرر العنيد. وصياح ديك .. يثقب جدار الليل. وشخير منغوم، يتسلق جدار الكوشة وكأنه يريد أن يمحو ما غلفتها به الايام من سواد.

■

وفــــاة



ـ السلام .. ماسمعتوش ؟
ـ عليكم السلام .. ان شاء الله خير.
ـ أمي سعيده ..
ـ خير ها ؟
ـ خلاص .. طلعت فى عقلها وخشت .. اليوم الصبح أمى سعيده صابها ما صابها.

كتيار من الهواء سرى هذا الخبر بين أهل البلدة .. وبنفس السرعة السحرية العجيبة التى يسرى بها كل خبر جديد غريب يجد فيه الناس طمعا مثيرا يفتقدونه فى أحاديثهم الروتينية المريرة التي لا تتعدى دائما، الحمارة التى ولدت جحشا، أو كيلة الشعير التى أصبح ثمنها ثلاثين قرشا .. وذكريات الشيوخ التي يمضغونها دائما بأفواههم الخالية من الأسنان لكأنما يعوضون بها عجز أفواههم عن مضغ الطعام، ذكريات جميعها عن الحرب والسنين الغابرة التى ـ وياحسرة ـ لن تعود .. وسرعان ما أصبح هذا الخبر شغل البلدة الشاغل بكبيرها وصغيرها وحديث كل ميعاد يقوم ويعقد فالنساء بجلساتهن الطويلة أمام الأفران التى تحلى الجلسة أمامها لصهيدها الدافى الذى يضفي أمام مجمعهن طعما مخدرا لذيذا يمدد فى عمر الجلسة والشيوخ بعقدتهم الابدية فوق محراب الجامع والذى لو كان بمناهم لقاموا بصلاتهم وتناولوا أكلهم وشربهم وهم جالسون فوقه .. والشبان الصغار المشدودون أبدا الى الكراسي القليلة المتداعية ذات اللون الشاحب التي تعطي معنى باهتا الى أن هذه هى قهوة القرية الوحيدة .. كل هؤلاء كان حديثهم قد توحد .. وغدا يدور حول أمى سعيده التى فقدت عقلها هذا الصباح. حتى الاطفال الصغار الذين يجتمعون ويؤسسون من بينهم دولا وهمية بما فيها من قواد وجيوش تهاجم بعضها

بعضا .. تركوا كل ما هم فيه من لعب وجروا يتسابقون الى الخرابة التى تقيم فيها أمى سعيده .. ليشاهدوها عن قرب.

وأمي سعيده، امرأه عجوز، داكنة السمرة، فى الخمسين من عمرها، شغلتها حمل الماء للمنازل التى لم تدخلها الحنفيات مقابل تسعيرة محدده لا تزيد ولا تنقص .. ست مليمات للبيدون الواحد، لاغير.

أمي سعيده راح كل فرد فى القرية يحكى خبر جنونها، ولا ينسى أن يدعى ـ ورأسه لا ينخفض ـ أنه أول من رآها وأول من لاحظ عليها ما أصابها من مس بفطانته المعهودة التى ليس لها مثيل. جميعهم رووا كيف أن المرأة العجوز امتنعت اليوم منذ الصباح على أن تحمل الماء لاحد وعندما أتوها يستفسرون عن سبب امتناعها، رمت فى وجههم التراب وشخطت فيهم بأنها ليست خادم أبيهم أو جدهم وأنهم جميعا قرود، وأن منصور الوحيد السيد ولسوف يأتيهم اليوم أو غدا ـ هى متأكدة ـ يبرهن لهم عن سيادته وعن أن أمه أحسن الامهات وأعظم الامهات..

وخير الامهات.

وكلام كثير ليس له معنى، ولا يفهم منه شئ اللهم الا أن المرأة العجوز تصابت. ونصور الذى تحكى عنه هو ابنها وقد جند فى الجيش منذ أكثر من ثلاث سنوات وطيلة هذه المدة الطويلة لم يحضر الى البلده ولم تأتى منه حتى رسالة واحدة وأمى سعيده لم تعرف من أخبار منصور شيئا، أكثر من أنه سافر مع الجيش من طرابلس الى برقة وعملت أمى سعيده كل ما تقدر عليه من أجل أن تعرف أى شئ عن ابنها حتى أنها بحتت عمن كتب لها رسالة لبعث بها اليه، حملتها أشواقها وعتابها وقلقها عليه وأنت وين يامنصور؟ وكيف تنسى أمك يامنصور .. وان شاء الله ما عندك سويا وليدى يامنصور .. ولم تنسى أن تكتب له فى آخر الرسالة الابيات الزجلية التى تفتقت بها قريحتها بمناسبة غيبة الابن الطويلة والتى بدأها ـ «الفرقة ياكبدى طعمها مر» .. ووضعت الرسالة داخل ظرف حوافه ملونه اشترته من دكان الحاج خليفة واشترت كذلك طابع بريد بقرش ونصف وضعته على الجواب . وبعتت به الى منصور بغير عنوان سوى ما وضعته تحت الاسم ـ جندى بالجيش الليبى، برقه ـ وبقيت مع دمعاتها تنتظر الرد ..لكن بلا جدوى كان يمر الشهر بعد الشهر وأمى سعيده تتردد كل أسبوع على الشباك الصغير، حيث توزع هناك البوستة الاسبوعية ويقرأ الموظف الكهل الذى يغطى وجهه تعبير ليس له معنى الرسائل حتى ينتهى منها ثم يقفل الشباك، والتعبير الذى ليس له معنى مازال يغطى وجهه الكثير التجاعيد ..

وتظل أمى سعيده واقفة أمام شباك البريد ـ بعد أن يقفل مدة قصيرة من الوقت كأنها لا تصدق أن منصور لم يبعث لها بالرسالة ثم تجر أقدامها راجعة الى خرابتها والدموع .. نفس الدموع تسبق خطواتها المبعثرة.وأحيانا كانت عندما تجد نفسها على كل هذه الحالة تدق الشباك المقفول، فيفتح،

يصفعها وجه الموظف الكهل الذى يغطيه تعبير ليس له معنى ..

ـ أيوه ..

ـ قوللى .. ولدى منصور .. مابعتليش جواب؟

ـ ما هو خلاص .. الجوابات وزعناها قدام عيونك .. ما فيش .. ما فيش. ثم يتمتم وهو يقفل في وجهها الشباك

ـ ناس لا يرتاحوا ولا يخلو من يرتاح .. مهدودة .. حزينه مبعثرة كانت أمي سعيد تعود .. والدموع .. نفس الدموع تسبق جرجرة أقدامها فوق التراب.

والخبر .. يقوم بدوريته العجيبه بين حوارى البلده كزوبعة تستعجل نهاية المطاف

ولم يصدق الناس بعضهم بسهولة، فقد كان الواحد منهم يستمع الى كلام الثانى الذى يظل يحلف ويقسم الايمان الغليظة بأن أمي سعيده «خلاص» اللى صابها صابها. ويدعى الاول عدم التصديق، ثم يقوم فى حينه والكلمات تتناطر من بين شفتيه ـ لا .. لا .. هذا محال، محال نعم محال فأمي سعيده المليئة تعقلا وهدوءا محال أن تصاب بالجنون .. ويذهب هذا الذى أدعى أنه لم يصدق .. حتى اذا ما وجد جماعة مجتمعين بادرهم ـ السلام .. ماسمعتوش.

ـ وعليكم السلام إن شاء الله خير..

ـ أمي سعيده .. خلاص .. اليوم الصبح اللى صابها صابها وعندما يتشكك المستمعون فى صحة هذا الخبر .. يرتفع صوته موكدا وكأنه أمي سعيده نفسها.

ـ والله حتى هذا الكلام .. كيف مش صحيح كيف وهو أنى اليوم الصبح ريتها بعينى والله بعينى ياناس. ويسرد على أسماعهم الحكاية مدعمة بالايمانات والاقسام مدعيا ـ طبعا ـ أنه رأى أمي سعيده بعينى رأسه. وتغيرت نظرات القوم حيال أمي سعيده .. أضحت كلها تحمل معنى كبيرا من الرهبة والخشوع.

فلم تعد تلك المرأة الفقيرة المعدمة التى يشتمونها اذا تأخرت عليهم فى جلب الماء بل أضحت امرأة رهيبة ذات جاة وسلطان وسر باتع عظيم .. يخافونها ويرهبون جأنبها ويحملون خوفا مستترا لملوك الجان المسخرين لخدمتها وظلت الاقدام تأخذ طريقها الى الخرابة الصغيرة التى تسكنها أمى سعيده لينالها الاجر وحسن التواب بعض من هذه الاقدام كثيرا ماركلت أمى سعيده، وارتكبت الحماقات المؤسفة فى حقها. والافواه التى كثير منها كانت تستهين بأمى سعيده فلا تتورع عن سبها وشتمها اذا مادعى الامر صارت اليوم تقبل يديها بكثير من الضراعة والمذلة والخشوع.

وكثير من عجائز القرية اللاتى كن يأذين أمى سعيده ويحقرنها شعرن بمدى الخطأ العظيم الذى ارتكبنه فأخذت كل واحدة منهن بمجمر وملاتها بالجاوى واللوبان، وباعت أن كانت لديها حارة أو اثنين من البيض واشترت بثمنها بقدر ما يستاهل مقام أمى سعيده من الشموع ثم تأخذ طريقها تجر أطراف ردائها الى خرابة أمى سعيده لتبكى بين يديها وتقبل الارض تحت قدميها .. بغية التكفير ثم تظل الساعات الطوال تتضرع وتطلب

من أمى سعيده السماح.

ـ التستور يا أمى سعيده .. ايدينا ورانا يا أمى سعيده، بركتك معانا ياأمى سعيده .. السماح يا أمى سعيده .. كل هذا على أمى سعيده تحن وتعطف وتتلطف بكلمة «مسامحين»

وبعضهم كان يحضر بابنه المريض أو بابنته المشلولة الى الخرابة بغية أن يكتب لها الله الشفاء بجاه وبركة ساكنة الخرابة أمي سعيده .. ويظل يتضرع ويتبهل مرددا:

ـ بجاهك عند الله يأمى سعيده ..

ومع كل مظاهر الضجة التى أحاط بها القوم أمى سعيده، فقد ظلت مستكينة الى الصمت وقليلا ما كانت تثور على صمتها هذا فتأتى ببعض التصرفات الشاذة والتى يعتبرها القوم أفعالا اذن بها الخدام الصالحون .. فكانت تأكل التراب أحيانا .. وتشد بشعر رأسها الاشعت المتطاير أحيانا أخرى .. وتبكى وتولول وتظل تنادى أبنها الغائب .. «منصور .. منصور .. منصور».

وبعد نوبة التشنج والصراخ، تهدأ، وتظل تتكلم فى صوت معاتب عميق، وكأن ابنها واقف أمامها .. والدموع تسح فى حرقة من عينيها..

ــ عندك حق تعمل فيا هالعمل كله ياخاين .. غايب عليا كام عام فى عام واليوم تجينى بعد هالغيبة الطويلة كلها .. لا تقول عندى أم تستنى فيا، لا تقول عندى امرأة عجوز قلبها عليا .. لا تقول أمى المسكينة يصيبها ما يصيبها على خاطرى؟ ترضى تعمل فيا هذا كله يا خاين .. ياللى غضبانه عليك أمك؟

والدموع نفس الدموع .. تتناسب عبر أخاديد وجهها المتآكل المحروق.

وكان هذا يؤكد الاعتقاد الراسخ فى أذهان الناس بأن الملوك الصلاح الذين يخدمونها قد أحضروا لها ابنها وأخفوه عن أعين الناس، وها هى الان تكلمه وتعاتبه بكلماتها التى بها الكثير من دالة الامهات بل أن احد شيوخ القرية ذهب يؤكد أنه قد رأى أمامها طيف ابنها منصور أبيضا شفافا كالملاك.

وكان من عادة زوار أمى سعيده أن يأتوا الى خرابتها فيبقوا عندها الى أول الليل، حتى صباح اليوم

التالى، فتتجدد الزيارات وتتجدد التبريكات والطلبات.
ومرت الايام.

الى أن كانت صبيحة أحد الايام عندما أتى الاطفال وجاءت العجائز لزيارة أمى سعيده كما هى العادة كل صباح فاذا بالجميع يجدون الخرابة خالية ليست بها أمى سعيده وانفرغت الافواه وارتفعت الحواجب فوق العيون ولطمت الايدى الصدور دهشتا وتعجبا، تعجبوا لانهم يعرفون أن أمى سعيده لم تكن تخرج من خرابتها حتى وان خرجت فقريبا منها لكن هاهم لا يجيدونها لا فى الخرابة ولا بقربها ولا حتى بالمنازل المتناثرة من حولها .. وبعد بحث طويل شارك فيه كل صغير وكبير فى القرية وجدوا أمى سعيده مرمية وسط الرمال خارج البلدة .. وهى تحشرج وتحتضر، وجدوها فى طريقها الى الموت. وعندما أتوها رفعت اليهم رأسها بشعره المتطاير الملى بالرمال والتراب ونظرت اليهم نظرات مجنونة من خلف أهداب غبراء. معفرة بالرمال .. وحشرجت فيهم بصوت محموم.

ـ ابعدوا عليا .. خلونى فى حالى .. منصور ولدى ينادى عليا .. يبينى انجية .. ابعدوا عليا بنمشى لوالدى .. منصور يقول ياأمى .. هانى جيتك يامنصور ياولدى .. منصور .. منصور .. الدموع، نفس الدموع .. تغسل صفحة الوجه المتاكل المجنون. التلال القريبة تطلق صدى بعيدا لنداء أمى سعيده الحزين وكأنها تشارك هذه الام حزنها.

وبعيدا .. بعيدا .. حملت الرياح، النداء الحزين لتبدده عبر الاركان الاربعة.

وأسلمت أمى سعيده الروح وهى تردد اسم ابنها الغائب الذى لم تكتحل برؤياه منذ ثلاث سنوات ...

■

سلطانة

ماحدث مساء أمس لسي خليل العجوز الذى يرتدى عباءه شهباء، ويتوكأ فى مشيته على عكاز من الخيزران، ويأكل لقمة عيشه من قوله للزجل .. لم يعد خافيا على أحد من أهل البلدة.

وسى خليل نفسة لم يجعل مما تعرض له فى هذا الحدث سرا خفيا. بل سعى بطريقته الخاصة الى نشره بين هذا القطيع البشرى الذى تضمه البلدة، فقد نام البارحة يتقلب على (الكليم) المهترى، كامرأة تعانى الام المخاض وفى الصباح كان زجله يسبق التحية متنقلا بين الافواه، وتلقف الخليط من الناس الذين يعيشون تحت سقف واحد مع شياههم وكلابهم وحميرهم أيضا، وفى بيت قصيرة منكمشة متقلصة تتساوى جميعها فى أنها كئيبة عجفاء كأنها مريضة بمرض واحد مزمن ليس له دواء .. بعضها مبنى بالطين والاخر بالجبس أما الكثير منها فحيطانها مبنية بلا جبس ولا طين ولكنها حجارة قائمة لوحدها متناسقة ومرصوصة وتشد بعضها بعضا .. تخرج لسانها لابو الطين والجبس. تلقفوا جميعهم الزجل الجديد بشيء من الغبطة والتهافت كما هى عادتهم دائما مع كل زجل تجود به قريحة سى خليل. بنبرات تشتى بالكآبة والحزن كلما جلست على الرحى لترحى طحين العيلة، ونسى أطفال القرية فى تلك اللحظات أغنيتهم المفضلة التى لا تفارق أفواههم.

آهى جت .. آهى جت..

بخلاخيلها رنت ..

فكانوا ينتظمون فى حلقات يقفزون ويرقصون ويتغنون بزجل سى خليل الجيد..

وأحيانا كانوا يغافلون البواب العجوز، ويشوهون المدرسة الجديدة بالفحم كى يكتبوا الزجل على

جدرانها البيضاء. وخرج الكثير من شبان البلدة الصغار فى مجموعات متفرقة بعضهم الى الربوة القريبة، والبعض الآخر الى البساتين الصغيرة المحاذية للبلدة، وارتفعت حناجرهم تردد الزجل الجديد، مصحوبا بدقات عصيهم فوق الحجر ونغمات (المقرونة) التى يفلح كل واحد منهم فى العزف بها، حتى الشيوخ الذين يستندون بأظهرهم الى الاحجار المتراكمة على شكل هضبة فى ظل جدار أبيض كثير الشروخ، لم يخل حديثهم من التلميح الصريح الى الزجل الذى قاله سى خليل.

والحكاية .. أن سي خليل اكتشف ليلة البارحة أن زوجته سلطانة تخونه، اكتشف أنها تخونه رغم أنه لم يمض على زواجه منها سوى عام واحد، عندما رآها ذات يوم تغسل حاجياتها مع غيرها من الفتيات فى مياه الغدير التى أحدثتها المطر بالقرب من البلدة، فكان أن شعر بجمالها يلهب أعماقه، ويزيد فى تتابع دقات قلبه، وللمكانة التى يتمتع بها سى خليل عند أهل البلدة والتى حددت أبعادها ملكة الزجل عنده، وكذلك للاطيان التى يملكها تمت الخطبة، وبالتالى تم الزواج.

وليلة البارحة كان سى خليل يجلس مستنداً بظهره الى الحائط، وسط الزريبة التى نصبتها زوجته أمام الدار من الاشواك والاحطاب وجريد النخل، وهو يقدم فى صعوبة من أرغفة الخبز الموضوعة أمامه فى الطبق، والتى كانت سخنة لا تزال رائحتها تفوح. ذلك أن الحساء الذى أعدته سلطانة هذه الليلة كان قليلا بحيث نفذ فى أقل من خمس لقمات وكان عليه ليملأ معدته أن يواصل أكل الخبز بلا طبيخ، رغم الصعوبة التى يتكبدها فى عملية المضغ. بينما جلست سلطانة على طرف (الكليم) المفروش الذى تآكلت مع الايام حوافه، وكأن الايام لها أسنان وأنياب تقرض بها ما تتفتح شهيتها على أكله، جلست سلطانة وبجانبها عدة الشاى وملال النار المحفور فى الارض وقد راحت تتلهى بالنظر الى القطة ذات اللون الاسود والابيض التى تتمطى وتغرز أظافرها فى الارض، وتتسمح بصهيد النار، وتلوك كسرات الخبز التى يرمى بها اليها سى خليل بين الحين والآخر، وتحدثا الزوجان كثيرا عن كل شيء، الا أن انتباه سي خليل كان منحصرا فى الفستان الجديد الذى ترتديه سلطانة وعندما سألها عن المصدر الذى حصلت منه على هذا الفستان الجديد، أجابته بأنها حصلت عليه مت حوش العرس .. ولما رأته يتقلص بملامح وجهه فى بلاهة متذكرا أى عرس تقصد، اردفت:

ـ عرس على ولد خالتى منوبية..

وفى صعوبة وتقزز ابتلع هذه الكذبة التى قالتها سلطانة، هو متأكد من أنها تكذب .. واذ كان هناك نوع من الكذب يأتيك فى خفوت وعلى رؤوس أصابعه بحيث يسهل أن يمر بك وتصدقه. فان هناك نوع آخر من الكذب يأتى مصحوبا برنين وصليل كسيارة اطفاء الحرائق معلنا أمامك أنه ها هنا كذبة. وكذبة سلطانة كانت من النوع الاخير الذى يجعلك ترفع كلتا يديك صائحا. قف ممنوع المرور .. هكذا كان يفكر سى خليل فعرس على ولد خالتها الذى تحكى عنه مضى عليه أكثر من عشرة أيام، بينما هى لم ترد الفستان الجديد الا هذا اليوم ..

وتناهى اليه فى هذا الاثناء ـ رغم ما يعانيه من ثقل فى أذنيه ـ صوت صفير حاد، وتنبه الى انه سمع مثل هذا الصفير فى الليلة الماضية والليلة التى قبلها، وأثناء الصفير كان يرى زوجته تحمل على كتفها الصفيحة الصدئة المليئة بالقمامة، وتخرج بعد أن تقول دون أن تلتفت اليه:

ـ أنا ماشيه نرمى الكناسة .. ويبدأ يشعر بالفأر اللعين الذى اصطلح الناس على أنه هو الذى يلعب فى العب..

بدأ سي خليل يشعر به ينط ويقفز ويقوم بألعابه البهلوانية داخل عبه. هل هذه المرأة تخونه؟

هذه المرأة التى انتشلها من حياة بائسة داخل كوخ لا تجد فيه الفراش ولا الغطاء .. ثم أليس هى التى تقضي الليالي الشتوية الباردة الطويلة مع والدها بين الشعاب والاودية والبرارى بحثا عن جذور حلفاء يقتطعانها ويحضرانها للبلدة .. ليبيعها بقروش معدودة وأتى هو لينتشلها من هذا البؤس، لتعيش كأى امرأة معززة مكرمة هنية البال، وبين جدران مبنية بالجبس.

تفترش الكليم المزرقش. وتتغطى بكذا بطانية، وتأكل الخبز بطبيخ البطاطس والبصل والفاصوليا الخضراء وبعد كل هذا الذى عمله من أجلها .. تخونه .. ياللمرأة الخائنة حقا، الكافرة بالنعمة حقا،. ويقطع على سى خليل حبل تفكيره، حجر صغير يسقط بجوار رأسه .. وتأكدت ظنونه .. فستان جديد، وصفير وحجارة تضرب فى قلب البيت، ثم خرج بعد الصفير ، الطفل الصغير وحده الذى يستعصى عليه فهم كل هذا والابله، أتظن أننى أبله، أم تراها لا تعمل حسابا لى أم تحسبى سأتركها تمسك السكين أمام ناظرى وتطعننى فى شرفى وكرامتى. وأصر على ما تبقى فى فمه من أسنان وخرج صوته كفحيح ثعبان أهاجته حرارة الشمس

ـ خـاينـه

هذه المرأة التى تجلس أمامه مستغرقة فى اعداد الشاى، خائنة. خائنة.، أعوذ بالله. هاهو حجر آخر يسقط على رأسه، وهاهى يدها تمتد اليه بكوب الشاى!
ـ هيا خذ .. أنا فيه صفيحة كناسة بنمشى نرميها.

ولم يعد يشعر الا بذبيب النمل الذى يسرى فى جميع أنحاء جسده .. ودماء جسمه التى تتصاعد فى دفعة واحدة لتفور كالقدر فى رأسه، وبالخائنة التى تجلس أمامه.

ويرفع رجله ويهوى بها على ظهر سلطانه ويندلق الشاى على الارض وتتناطر السفرة فى الهواء وتغوص يد سلطانة فى الملال المحفور فى الارض. ويعلو صراخها .. مع مواء القطة المنزعجة وينتصب هو واقفا ويخرسها بكلماته التى تخرج من بين شفتيه كالشظايا

ـ أنت من هالساعة .. مطلقة .. ياخاينه يافاجره .. يا..

وأفرغ أمامها كل الشحنات التى أثقلت أعماقه. وعلى ذبالة مصباح الغاز الكابى الذى يفرش بلهاته الارض، رأى وجهها يغدو أصفراً شاحباً ممتقعاً .. كوجه انسان مات منذ ثلاثة أيام .. ثم تحركت فى بطء الايام الحزينة. بعد أن ضمت (مزاودها) وأرديتها القديمة، وخرجت، وسمع نباح الكلاب عليها فى الخارج .. لحظتها شعر بشئ كالغصة فى حلقومه .. ربما هر مظلومة؟ .. وأجال ببصره فى الدار كان كل شئ هامد خاوى .. كانت الدر فى نظره كأنها جثة غادرتها الروح التى تسكنها.

حتى القطة الصغيرة التى كانت منذ لحظة بجانبه يرمى لها الخبز، تسللت من الدر.

كان وحده .. يقف وسط الفراغ حزينا مبعثرا كالتائه، حتى ظله المصلوب على الجدار كان يبدو ساحبا باهتا كئيبا، وظهره بدأ أكثر انحناءا عماكان عليه.

وفى وقفته تلك .. تنبه الى حجر صغير يسقط قريبا منه. وتناهى الى أذنيه نفس الصفير الحاد الذى لم ينقطع بعد. لا بد أنه صاحب سلطانة لا يزال ينتظر أن تأتى اليه ان كان صحيحا هو كيف يواصل صفيره ورمى حجارته حتى بعد أن خرجت؟

وطرد هذا السؤال المتطفل..

انه بلا شك هو ذلك الشيطان .. وركل برجله (جردلا) صغيرا كان فى طريقه، وخرج ليستطلع أمر هذا الصفيق الخائن ولم ينس قبل أن يخرج أن يأخذ معه السكينة ذات الشفرة الحادة التى تشع بياضا فى ضوء المصباح الغازى .. لسوف يحزم معه الموقف، ويريه معنى انتهاك حرمة بيوت الاشراف. سيضربه. سيقتله اذا دعى الامر .. وعندما وصل خارج الدار، وجال ببصره فى تلك الانحاء، لم يغالب رغبته فى أن يفرك عينيه..

فقد وجد بدلا من الخائن المزعوم، شلة من أطفال الجيران الصغار يصفرون، ويرمون بالحجارة وطواطا لعينا كان يختار فجوة فى جدار قريب، يركن اليها كلما أعيوه بصفيرهم وترجيمهم.

باللحظ السيء!

أمن أجل ترجيم وتصفير هؤلاء الصغار يرتكب حماقة طلاق سلطانة..

وبلا شعور وجد نفسه يجرى ـ رغم السنين التى يحملها على كاهله ـ خلف الاطفال الذين فروا أمامه، ويمسك بأول من يصادفه منهم، ثم يشبعه رفساً وركلاً، وضرباً بالعصى الخيزران حتى تكسرت، ثم ترك الطفل يتمرغ فى التراب ويترجد عليه الاطفال. وأسرع الخطى لاحقا بسلطانه .. لا بد أنها ما زالت فى الطريق لم تصل حتى الان الى كوخ اسرتها الذى ينكمش على نفسه فى طرف البلده، سوف لن تقول شيئا عندما يعترف أمامها بأنه غلطان فى حقها .. وأنه يريدها أن تعود وفى غد يأتى بالفقيه مصباح، يجدد عقد الزواج، وكأن شيئا لم يحدث، هو يتذكر جيدا أنه لم يقل لها، أنت

مطلقة بالثلاثة .. لذلك فهو مطمئن الى أن المياه سوف تعود الى مجاريها، هو صحيح أهانها، لكنه يعرف سلطانه، فهي طيبة ومسكينة ومتسامحة وسوف تعود معه بدون شك فهى حتى من ناحية أخرى تعرف نوع الحياة التى تنتظرها فى بيت والدها .. هى تعرف ..

ـ سلطانه.. سلطانه..

هكذا صاح عندما لا حت له سلطانه تخب بخطواتها السريعة فى عرض الطريق..

لم تلتفت.. واصلت سيرها. وهرول سى خليل حتى وصل بمحاداتها تماما

ـ سلطانه، اسمعيني ياسلطانه، عرفت كل شئ ياسلطانه، أنا الغلطان. أنت شريفه ياسلطانه. واصلت سيرها مسرعة الخطى .. وأمسك سى خليل بطرف لحافها!

ـ أنت لازم ترجعى ياسلطانه .. أنت .. قاطعته بصوت محشرج لاهث مخنوق.

ـ الى وين؟

كان واضحا من كلماتها المتداغمة، أنها كانت تبكى

ـ ترجعى لبيتك؟

ـ هو أنا مازلت عندى بيت؟ قالتها، وهى تمسح بأطراف أصابعها أثر العبارات فوق خدودها

ـ لا ياسلطانه اعتبرى كأنه ما كان شئ .. وكل شئ يتصلح .. كل شئ يتصلح ياسلطانه. هنا فقط .. وقفت .. والتفتت اليه .. ورغم الليل والظلام أحس بشئ يتقد فى نظراتها.

ـ هيا الاهانة عندك سهلة لهذه الدرجة، ياسى خليل؟ وهنا أيضا فقط أيقن سى خليل أن الامر ليس كما كان يعتقد

ـ هي صحيح اهانه لكن ما كنش قصدى. قسما بالله ما كان قصدى. كان الليل ينشر سواده فى كل مكان..

والقمر توارى تماما وراء القرون البعيده .. وسلطانه تخب بخطواتها كأنها لا تسمع اليه. والطقس فى هذه اللحظات من الليل كان شديد البروده...

ـ العيش والملح اللى كليناه مع بعض، وعشرة الايام الطويلة، والود اللى كان بينا ما أظنش هذا كله تنسيه ياسلطانه .. فى غمضة عين.

وأطارت رياح الليل طرف رداء سلطانه، فلطم وجه سى خليل.

ونباح كلب أتاهما من بعيد. والطقس لا يزال باردا.

ـ سلطانه .. أنت يا سلطانه انسانه طيبه وبنت حلال .. وما يصحش..

وقاطعته بحده

ـ وعندى كرامه، الناس عندها كرامة ياسى خليل. وأجهشت ببكاء خفيف وحدهما مع الليل..

والسكون من حولهما يلف كل شئ. والسواد يلف كل شئ. ومواء يصلهما من سطح أحد المنازل القريبة التى يمران بها، مواء قط، يبدو أنه يتحايل مع قطته .. والطقس بارد ..

ـ فيه حالات الواحد لازم يفكر فيها ياسلطانه، أنا مش قادر نتصور الدار وهى خاوية فاضية بدونك ياسلطانه، حتى بعد ماخرجت أنت وشيعت عينى مع الدار .. بدت قدام عيونى كأنها خرابه مهجوره .. سلطانه، خلى أذنك معاى، مسألة الفراق مسألة مش هينه، ماهياش مسأله صغيره ..

الطريق الذى يمشيان فيه كان مليئا بالحفر والمطبات والاحجار سى خليل كان يمشى فى الطريق بصعوبه، بل كان يتعثر أحيانا، ذلك لان عكازه الخيرزان كان قد انكسى والطقس شديد البرودة ما يزال.

وتكلمت سلطانه

ـ أنا عارفه أن الفراق حاجة كبيره، لكن فيه ما هو أكبر. كان واضحا من أن الجرح أوسع من أن تسده كلمات سى خليل. وأراد سى خليل أن يسلك فى حديثه معها طريقا آخر

ـ ثم .. ثم وأنت ياسلطانه عارفه المعيشه اللى تنتظرك في كوخ والدك اللى يتزاحموا فيه أكثر من أربعة أرواح .. وأنت معاى عندك بيتك ـ أنت وحدك يا سلطانه، سلطانه البيت والحقيقة حتى على أنا من يوم جيتى الدار وهى منوره .. ووو

وقاطعته وهى ما تزال تجهش

ـ الكرامة ما دونهاش حاجة ياسى خليل.

ـ سلطانه أنا ما زال من رأى أننا نتسامح، ونبدأ حياه جديدة. ومد لها يده

ـ أيدى محروقه .. يا سى خليل.

وتذكر لحظتها أن يد سلطانه قد احترقت فى ملال النار عندما ركلها بقدمه. كان واضحا من رنة الاسى فى صوتها، أن الحرق ليس فى يدها فقط .. بل أيضا فى قلبها. كان قد اقترب تماما من كوخ

والدى سلطانه .. ووقفت سلطانه ونظرت اليه كأنها تأمره بأن يعود .. وكان الليل فى هذه اللحظات باردا، كأنه قطعة سوداء كبيره من الثلج.

ولفظ هو آخر أنفاس محاولاته.

ـ سلطانه .. خلاص هذا هو كلامك؟

وخرجت كلمات سلطانه بارده .. كالطقس فى تلك اللحظات.

ـ ما عنديش كلام غيره ياسى خليل. وانفلتت مهروله نحو الكوخ .. للحظه، وقف سى خليل مزروعا حائرا، كأن شيئاً ثميناً ضاع منه وسط الليل، هذا الليل الذى يراه ينشر سواده فى كل مكان، حتى فى قلبه. واكتشف فى هذه اللحظة أن كل مفاصله وأطرافه ترتعش، وأن الطقس برودته شديده .. شديده .. وبدأ له كما لو أنه يكتشف لاول مرة أنه عجوز وهرم، فمه بلا أسنان وشعرات رأسه لم تعد سوداء.

وعندما هم بالتحرك أفاق الى أن عكازه الخيزران كان قد انكسر، وأن مشوار الرجوع الى البيت سيكابد فيه صعوبة كبيرة. وعاد الى بيته .. دخل يجرر رجليه ويدلق نظراته الكئيبة على الارض، لينام على (الكليم) الذى أكلت أطرافه الايام ذات الانياب والاسنان، نام سى خليل يتقلب شمالا ويمينا كامرأة تعانى الام المخاض، كى يضع الزجل الجديد، الذى تلقفه أهل البلده فى اليوم الثانى.

وكان الزجل مليئا بالنقاء والطهاره والعفة والشرف، الى آخره من كلمات الفضيلة التى أسبغها سى خليل على امرأته سابقا .. سلطانه.

■

هموم صغيرة

هذا الليل ..

ككل ليل فى المدينة، ابتدأ مهرجاً، معربداً، نزقاً، كأنه يلعن على نفسه بأضوائه التى تشع وتلمع عبر كل سنتمر من رقعته الواسعة، أضواء تتراقص ـ مبهرجة ملونة ـ على وجهات المحلات، وتتساقط على الارض من المصابيح المتناثرة فى الأزقة والشوارع وعلى الكورنيش. وتفح من أعين السيارات التى تزحم بها شوارع المدينة، وتنطرح فى الشوارع الخلفية متسللة من أبواب الحوانيت التى تضيئها «قازات» صغيرة، وتلمع من شبابيك البيوت المضاءة فى الطوابق العليا .. كأنها أعين كثيرة سحرية تملأ ليل المدينة.

وتشترك جميعها فى ارتكاب عملية تزييف واسعة النطاق لليل المدينة الأسود .. وتتعقد الضجة فى أفق هذا الليل .. كلاكسات وأجراس وصفير أطفال وهدير سيارات ولغط رجال وخوار سفن فى الميناء وايقاع خيول العربات، وشنشنة أجراسها، وطرقعة السياط فوق رؤسها.

وتدريجيا .. تنحسر على هذا الليل الأضواء، وتهدأ من حوله الضجة، فيستعيد لونه الأسود الطبيعي كلون الحزن، ويكتسب هدوءاً وسكينة كأنه هو الآخر ينام، أو كالشاب الذى يبتدئ مهرجاً معربداً نزقاً ثم يصل الى سن العقل، فيتوب ويهدأ ويستكين.

وهكذا من أن تأتى الواحدة ليلا، حتى يختفى كل ذلك الهدير المتواصل، ليعطى الفرصة لهدير آخر فى رؤوس الناس .. لا يجد فرصته فى الهدير الكبير .. ذلك هو هدير .. الهموم الصغيرة؟

* * *

الساعة الواحدة ليلا..

الشارع فارغ، تماما، كالاناء الكبير الفارغ.

وكان هو يمشى وحده..

خطاه على الرصيف ترن، موحشة، .. تلك ترك .. تك .. ترك. ويرجعها الصدى ترجيعا رتيبا موحشا .. تك ترك .. تك .. ترك؟

كان يمشى وعن يمينه وشماله عشرات الظلال الباهته التى تتداخل فى بعضها البعض لتصنع حوله دوامة كانت هى فى ظلاله التى عكستها المصابيح الصغيرة الباقية فى الشارع .. كانت ظلاله كأنها أشباح صغيرة ترافقه.

وفى، ذهنه أكثر من فكرة، تنثال وتتداخل وكلها باهته .. كظلاله التى يجرها على الرصيف تذكر جلساته المتكررة فى المقهى، تذكر طوابير الناس الذين يعبرون الشارع من امامه .. تنطرح عليهم ظلالهم .. لحظة ثم تمضى .. وأحيانا كان يشتم ظلالهم، فقد كانت تفوت عليه فرصة أن يستمتع بالاسترخاء فى أشعة الشمس.

حتى ملامحهم كثيرا ما تهيأت كأنها ملامح رجل واحد .. فى عينه قلق وترقب، وعلى وجهه تنعكس ظلالة حزينة كئيبة، حتى خطوطهم، منفعل، عصبي، كأنهم مطاردون كلهم مثله وراء ظهورهم سياط. ورأى دخانا كثيفا، ورأى طفلا صغيرا مهمل الثياب يقتحم الدخان الكثيف، ويمسك فى حديد سيارة الشحن الكبيرة التى تقذف سحائب الدخان .. وتمضي به السيارة الى ان صوتا جهوريا عريضا متخشرفاً يركض وراءه.

ـ اترك السيارة .. انزل ايها الكلب الصغير .. اذا عدت الى تشعلق السيارة فسوف أسلخ جلدك وأعلقه على وتد في البيت كشاة الضحية. كان صوت والده .. من يومها، منذ ان كان طفلا يتشعلق السيارات وصوت والده يركض وراءه .. عريضا متخرشفا ولاذعا كالصوت ولكنه اليوم لم يركض وراءه .. بل فرقع فى وجهه.

ـ اتعصى أوامرى، ايها الولد العاق؟ .. اتفهم .. اخرج حالا .. اخرج .. اخرج؟ حدث ذلك فى الصباح. والده لم يذهب الى وظيفته بالوزارة. وهو ايضا لم يذهب الى الشركة التى التحق بها موظفا منذ عامين عندما تخرج من مدرسة تجارية متوسطة.

فاليوم عطلة .. وكان كل شيء في البيت هادئا. عندما اتاه صوت والده

ـ محمود .. محمود ..

كان هو ساعتها فى حجرته، اتم تناول فطوره، وجلس على المنضدة الصغيرة، ينقل من قلبه أشياء ويضعها فوق الورق. فقد كان يكتب رسالة الى زهرة وانتفض لصوت والده، هو دائما ينتفض لهذا الصوت المفرقع اللاذع. وترك كل شئ كما هو .. وذهب الى والده.

وبعد مقدمة قصيرة، عن نصف الدين وعن سن البلوغ وعن الاحفاد. قال له والده وابنة عمك «عيشة» .. فتاة مهذبة، وانت وهى ابناء عم، وفى عمر متقارب .. وقد اتفقت انا وعمك سليمان على ان نفرح بعقد قرانكما فى الايام القريبة.

وعلق الوالد اهدابه بمحمود الذى كان واضحا على رقعة وجهه انه مندهش، نظر الوالد الى وجه ابنه، الى الشارب الذى رباه حديثاً، فبدأ كخط أسود يشترك فى توضيح الصورة اللونية لوجه محمود الشاب الذي ذقنه بدأ يكتسب خشونة وخضرة الى قامته التى بدت طويلة، اطول منه، الى اصابعه التى لم تعد صغيرة وناعمة، بدت خشنة وطويلة وتنمو فوقها شعرات سوداء .. حتى اظافره التى كانت صغيرة ومصقولة، لم تعد كما كانت اكتسبت خشونة الرجال.

بدا على الوالد كأنه يكتشف لاول مرة، هذه الاشياء فى محمود..

وتمتم محمود فى ذهول ..

- ولكن ..

يجب ان يصارح والده ..

كيف ان تستطيع ان تقرر مصيري دون ان اعرف انا لم أعد ذلك الطفل الذى تسحبه من يده فيسير وراءك في كل مكان، في الشارع، فى الحديقة، في البيت .. فى .. فى طريق الحياة .. يجب أن تعرف ذلك .. أنا اليوم رجل انا لا أريد أن أتزوج ابنة عمى، اننى أعرف رأيك عن الاسرة وعن العرق وعن الدم وعن الاصل .. وعن أسرتنا التى يجب أن تسيح وتميع وزيتنا الذى يجب أن يكون فى دقيقنا..

ولكننى أرفض .. اننى أرفضك يا أبى،

فأنا لى فتاة سوف أتزوجها سواء أردت أم لم ترد، سوف أكوِّن معها أسرتى الصغيرة وسأكون سعيد معها .. سنكون أسعد أسرة فى العالم. أنت لا تعرف زهرة .. جارتنا .. هى ابنة الساكن الجديد فى الشارع، لا أدرى ما اذا كان وقتك الوظيفى المزحوم بأكوام الملفات ومشاكل مرؤوسيك من موظفين قد سمح لك بأن تتعرف على جيراننا الجدد، وعلى والدها الذى نقل على احدى الوظائف هنا بالمدينة .. أنت لا تعرف قصتى معها. لقد رأيتها ذات يوم من نافذة حجرتى، رأيتها تطل من شباك بيتهم المفتوح نصف فتحة .. وغازلتها .. ويومها عندما غازلتها لم أكن أظن أننى سأحبها، وبمثل هذه

القوة من الحب .. غازلتها باعتبارها فتاة جميلة فى حين ليس الا. و..

وأنا لا أستطيع أن أحكى عن كل المراحل التى مرت بى حتى أحببتها .. لقد تعددت رؤيتى ولقاءاتى بها وفى هذه اللقاءات حدث أكثر من شيء .. ههه .. ههه .. ليس ثمه وقت للضحك .. مرة كنت أسير فى الشارع رأيتها، كانت تتأبط حقيبتها ذاهبة الى المدرسة. ورأيت معها شابًا فى مثل سنى كان يتكلم معها، وشعرت بشيء كالغيرة يتقد فى قلبى. من هذا الولد الغريب الذى يتكلم مع جارتى الجميلة. هل هو حبيب؟ وتقدمت ماراً من أمامها، واكتشفت أنه ليس حبيبا ولا قريبا بل هو مجرد ولد شوارع يضايقها بمغازلاته ورأتنى .. ورأيت نظراتها كانت تستنجد بى لادفع عنها هذا الذى يضايقها، ورغم ما تعرفه عنى ياوالدي من هدوء ومقت شديد للمشاجرات، فقد دخلت من أجلها فى معركة صغيرة .. ولم أنهزم .. أبعدت عنها الولد الذى يضايقها وأخذت مكانه أنا.

هذه حادثة تافهه من الحوادث الصغيرة التى تجمعت فى رافد واحد، لتصنع مجرى صغير لحبنا. بل أكتشفت فى آخر الامر أننى لم أعد قادرا على أن أغازلها، شعرت أننى أقدرها وأحترمها .. كذلك لم أعد أغنى لها من الشباك «أكلك منين يابطة» وهكذا نما حبى لها.

وكنت احيانا أرافقها فى طريقها الى المدرسة مارا بالشوارع الخلفية بعيدا عن أعين الناس لا بد أنك ياوالدي ستضحك وتقول لعب أطفال .. ولكن لا يهم فقد اتفقت معها حتى عليّ.

ومرت لحظة قبل أن يهز الصمت صوت الولد ..

ـ لكن ماذا؟

لكننى لا أريد أن تقرر لى مصيرى، أنا لم أعد كما تعودت أن تعاملنى دائما طفلا قاصرا .. أنا اليوم رجل، وسأواجه مصيرى كرجل .. وسأقرره بنفسي سأقرر مصيرى بنفسى وعاود والده السؤال. فى ضيق .. ونفاذ وصبر:

ـ لكن ماذا. تكلم يامحمود؟

ـ لكن .. لكن .... أنا لست موافقا على الزواج من ابنة عمي.

وكانما ضغط بهذه الكلمة على زر لتهب كل العواصف فى العالم، فقد هب الوالد غاضبا، مزمجراً كيف ؟.. من هى التى تريد أن تتزوجها .. من؟ .. تكلم انطق .. من هى .. فتاه أخرى أحبها اسمها زهرة. وكأنما قرر الوالد أن يستنفذ كل قواه فى كلماته، فزمجر فى حنق لا حدود له، وقد تهدج صوته واحمرت تقاطيع وجهه وجحضت عيناه .. كان الذى يحدث أمامه .. شيئاً غريباً .. وعجيبا أن يحدث مثله فى تاريخ تعامل الاباء مع الابناء ..

ـ اتعصى اوامري ايها الولد ..؟ كان يلهث .. وسحنته بدت متقلبة متغيرة، كانما هى ليست

سحنة وجهه الحقيقي. واختلط هديرة بصوت محمود بتدخل الام لتصالح بين ابنها ووالده .. وتهالك الوالد على كرسيه فى اندهاش غريب، كان الذى يحدث أمامه شئ فوق طاقة الحياة أنه أشبه بأحداث يوم القيامة وعاد يصرخ فى صوت محمود

ـ أنت من اليوم لم تعد ولدى .. أنت تخرج حالا من البيت .. أتفهم؟ .. أخرج حالا .. أخرج أخرج وكل ماعاد يعيه محمود، هو اصطفاقه باب كبير وراء ظهره .. قطع بأفكاره كل هذا الشوط .. ومع ذلك لم يصل بعد نهاية الشارع الذى بدا الان واسعا كبير .. أكبر وأوسع منه فى النهار.

وانتهى من الشارع ودخل شوارع أخرى ضيقة ووصل البيت. هذا هو البيت الذي سكنه اليوم بعد أن ترك بيت والده .. هو بيت صديق أعزب رحب بمشاركة محمود له فى البيت.

وبحث عن المفتاح فى جيبه انه اليوم الوحيد الذى يسهر فيه حتى هذا الوقت من الليل. دون أن يجد من يوبخه وينهره وقد يضربه. لقد وجد أنه لأول مرة يضع فيها مفتاح بيت فى يده .. وأخذ يقلبه فى يده كأنه ليس مفتاحا عاديا من النحاس. كأنه أثمن جوهرة فى العالم.

ـ أين كنت أيها المفتاح ؟ وغنى وهو يدخل البيت:

ـ وين تررورن .. وين أيامك وين .. وفى حجرته بالبيت عندما أضاء النور، لم تكن له ظلال عديدة، باهته .. ليس لها لون، كان له ظل واحد، وينعكس على الحائط كبيراً.. وليس باهتاً بل هو واضح كانه منحوت فى الحائط، ونام.

ولاول مرة ينام لوحده خارج بيتهم بعيدا عن أمه وبعيدا عن والده، وبعيدا عن حجرته التى ما تزال تعيش فى ذهنه بكامل تفاصيلها الصغيرة. بكانون النار الصغير الذى تتقد جمراته وتطلق بين الحين والحين شرارات تلسعه أحيانا فى يده. بالكوميدينو الرابض دائما بجوارراسه وقد تبعثرت فوقه صحف ومجلات وكتب .. ببلاط الحجرة الاسود والابيض الذى يلمع دائما .. بالحزام الكاكى الذى يحيط جدران الحجرة ..

وبدا عليه كأنه مهموما حزينا.

هل صحيح سيقدر على الصمود فى موقفه وحده فى الحياة هل يستطيع أن يحدد مصيره ويقرره هل صحيح هو قادر على أن يحمل عبء الحياة لوحده وقرر أن ينسى كل هذه التساؤلات وأن ينام.

وقبل أن يسبل رموش عينيه وينام، تذكر، زهرة لا بد أنها حزينة مهمومة بعد أن علمت عن موقف والده منه ولكنها يجب أن لا تحزن .. سيكون معها رجلا .. ستعرفه دائما رجلا. وكأنما رأى طيفها يطل عليه فى الحجرة .. وكان وجهها الجميل شاحبا تفرشه ظلال من الحزن والكآبة. ونظر للطيف فى حنان كأنه يناجيه .. أى زهرة الحبيبة .. لاتحزنى ...

هذه الظلال الكئيبة الشاحبة التى تفترش وجهك العذب الصغير سوف أترصد لها ذات يوم .. وارتكب جريمة قتلها ومال رأسه على الوسادة وسقطت رموش عينيه فى اغفاءة سعيدة .. وارتفع شخيره عاليا ..

■

اللماذا؟

تفجرت فجأة، بصوت غريب حاد، ليس كصوت البشر .. بل كصرير أبواب الخزائن الحديدية القديمة المهجورة، التى تختفى تحت ركام الصدأ والغبار وخيوط العنكبوت

ــ لمـــاذا ؟

لم تكن لماذا هذه هى تلك (اللماذا) القديمة، المستهلكة، التى تهرأت وتمزقت استعمالا يوميا .. هى لماذا أخرى غريبة قوية، كأنما لم تنطقها شفاة بشرية من قبل .. كانما ظلت حبيسة قمقم منذ ملايين السنين ثم جاءت هذه اللحظة لتحطم القمقم .. وتتفجر كالمارد.

ــ لماذا ...؟

أحس عامر النمرود بأنه لا بد أن ينطقها بزمجرة عالية. هادئة كأنه وسط الاف الحشود البشرية يزمجرها وينهرها .. بينما كان وحده، لا وجود لاى كائن آخر فى الحجرة المقفولة معه .. لم يدر لماذا؟ .. ولكنه أطلق (لماذا) وكأنه ثمة قوة لا ارادية تسكن جسده، وأن ثمة زر داخل هذا الجسد، داسته اليد الغريبة اللاارادية فاذا، بلماذا .. تتفجر .. هادرة مفرقعة كالبركان.

بل ان عامر النمرود لم يكن يدرى بالضبط ما السبب؟

من أجل أى شئ يحتج؟ من هو خصمه؟ ما الذى يريده لم يستطع أن يحدد ــ رغم ما يزحم به

وجدانه ـ لمن يوجه لماذا هذه. كان يقولها وكأنه لم يقلها مات من فوره

هي اتعس اللحظات التي يجد فيها عامر النمرود نفسه وحده وجها لوجه مع أشباح ذاته .. عندما يجد الاف الاطياف، ليست أطيافا، هى شياطين وعفاريت ومرده، تهجم عليه بعنف وقوة، تتلبسه وتهزه وتمزقه، وتجعله يعانى تلك اللحظات، الما وعذابا فوق طاقة البشر. وقد يهرب منها، قد ينام حتى لا يبقى فى عينه ذرة نوم، قد يجعل العمل الوظيفى يستغرقه ويمتص دقائق وساعات يومه، من أجل أن لا يعطى فرصة للشياطين اللعينة كى تستلمه عندما يكون أمام نفسه وجها لوجه ..وحيدا فى تمام يقظته وتنبهه وتفتح حواسه وشراايينه .. انه يخاف من نفسه، كانما هى ليست ذاته التى يعيش بها .. هى كائن آخر .. عدو يريد أن يترصد له ويرتكب جريمة قتله.

وللنوم مهما طال، وللعمل مهما كثر وتمطط .. نهاية، يجد بعدها نفسه مضطرا الى أن يرجع الى الحجرة الرمادية الكئيبة، وأن يلتقي بعدوه وجها لوجه ..

ـ ها أندا .. اقتلنى

كان يستسلم استسلاما لا ارادياً لهدير مشاعره العنيفة السوداء .. ربما يقاوم فى البداية قليلا، يشد أعصابه، ويحتفظ بأنفاسه منتظمة، ويضبط طرقات قلبه، الا أنه فى النهاية كان يستسلم .. ترتخى عضلاته، وتتهدج أنفاسه، وتنطلق طرقات قلبه كوقع أقدام الخيول ... ويسلم نفسه أسيراً ذليلا للجيوش القادمة .. تماماً كالغريق الذى يقاوم الموج، ويتشنج ويصرخ حتى اذا احس أن لا فائدة، كف عن التشنج والصراخ وأسلم نفسه للموج بل كثيرا ما كان رد الفعل المفاجئ هو الاستلذاذ بالغرق .. يسبل الغريق رموشه محاولا أن يستمتع بالغرق .. تستبد به شهوة جهنمية مدمرة .. وهكذا فان عامر النمرود مع أمواج هذه الغرفة الرمادية الكالحة، كائن آخر، يعيش هذه الحياة الاخرى يتعذب بها، ويتألم من أجلها، ويستسلم لها، يغرق فى حوار مع أشباح ذاته .. حيث يتحول الماضى والحاضر والمستقبل الى عجينة زمنية واحدة، يعيشها عامر النمرود بكل زخمها ومرارتها .. ويتحاور مع هذا العالم حوارا آخر غير الحوار الساذج الذى يستهلكه يوميا فى حياته مع الناس .. هذه الحجرة .. صندوقه الرمادى العجيب .. عالمه الاخر المليء بالإيحاءات والايقاعات والرموز والاطياف .. حياته هنا .. حياته الحقيقية العميقة هنا .. حيث الكائن الآخر فى ذاته يلتهب ويتفجر ويتمرد على كل سخافات الكون

ـ لماذا ...؟

كأنها صوت شرائح لحم بشرى يتمزق .. للحظة ظل عامر النمرود جامدا مصعوقا .. كأن مسا كهربائيا قد أصابه، ثم عاد اليه ومضه ونبضه وحركه .. لقد عاود الصراخ بها دون أن يدرى وتنبه عامر النمرود الى أن هذه ليست المرة الاولى التى يصرخ فيها (لماذا)، ولكنها فى هذا اليوم وهو يقولها

لأول مرة وهو يعيدها مرة أخرى، كانت تكتسب غرابة جديدة، الى الحد الذى جعل نفسه، يستغرب من نفسه.. حتى الان لم يتوصل الى من بالضبط تتجه لماذا هذه؟ .. وينزلق تدريجيا فى عالمه الغريب .. ليقينه أنه فى عالم ذاته السحرى العامر بالاشجان والاطياف حيث يتداخل، الماضى، بالحاضر، بالمستقبل سوف يلتقى بالكائن الذى يوجه اليه هذا الاحتجاج.

لعله كان يؤمن من أن الانسان لم يولد الا ليتعذب .. من أجل هذا كله كان عامر النمرود يتعذب بارتياح وسعاده، يبحث عن العذاب ليعانيه ويعيشه ويزوب معه .. حتى تحول الى مراجل يغلى بالعذاب، لا يعطى الفرصة

لاى ذرة سعادة تفسد عليه عذابه .. بل ان هذه الذرات السعيدة ان جاءت فلابد أن تذوب وتتفسخ داخل ذاته .. قال يخاطب كائنه الآخر

- الا يكف مرجلك عن الغليان؟
- لان الاحطاب التى تحته لا تكف عن الاحتراق
- الاحطـاب ؟
- نعم الاحطاب والهشيم والقش .. الكل يشتغل.
- لماذا الكل ؟
- لان العود لا يحترق وحده، انه يحترق ويجعل كل الاعواد تحترق.
- ولماذا لا تكون أنت أيضا عودا يحترق؟
- لا .. أننى أفضل أن أكون مرجلا يغلى،
- وعندما تكف الاعواد عن الاشتعال.
- لا .. لن تكف .. لانى سأنفخ رمادها حتى تشتعل ليعود لى غليانى.
- انك معذب محترف.
- لقد ولدت لأتعذب

ولعل عذابه ابتدأ منذ ان لقم اثداء النساء ليشرب حليبها لقد ماتت أمه وهى تلده أخذوا يدورون به على النساء لتتبرع كل أم فترضعه من حليبها .. حتى رضع عشرات النساء .. اختلط فى بدنه حليب عشرات الأمهات، نمى بدنه بهذا الخليط العجيب فنمى أكثر ادراكا لغرابة العالم وأمزجته المتداخلة المتنوعة .. حتى عندما يسافر الى قريته تتلقاه هنا عشرات العجائز، كلهن أمهاته ..

- لقد أرضعتك .. اننى أمك

ورغم أنه لا يحبهن جميعا، ولا يشعر نحوهن بأية عاطفة. الا أن الذى يجعله يتحمس هو الغرابة فى الموضوع .. كان يتمتم ..

ـ أمهات كثيرات .. وابن واحد الا أن والده لا يؤمن بأن لديه أمهات كثيرات، هناك أم واحدة ماتت .. لهذا منذ أن وعى وصوت والده يفرقع فى وجهه،

ـ لقد كنت دائما نحسا .. قتلت أمك يوم ميلادك

ـ كيف ؟ أنه لم يقتل أحدا لا يتذكر أنه قتل أو ود أن يقتل أى انسان فى الوجود يقولون أنه قاتل أمه هل أنا قاتل؟ وتتداخل الجدران وتمتزج الاطياف والمرئيات، لتتبدى له محكمة أقامها الكون كله لتحاكمه وتدينه يفرقع فى أذنيه نداء الحاجب الاسود، محكمة، .. اذا بالقضاه واللحى والعمائم والمنصات والآيات المكتوبة تحاصره. ثم ميزان العدالة الكبير الرهيب يتمايل ويترنح على الجدار .. ثم تتساوى صنجاته ليسمع الحكم .. هل أنا القاتل .. انك القاتل .. لماذا .. لماذا أنا قاتل؟

ـ لماذا ... ؟

كعواء كلاب شرسة .. لماذا .. تلك التى فرقعت دونما هدف، منذ لحظات، هاهى تفرقع من جديد، ولكن هل وجدت هدفها، هل وجد فى عالمه السحرى السبب .. والخصم .. وتعود الجدران ترتنح الى مكانها وتساوى السقف فوق رأسه، ويغادر القضاة والمحكومون المكان يحملون ميزانهم فوق أكتافهم .. وتعود التسمية التى أطلقوها عليه فى البيت تلح .. وتدق .. وتزمجر كأنها رياح أبدية تطارده.

ـ ياقاتل أمه ..

طالما أحس بالخجل والشعور بالذنب وهو يسمع هذا النداء يوجه اليه .. والان يشعر أن أحاسيسه القديمة تتبخر .. يحس بنفسه خفيفا نظيفا متحررا من كل ذنب وكل خجل .. بل كان السقف يتشقق عن فتحات تتسرب منها حكمة الكون كالعصافير .. تنصب أعشاشها في رأسه وتبيض أسئلة على شفتيه

ـ من المذنب ؟

ـ أنا المذنب الذى ماتت بسببه؟ أم هى التى قدمتنى الى هذا الكون؟

صار عامر النمرود يرفض الان احساسه القديم بأنها صاحبة الفضل عليه عندما انجبته وأنه كان نحسا وشؤما عندما ماتت بسببه .. العكس هو الحق .. هو الحكمة العادلة الخالدة .. لم يكن شؤما، كان فارس الخلاص الذى أنقذها من تعاسة الوجود .. فى حين كانت هى شؤما ونحسا وهى تقدمه بدلا منها الى تعاسة الحياة.

وكأنما استراح راحة نفسية عميقة وهو يصل هذه النتيجة .. فاسبل رموش عينيه وقال وكأنما يخاطب طيفا لامه جاء يزوره ..

ـ أماه ... ها أنذا أتعذب بالنيابة عنك !

■

اكتشافات

عبد الله بن عبد الله

كما يجد الانسان نفسه فى لحظة ما، بسبب ظروف ما أنه عاطل، وأن عليه أن يبحث عن عمل جديد يكسب منه لقمة عيشه، فقد حدث أن اكتشف عبد الله بن عبد الله ذات يوم أنه عاطل، وأن لا عمل له، وأن فى عنقه تتأرجح زوجته وطفله صغيرة عله أن يوفر لهما اللباس والاكل، وكما يحدث دائما أن هذا العاطل يطرق كل باب، ويبدأ طبعا بطرق الابواب الكبيرة المصقولة اللامعة ابواب أجهزة الحكومة وأبواب الشركات الكبيرة ثم يتدرج به المطاف وينتهى دائما الى اراقه ماء وجهه أمام الابواب العتيقة والبسيطة التى بلا صقل ولا لمعان باحثا

ـ وقد غرزت فيه الازمة انيابها حتى لحمه الحى

ـ عن أى عمل سواء جرسون فى مقهى شعبى أو عامل فى معامل السردين المعلب أو حتى عتال بالبواخر الراسية فى مياه الميناء .. هكذا حدث مع عبد الله بن عبد الله .. ولكن لا عمل. هرول، ولهث وأراق كل مافى وجهه من ماء .. وما زال عاطلا. وكثيرا مافكر عبد الله بن عبد الله لماذا عليه أن يرق ماء وجهه على الارض حتى يجد العمل، وما الضرورة فى أن يعمل، ما الضرورة أيضا فى أن يجد لقمة العيش. وما السبب ولماذا وكان الرد الوحيد هو طبيعة الاشياء .. فلابد أن تهرول وتتعب حتى تجد العمل .. ولابد أن تعمل حتى تضمن لقمة عيشك .. ولابد أن تجد لقمة عيشك لتعيش .. تلك هى طبيعة الاشياء ..

حتى تهيأ فى ذهن عبد الله بن عبد الله أن«طبيعة الاشياء» هذه جدار، جدار قديم معشب كثير النتوءات والندوب، يحجب على الناس الهواء النقى الصافى ويحول بينه وبين أن يعيش حياته سعيدا هانئا. بل ان عبد الله بن عبد الله قرر بينه وبين نفسه أن يتولى مهمة تهديم الجدار. وذات صباح من أن يمشط شعر رأسه، ويزرر جاكيته، ويلف عنقه «بكرافته» يحكم ربطها .. ربما يكون مقبولا فى أعين أصحاب العمل، بدلا من ذلك حمل فأسا على كتفه .. وخرج من البيت .. وفى ذهنه صورة جدار قديم معشب .. يجب أن يحيله بهذا الفأس الى أنقاض

عبد الله بن عبد الله سار فى الطريق، ماراً بالناس وبالسيارات والعربات التى تجرها الخيول والحمير .. دون أن يلفت انتباهه شئ .. ومر ـ فى طريقه ـ بالمقبرة التى اعتاد أن يمر بها كل يوم والتى يخاف أن تهب فى وجهه أشباح الموتى كلما عاد الى البيت متأخرا ذات ليل .. ولاول مرة يشعر بتعاطف كبير معها .. قبورها، ترابها، ها هنا كل شئ جاف، لأنه نتاج أنفاس قد جفت هنا الارض حبلى باجنة ميته، والاعشاب هنا لا تروى بالماء .. هى هنا ترشف بعروقها دماء البشر لتنمو .. والتراب فقد خاصيته الترابية .. هو هنا أمخاخ بشرية .. هو هنا تراب ممسوخ .. كم حياة اندفنت هنا .. مائة حياة .. ألف حياة .. الاف الحيوانات تفسخت وتحللت وذابت .. صارت ترابا ممسوخا .. باللحقيقة. الانسان هنا يعود الى أصله .. التراب يعود الى التراب، والطين يعود الى الطين .. ونظر عبد الله بن عبد الله الى نفسه، حياته هذه التى ترهقه وتشقيه وتعذبه ويحمل من أجلها الفأس ليحطم الجدران، اليس هى أيضا ستؤول الى هذا المصير «حفنة من التراب الممسوخ».

وفوجئ عبد الله بن عبد الله ـ خلال تمشيه بجوار المقبرة ـ بمجموعة من الناس لا يعرفهم يسحبونه من يده الى داخل المقبرة .. وهناك ثمة نعش رجل ميت مسجى على الارض وسمعهم يقولون

ـ لقد انتظرناك طويلا. أين أنت؟ الست أنت الذى تحفر القبور؟ يالك من حفار كسول .. هيا احفر بسرعة.

لقد ظنوا عندما رأوا الفأس فوق كتفه أنه هو حفار القبور، وقبل أن يرد عليهم قائلا .. لست أنا الذى يحفر القبور، اننى ذاهب فى مهمة كبيرة، أنا ذاهب بفأسى لأهدم جداراً قديماً معشباً كثير النتوءات والندوب، قبل أن يقول ذلك تذكر أنه لا يملك مليما فى جيبه، وأنه منذ يومين لم يجد سيجارة يدخنها، وأن ابنته قالت له قبل أن يخرج من البيت ـ أنا «جعانه يا بابا»

وأن امرأته أصبحت جلدة وجهها صفراء .. تذكر كل ذلك تذكر أنهم ينفحون الذى يحفر القبور بعض النقود ..

إذاً لا بأس.

وبدلا من أن يتكلم، رفع الفأس عاليا، وهوى به يمزق جثة الارض.

ومن يومها وعبد الله بن عبد الله يمزق بفأسه جثة الارض، ليحشر فى بطنها جثة الاموات من الناس.

ووجد عبد الله بن عبد الله راحة كبرى فى حفر القبور.

هو هنا يخدم «الموت»، هو سعيد لأنه فى خدمة العادل الكبير، فالوحيد الذى يقف عنده كل الناس سواء هو «الموت»، بل منذ يومين فقط حفر عبد الله بن عبد الله حفرة ليدفن بها جثة أحد البهوات الكبار، كان سمينا ومنتفخا فى أصبعه خاتم بالاف الجنيهات، وفى جاراج بيته سيارات من كل نوع وأسهمه فى كل شركة، وأرصدته فى كل بنك، وقصوره فى كل مدينة ..

وفى نفس اليوم وبجواره تماما حفر قبرا بنفس الحجم لشحات عجوز. هم هنا سواء الكل يضمهم تراب واحد، وتأكل لحومهم ديدان وخنافس واحدة .. بل ان الخنفسة التى تأكل لحم البيك هى نفسها التى تأكل لحم الشحات .. الشجعان والجبناء .. الشحاتون والبهوات .. الكل يجتمعون قطعة مضموغة من اللحم فى أحشاء الخنفسة.

يا للعدل. كان عبد الله بن عبد الله يتوهج سعادة لانهأحد خدام هذا الحاكم العادل.

الى أن كان يوم. عندما استيقظ فى الصباح، فوجد طفلته «ايمان» مريضة .. نبضها عال وحرارتها مرتفعة، أنفاسها تخرج من بين شفتيها متهدجة متقطعة ..

وذهب مسرعا يحضر لها الطبيب وعندما رجع مع الطبيب وجدها قد أسلمت الروح.

وخلال بكائه، وخلال عمله فى حفر القبر لها، وخلال اهالة التراب على جثتها الصغيرة كان عبد الله بن عبد الله يراجع رأيه حول عدالة «الموت» لماذا يرتكب الموت جريمة قتل «ايمانه» الصغيرة الوديعة اذا كان عادلا .. لماذا؟ أما رأى جدائل شعرها السوداء مزينة بالشريط الاحمر، أما هزته خضرة عينيها والبراءة التى تتألق منهما .. أما راى ابتسامتها اللذيذة حيث تظهر أسنانها بيضاء وصغيرة ومستديرة كعقد من عقيق أبيض .. أما سمع لثغة لسانها اللذيذة، وضحكتها التى ترن كالجرس السعيد.

لا .. ان الموت ـ اذاً ـ ليس عادلا، ان الذى يقطف زهرة صغيرة كايمان دون أن ينظر الى براءتها وجمالها وعمرها الوردى، هو ليس عادلا ان هو الا مجرم دنس. ان الموت مجرم. ووضع عبد الله بن عبد الله أولى اكتشافاته

ـ الموت .. يجب أن يموت

وبلا تردد أو احجام، بل بهمة وحماس ذهب يبحث عمن يستطيع أن يقتل الموت. ليذهب اذا الى الشجعان .. فلابد أنهم قادرون على قتله. ها هنا فى احدى أركان المقبرة المظلمة، زاوية يعقد بها الشجعان اجتماعاتهم الخطيرة دائما، سوف يساعدونه فى هذه المهمة .. فهو طالما حمل سرهم، وكان

أمينا دائما على هذا السر وذهب اليهم.

ـ نعمتم مساءا .. أيها الشجعان.

ـ تفصحوا وجهه جيدا .. وردوا

ـ نعم مساؤك يا عبد الله بن عبد الله.

ـ من ستقتلون هذه المرة أيها الشجعان؟

ـ لن نقتل، سنغسل، العار، عامر بن شيحة، أخونا وبن قبيلتنا. هل تعرفه؟ لقد قتلوه.

ـ وستقتلون الذى قتله .. اليس كذلك أيها الشجعان؟

ـ نعم .. هو كذلك يا عبد الله بن عبد الله.

ـ وهل تعرفون من هو القاتل؟

ـ انه أحد أولاد قبيلة «الغزلان».

ـ لا .. ان الذى قتل أخاكم عامر بن شيحة .. عدو آخر

ـ هل تعرفه ياعبد الله بن عبد الله؟

ـ نعم، أعرفه أيها الشجعان، فقد زار بيتى هذا الصباح.

ـ من؟

ـ هو الذى قتل ـ مع شروق شمس هذا اليوم ـ ابنتى

ـ من؟

ـ هو الذى سيقتلكم أيها الشجعان ان لم تبادروا بقتله.

ـ من؟ من؟

ـ هو ليس عدو لقبيلتكم فقط .. بل هو عدو كل القبائل كل الاوطان، كل البشر. هيأ الشجعان بنادقهم ولمع فى أعينهم بريق الهجوم وصاحوا فى تحفز

ـ من؟ من؟ قل لنا ونحن سنقتله فورا قال عبد الله بن عبد الله وقد اطمأن الى أنه وجد من يرد له ثأر ابنته.

ـ هو «الموت» أيها الشجعان.

خبأ فى أعينهم البريق، وتهاوت بنادقهم الى الارض

ـ ماذا تريد أن نعمل؟

ـ اقتلوه أيها الشجعان. ضحك الشجعان

ـ لن نقدر يا عبد الله بن عبد الله. قالوا هذا وهم يعودون الى همسهم ولغطهم حول أخذ الثأر من قبيلة «الغزلان» انتفض عبد الله بن عبد الله، وخرج مفجوعا، خائب الرجاء .. لقد جبن الشجعان. ومسك بيده اكتشافه الثانى

ـ الشجعان جبناء

ليعرف كل الناس فى بقاع الارض أن الشجعان جبناء. وذهب عبد الله بن عبد الله يبحث عمن يستطيع قتل الموت غير الشجعان لطالما ملأت أسماعه منذ أن كان طفل الحواديت حول الفارس الذى يعيش خارج المدينة عن قامته العريضة وعضلاته الفولادية، ونظراته القوية الصاعقة، وأيضا عن هجماته فى المعارك وعن حصانه الذى يسبق الريح فى عدوه وعن سيفه الذى لن يستعصى عليه رأسا فى يوم من الايام وصاح

ـ سأذهب اليه .. الى ذلك الفارس البطل، الراكب ابدا جواده، الشاهر ابدا سيفه. فهو الوحيد القادر على أن يقتل الموت. وعلى أبواب المدينة سأل

ـ أين أجد الفارس ؟

ـ ستجده فى البادية

ـ أعرف ولكن أى طريق أسلك؟

ـ كل الطرق تؤدى اليه، شمالاً، شرقاً جنوباً غرباً .. ستلتقى به أينما اتجهت، الا تعرف أنه الفارس المنتشر.

ـ شكرا، لقد عرفت.

ـ لا تنسى يا هذا أن تكلمه قبل أن تصل اليه، وتعلمه من بعيد، من أنت؟ وماذا تريد؟ والا قتلك.

ـ سأفعل :

وأوغل بخطاه خارج المدينة، وبعد أن سار حتى أعياه السير تلامح طيفا بعيدا عرف فيه الفارس .. اذا هو الفارس .. لا كلمة من هنا ..

ـ أيها الفارس البطل أنا عبد الله بن عبد الله، أتيت أريدك أن تقتل عدونا المشترك الذى قتل طفلتى الصغيرة، وقتل الاف الاطفال وأباد مئات الاجيال .. الموت .. هيا أشهر سيفك، وانطلق بجوادك، وحز رأسه المشئوم .. كسر بسيفك الفولادى مناجله القديمة الصدئة .. وأرح العالم من شروره هيا .. أما سمعتنى أيها الفارس؟

وتماوجت الاودية من حوله .. والهضاب التى تطل برأسها من بعيد .. بالصوت

ـ الفارس، ما عاد فارسا.

وتجاوبت أصداء النداء فى كل مكان ..

ـ الفارس ما عاد فارسا. وعادت فتحات الفضاء تقذف بالصوت فى صدى عميق أجوف حزين

- الفارس ما عاد فارسا ..

نصاب السيف فى يده مكسور .. وحصانه فى الحرب مات

وهزت ملامح عبد الله بن عبد الله، واهتزت رموش عينيه اهتزازات كثيرة وسريعة .. وحدق فى الطيف من جديد..

ولاول مرة تتضح له الصورة .. رأى الفارس .. ملابسه مخضلة بالدم .. ويده خالية من السيف سوى نصل مكسور .. وجواده المشهور لم يكن معه .. كان الفارس وحيدا .. وعجوزا .. وقديما ويخط بأقدامه على الرمال.

وفر عبد الله بن عبد الله راجعا .. وعندما سألوه على أبواب المدينة، هل وجدت الفارس أنبأهم عبد الله بن عبد الله باكتشافه الثالث .. قائلا

- الفارس ما عاد فارسا، نصاب السيف فى يده مكسور، وحصانه فى الحرب مات

وفى المدينة زادت حيرة عبد الله بن عبد الله، وزاد اصراره، أن الموت يجب أن يموت ولكن؟ كيف الشجعان .. جنبوا، والفارس فقد فروسيته، اذا من ؟ من؟ ليس أحد قادر سوى «القضاء»

القضاء هو العادل الحقيقى الذى سيقتص له ممن قتل ابنته

وذهب الى المحكمة ..

وفى القاعة الكبيرة رأى على المنصة «القضاه» كان شعر رؤوسهم مجللا بالشيب، وعلى وجوههم ترتسم ظلال كثيرة من التجاعيد .. كأنها واحات العدالة.

واطمأن عبد الله بن عبد الله، وتنفس بارتياح شديد وقال فى نفسه

- ها أنا بين أيدى حراس العدالة.

وزاد اطمئنانا وارتياحا عندما رأى ميزان العدالة مرسوما على الجدار من وراء القضاة .. كان الميزان مستقيما، وعادلا حقا. وارتفع صوته فى خشوع كأنه يرتل طقوسا دينيه

- أيها القضاة المبجلون ؟ أيا حراس العدالة الافاضل؟ يا من لولاكم ما رفعت الطمئنية والسلام فى ربوع العالم ..

بعد أن حياهم بهذه العبارات المشكورة، رأى عبد الله بن عبد الله أن يدخل فى صميم الموضوع

- أريدكم اليوم أن تقتصون لى ..

- من أنت؟ وممن تريد أن نقتص لك؟

ـ أنا عبد الله بن عبد الله، أريد القصاص من مجرم زنيم .. ارتكب جريمة قتل طفلتى الصغيرة مع سبق الاصرار والترصد .. أليس الحكم فى هذه الحالة هو «الاعدام»؟ دس القضاة رؤوسهم بعضها فى بعض .. ثم جاءه الرد

ـ نعم .. لكن من هو القاتل؟

ـ هو «الموت» أيها القضاة المبجلون. هيا اقبضوا عليه. واحكموا عليه بالاعدام شنقاً لينال جزاءه العادل على أيديكم. وعاد القضاة يدسون رؤوسهم بعضها فى بعض .. ثم ردوا عليه ردهم الاخير

ـ لن نقدر ياعبد الله بن عبد الله. حتى القضاء يارب؟

وخرج عبد الله بن عبد الله مصدوما .. ليكتشف اكتشافه الرابع

لا .. ان القضاء ليس عادلا.

ان كل موازين القضاء فى العالم تهتز، انها تطلب الى أسف وأعلى، انها لا تعرف كيف تحزن بحق.

ان ميزان القضاء كميزان بائع جوال، لا مستقيم ولا معتدل. ورجع عبد الله بن عبد الله الى بيته ..

وعندما رأى الدموع تلمع فى وجنات زوجته، تذكر ابنته التى ماتت، وتذكر ان الفارس ماعاد فارسا، وأن الشجعان جبناء، وأن القضاء ليس عادلا. وأن الموت لم يجد من يقتله.

عندما تذكر كل ذلك، قرر عبد الله بن عبد الله أن يحزن.

من اليوم ستكون دقات قلبه حزينة، وايقاع خطاه على الطريق ايقاعا حزينا، والنظرة من عينيه تطل حزينة، والصوت يخرج من حنجرته ملونا بالحزن .. وأنفاسه تتردد بحرقة وبحزن.

وكل شيء فيه سيكون حزينا. سيفتح للحزن أبواب بيته، وابواب قلبه، وأبواب نفسه؟ سيهئ له عشا هادئا بين ضلوعه.

وفوجيء عبد الله بن عبد الله باكتشاف خامس فقد اكتشف بأن الحزن ما عاد بقادر على أن يجعله حزين. اكتشف عبد الله بن عبد الله أن هيكله الجسمانى الانسانى هذا، لم يعد ممكنا أن يسرى مفعول الحزن بين عروقه فجسمه هذا الهش الرخو المرن اللين، هو فى حقيقتة منيع كالقلعة. انه آخر نتاج الاجيال، وأن الاف الاف الاجيال التى عبرت جسر الحياة من قبلة قد أودعت جسمه كل أسرارها وورث كل عذاباتها والامها. فجسمه الآن مستودع لعذابات البشر.

ان آلام آدم الاولى، هى هنا فى جسده تعتقت واختمرت وامتزجت مع عذابات كل الاجيال التى توافدت بعد آدم .. ان كل خلاياه، كل المسام فى جسده .. محشوة بعذابات الاجيال هى أدرج مليئة

بميراث لا حد له من ألم البشر .. من الآلام التى تجعل جسده الآن صلباً منيعاً أمام الحزن .. ان مفعول الحزن يتبخر عندما يصل الى جسمه الانسانى .. بل ان الحزن يفقد مناعته أمام مناعة جسده .. وبدلا من أن يحزن .. يرتد الحزن حزينا .. بالاكتشاف البالغ القسوة ..

ان الحزن يرتد أمام جسده المنيع .. حزينا مهموما .. الحزن حزين، الحزن .. ذهب عبد الله بن عبد الله يبشر باكتشافه بين الناس.

وذات يوم رأى نفسه وسط جموع كثيرة تردد اكتشافاته وترفعه بين الحين والحين على أعناقها. وتساءل عبد الله بن عبد الله من وسط الزحام

ـ أين أنا؟ وردوا عليه

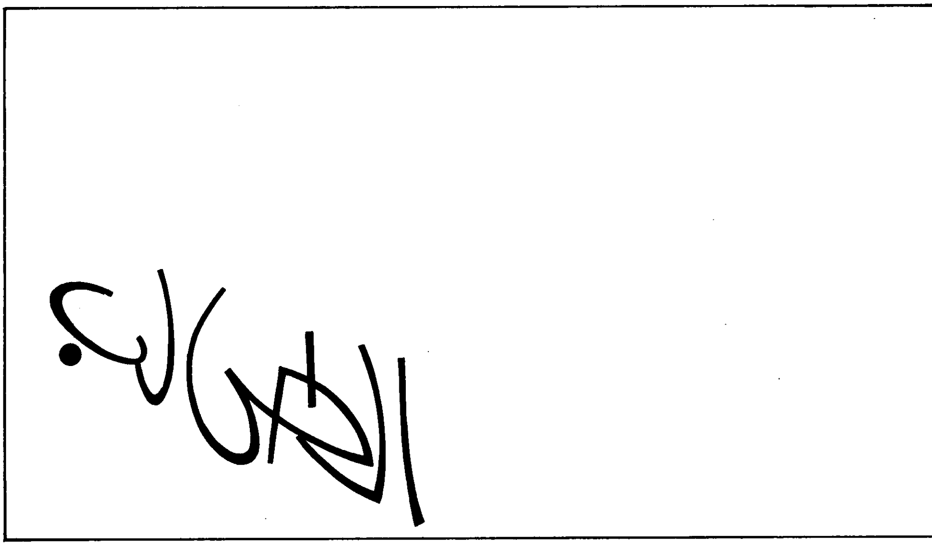
ـ لم يعترف العقلاء باكتشافاتك، وها أنت وسط المجانين؟ أنت اليوم مجنون يا عبد الله بن عبد الله

التفت عبد الله بن عبد الله يستطلع وجوه المجانين، ورآهم من حوله فرحين بترديد اكتشافاته .. واستطاع عبد الله بن عبد الله فى هذه اللحظة أن يمسك بكلتا يديه اكتشافا جديدا..

ـ هاكم آخر اكتشافاتي ..

وبلغهم عبد الله بن عبد الله باكتشافه السادس الذى أخذوا يرددونه وراءه .. كان الاكتشاف السادس يقول «ان العقلاء الوحيدين فى هذا العالم .. هم المجانين»

■



الفرحة .. الفرحة .. تغمر وجوه الاطفال الصغار الذين يتسلقون الاعمدة المتناثرة وسط الميادين ويبثون على أصابع أقدامهم فوق حديد الدرجات المسندة على الجدران. ويزحمون بأعمارهم الصغيرة وقمصانهم الزاهية، هذه البقعة من الميدان التي حولي.

الفرحة .. الفرحة .. تستبيح قلوب الشباب الذين تتدافع أقدامهم وانفاسهم اللافحة على أرض الميدان ويتزاحموا أفواجا فوق البنايات التى حوله، ويصعدون الى قاعة التمثال الذى ينتصب كأنه الماضى العظيم الذى فى وسطه، يعانقون ابن ليبيا الاكبر سبتموس سفروس، ويبتعدون لهم كل أماكن فى قمم أشجار النخيل يشرفون منها على التاريخ وهو يبتسم فى قلب هذا الميدان !! الفرحة .. الفرحة .. تنطلق مفعومة بالشوق والتأثر من أيدى الرجال التى تصفق للحرية، وأفواههم التى تهتف هتافات النصر، فى عيد النصر، حتى الصبايا فى البيوت يستشعرون بالفرحة تهز أعطافهن الصغيرة، فيعانقن مباهج الشعب من خلف شيش النوافذ ومن خلال البلكونات.

وهذه المرأة العجوز التى تصفق. وتهتف. وتشق بعكازها الزحام، كان واضحا أن الشعور يملؤها بأنها قد ساهمت فى صنع هذه اللحظات، لذلك فهى مصرة على أن يكون لها مكانا فى مقدمة الصفوف. انى أفهمه تماما شعور هذه المرأة العجوز، اذ أنه نفس الشعور الذى ينتفض بجزئياته الصغيرة داخل أعماقى، فالستون عاما ـ ياابنائى ـ اشعر بها الان نشوانه تهتز تحت أقدامى

وعلى أجنحة من هذه الفرحة التى تغمركم ايها الابناء المعيدون. وهذه الهتافات التى تهتف للنصر فى عيده الكبير تنطلق من أفواهكم. وهذه البسمات التى تملأ وجوهكم من حولى.

شعرت بنفس أطوى المسافات بأميالها وأبعادها واحلق الى بقعة بعيدة من التاريخ. حيث تأتى لى ذات أمسية قائضة الى أن أكون من ضمن المساهمين فى صنع هذه اللحظات.

ارجوكم .. لا تحرجوننى بالسؤال عن كم كان عمرى وقتها. فانا انسان من مجموعات انسانية ولدتها الاحداث وأبناء الاحداث لا يقيسون أعمارهم بالسنين العادية التى نعدها. اذ أنهم لو فعلو ذلك لاضطربت الارقام ولكانت الحسبة زاخرة بالاغلاط .. نعم فالفرق شاسع بين اعوام الاحداث والسنين التى اعتدنا أن نحسب بها. صدقونى فهكذا ـ ياابنائى ـ علمتنى الحياة.

كما اننى أنا نفسى لا أفهم على وجه التحديد كم كان عمرى وقتها، يبد استطيع أن أقول ـ أن هذا العمر ـ بالتأكيد لم يتجاوز الخامسة عشر عاما.

لا تعجبوا من هذا الانسان الذى لا يعرف تاريخ ميلاده، فعلى أيامنا ـ ياابنائى ـ لم تكن هناك شهاده ميلاد يذيلها موظف متجهم الوجه بامضائه المكسر، ولم نكن بالتالى نعمل حسابا للاعمار.

الريف، كان مهد أيامى التى صبغها بلونه، فاضحت أياما خضراء.

حياتى الصغيرة، بمساحتها الضيقة، كنت أجوبها بعواطفى الطفولية البريئة وأقدامى الصغيرة الحافية .. وانا سعيد منتهى السعادة

مع بواكير الصباح أذهب بشياهنا الى المراعى القريبة، ومع ظلال المساء الباهتة الشاحبة، أعود محملا بالشوق الى وجه أمى ووالدى (ومخلتى) المطرزة بنقوش جميلة زاهية تتدبدب دائما فوق ظهرى مثقلة بأرنب أو قنفد أو حتى ضب يحلى لنا بلحمه العشاء. فلم أكن أعمل شئ آخر سوى أن ارعى شياهنا التى لا تتجاوز عددها الثلاثون شاه، واضرب (المقرونة)، واعدو خلف الارانب الصغيرة، واكوم الاحجار امام كل عش اعثر علية من أعشاش الطيور حتى يمكننى دائما الاهتداء اليه. واحيانا أترك الشاة ترعى وأظل اختار كثبان الرمال التى يمكنني ان اتدرج فوق رمالها بسهولة، وفى الليل كنت اذهب (بالمنداف) حتى اذا ما عثرت على بقعة بها أثر اقدام لارانب أو ثعلب عنيد، حفرت له حفرة صغيرة (نصبته) بها وواريته بقليل من التراب. ورجعت.

على هذه الوتيرة كنت أعيش أيامى.

وبدأ الموقف غامضا على ادراكي الصغير، اذ صرت المح تغيرا ظاهرا فى الاجواء التى تحيط بى، موجة غير عادية من الاضطرابات تجتاح النجع الذى يضمنا. امى باستمرار تبكى لأن أختها ماتت بالقرية. .تبكى وهى أمام الموقد المحفور فى الارض يغمر وجهها الدخان وقد انهمكت تطهى لنا (البركوكش) او (البازين)، وتبكى وهى تحلب الشياه التى اظل انا ماسكا بها من شعور أعناقها. واسمع نشيجها الذى اشعر به يفتت كبدى فى وهدة الليل عندما انام، فلا املك الا ان ابكى من اجل بكائها.

النسوة يجتمعن صباحا فى بيتنا، يبكين مع امى بكاء حزينا مرا، أشعر بوقعه القاسى فى قلبى. سعدون الفحام العجوز، يضرب اطفاله الصغار كل يوم ويشتم العالم ويصيح بصوته المشروخ لأن مطيرة الزرع التى له بوادى سوف الجين، احرقوها، امرأة غريبة ذات سحنة ترابية باهته .. الدموع تسح فى حرقة من عينيها، نزلت ومعها طفلها الصغير على بيت جارنا الحاج المبروك، ويقولون أن زوجها قتلوه. الوجوه غدت جميعا مكتئبة بائسة حزينة وقد ازادت مع الايام شحوباً وصفرة وتجهما.

الاحاديث التى تدور بين القوم فى خفوت كانت تبدو كالسحب الشتوية التى تنذر بالخطر. الرجال الكبار يجتمعون وعلى وجوههم تتبعثر سحب غامقة ينكثون الارض بأعواد صغيرة، ويرسمون فوق التراب خطوطا ساذجة مكسرة .. وينفضون !!

البكاء لم يعد غريبا فى أى لحظة من الصباح أو المساء أو منتصف الليل. يصدر عن أى جهة لان انسانا قد مات الافق البعيد قد اضحى هو الاخر عامرا بالدخان الاسود، الارض التى كان يضوع شذاها الطيب العطر، اكتسبت رائحة اخرى شعرت بها غريبة على انفى. المراعى الزاهية الخضراء التى كانت ملئ المدى تتماوج بالاعشاب والحشائش النضرة اخذت تفقد لونها الاخضر شيئا فشيئا فراخ العصافير الصغيرة التى تنام فى سكينة داخل الاعشاش، اضحت تفقد سكينتها فدائما اراها لا تكف لحظة عن فتح مناقيرها الصغيرة. شبح غامض معقد مطموس المعالم يلفه الضباب. هكذا كان الامر امام ناظرى. علامات استفهام ضخمة تحنى قامتها فى حيرة، تتزاحم داخل رأسى حتى ليكاد ينفجر، علامات اشعر بها اضخم من هذا الرأس الكروى الصغير الذى تعلوه الطاقية متآكلة الحواشى. والذى ينتصب فى دعر فوق اكتافى الهزيلة. واخيراً، تأتى لى ان اعى كل ما حولى دفقة واحدة.

كان والدى قد غاب لمدة ثلاثة ايام. ووالدى اصبح يغيب كثيرا فى الاونة الاخيرة، وقد كنت حائرا فى سر غيابه المتكرر الغريب حتى انه فى احدى المرات رجع من غيبته وقد تلطخت ملابسه بالدماء من اثر جرح كان ينز من ذراعيه وعندما سألته، اخذنى بذراعه السليم فى حضنه وقبلنى ولم يقل شيئا. وحائر ايضا من امى التى اراها تبدو خائفة وجلة، كلما رأت والدى ياخذ بندقية ويرتشفه الافق اما فى هذه المرة فقد عرفت بانه ذهب الى القرية مع الشيخ عبد العالى شيخ قبيلتنا والحاج مبروك جارنا، واناس آخرين لا اعرفهم، ذهبوا جميعا ليتحدثوا فى امر من الامور مع اناس أغراب جاءوا الى قريتنا سمعت امى تقول عنهم، انهم يرطنون بكلام غير كلامنا وانهم كفار لا يصومون ولا يعرفون الله. وكان ذلك ذات أمسية من أمسيات أواخر الربيع .. كانت الشمس تصلى بلهيب أشعتها الكون والرياح القادمة من الجنوب تهب محملة بالعرق والضيق والتدمر، وتعصف بخيمتنا الصغيرة السوداء التى نقطنها. وفى المساء كان يهوم غراب أسود كأنه النذير .. عندما رايت جملنا الذى سافر عليه والدى الى القرية، والذى كان يحلوه ان يسميه «الازرق» للون جلده الضارب الى الزرقة، يترنح بعدائله الثقيلة التى تعلوه .. يقوده خالى سليمان ناحية بيتنا وتعجبت لان والدى لم يحضر معه، فقد اخبرنا قبل ان يذهب بأنه سيرجع مساء هذا اليوم. لذلك لم اذهب للرعى بعيد عن الخيمة حتى اكون فى استقباله

عندما يعود، وفى استقبال القميص الجديد الذى وعدنى بأنه سوف يحضره لى معه والذى اوصيته بان يكون من القماش المخطط بالابيض والاخضر. لكن ها هو الجمل والعدائل .. ووالدى لم يحضر .. اتى بدلا منه خالى سليمان

ـ السلام ..

منقبضة منكمشة حزينة، ارتمت فى وهن واعياء من بين شفتى خالى.

ومد لى يده فى تثاقل وبرود، ورأسه منكس الى أسفل وهويشد بزمام الجمل كى يبرك ـ اخخخ .. اخخخ.. وبرك الجمل وهو يرغي والزبد يتطاير من فمه المشقوق لكأنما شعر بمصيبة نزلت عليه.

اقحمت بنظراتى العدائل المحملة فوق ظهر الجمل. وفوجئت بالحدث المروع، فنى قلب العدائل الكبيرة كان والدى والرفاق الذين معه، أتوا يلتصقون ببعصهم بعض ويرتمى كل منهم فى احضان الاخر، لكأنما التقوا بعد غياب طويل. لقد اتى والدى ومعه عنقه المكسور ووجهه الازرق المفحم، وابتسامة الموت التى تتارجح فى وهن على شفتيه.

وأصبت بذهول .. ولم افعل شيئا .. سوى صرخة ملتاعة محروقة انطلقت من فمى كالقذيفة. ثم لا شئ الارض التى تميد من تحت اقدامى .. والاشياء التى تختلط فى رأسى والدى ورفاقه والدم والجمل والسماء والارض .. الكل تحول عجينة واحدة .. و .. ارتميت على التراب لا أعي شيئا.

وعندما افقت عرفت كل شئ فى كلمة واحدة كانت هذه الكلمة هى «الطليان».

ومن خلال رائحة الموت التى تغبق فى الجو، والنحيب المتصل الحزين الذى يتصاعد فى حلقات رتيبة، كانت كلمات خالى الهادرة التى يحدث بها امى واهل النجع، تتدفق ـ بصحبة هذه السيمفونية الحزينة ـ الى خزان اعماقى. كان خالى يتحدث عن «العمايل» التى يرتكبها هؤلاء الايطاليون، يتحدث عن والدى ورفاقه، ولماذا قتلوهم، وكيف عرضوا عليهم ان يسكنوهم القصور المنيفة ويزوجونهم الايطاليات المستوردات من شوارع روما ويعقدون فوق رؤوسم الويةالمناصب العالية بشرط واحد هو ان يسلموا الارض ويكفوا عن المقاومة لكن احرار هذة الارض ركلوا باقدامهم نعم الطليان المزعومة. وصرخوا فى وجوههم بان اخرجوا فالارض السمراء الصلدة ستبقى تحت اقدامنا. والوطن سيظل دائما لنا. وما كان من جنود ايطاليا الا ان دفعوا برقابهم لتقصفها حبال المشانق.

رائحة الموت لا تزال تغبق فى الجو .. صارخة مولولة كأنها تستنجد بنا. النحيب الحزين يعزف سيمفونيته ذات اللحن الذى يتماوج فوق رؤسنا اسودا حالك السواد وصوت خالى الحزين العميق المشروخ .. لا يزال يتدفق فى خزان اعماقى.

كان خالى يتحدث عن هؤلاء الطليان الذين يردون ان يسحبوا الارض من تحت اقدامنا وفاتهم ان اقدامنا منذ الابد ضاربة فى اعماق هذه الارض كما يحدثنا عن تفتيشهم للقرية .. كانوا يتذرعون

بالتفتيش عن السلاح كى ينهبوا مصاغات النساء ويرمون بغداء العائلات فى سياراتهم المغبرة الصفراء، ورصاصاتهم الطائشة تملأ الجو .. تبقر بطن امرأة. وتطير رأس شيخ عجوز، وتترك طفلا صغير كان يلعب، يسبح فى بركة حمراء من دمه.

وتنتهى كلمات خالى ..

وينمو لدى شعور بان للحياة مفهوما آخر كبير .. يدعونى لكى اقتحم رحابه، وغليان فى اعماق، بكاء امى المبحوح الحزين، مطيرة الزرع المحروقة، الدموع فى عينى المرأة الغريبة، النظرة المنطفئة فى عينى والدى وعيون رفاقه، واخيرا القرية التى تحدث عنها خالى. كل هذه شعرت بها تغلى وتتطاحن داخل اعماق. وتتحول الى حقد هائل مقدس احسست به كنبات الطحالب ينمو بداخلى، وتمد هذه الطحالب وتزداد غزارة كلما ازداد مسيل الدموع فى العيون التى حولى، لكأنما هى تستمد حياتها من ماء الدموع. وتتشابك أغصان هذه الطحالب، وأشعربها تملأ اركان قلبى وخلاياه، اشعر بثقلها ووهجها وباوارقها وقد اخذت تعصف بها الرياح الهوجاء. فاحس بالوهج، واللفح ومن ثم يتولد شعورى المحرق بالعطش.

وتنتابنى رغبة ملحاحة فى ان اطفى غلة هذا العطش وكان بديهيا ان آخذ طريقى الى بحر طامى من الدم سوف اقتل المئات من قاتلى والدى وسارقى البسمات من افواه الناس الذين حولى، هكذا كنت اقول فى نفسى، فهذا هو الطريق لان اطفى عطشى، واروى غلة الحقد الكبير الذى يأز كانه رحى سريعة الدوران داخل اعماق.

عمرى الذى لم يتجاوز الخمسة عشر عاما كما ذكرت لكم، لم اشعر به فى تلك اللحظات. نعم. انه الانسان عندما يلحق بأجنحة من وطنيته وعواطفه الجياشة فوق تحاريش الزمان ..

– ايهون عليك ياحسين ياولدى تمشى تطفى غليلك منهم .. وتسيبنى بروحى نأكل فى بعضي؟ لا ..

لا ياوليدى انى مانقدر نقعد ... حتى انى لازم نمشى.

كانت الكلمات تندفق من بين شفتى امى فى حرارة وتوهج وعتاب، وعينها كانتا تومضان بوميض مشع غريب. حتى تجاعيد وجهها وتغضناته، انسدلت فى خطوط مستقيمة غريبة. وعرفت .. عرفت انها الطحالب تضرب عروقها فى اعماق امى. انا لا اصدق ان هذه الام هى التى كانت بالامس تبدو جزعة على والدى وهو يرتشفه الافق ذاهبا الى الجهاد ..

– انتى تريدنى نقعد .. لكن لا انى ما نقدر .. ان كبدى دم عليهم.

كانت امى تريد ان تثأر

لقد وصل الى علمها اخيرا اننى صممت وبعض الرفاق على ان ننتقم للدماء التى سفكت غدرا،

دماء والدى ودماء الالوف من امثال والدى، ورفضت لامى ان تذهب معى الى المعركة، قلت لها انها امرأة عجوز من واجبها ان تبقى فى بيتها وان تترك الجهاد للرجال فهم اولى بضرب النار. واخذ الثأر. لكنها لم تقتنع، قالت لى انها تريد ان ترى قاتلى والدى يجندلون فى دمهم، كما ان بامكانها ان تساعد بتضميد الجراح وتعمير البنادق للمجاهدين، وتحضير الطعام لهم، وكلام كثير آخر انهيته من طرفى بـ.....لا.

لكنها ها هى تلح مرة اخرى.

اخرجت البندقية من «غرارة» الشعير التى كانت مخبأة بها. ونفضتها من التراب والحبيبات العالقة بها. وبقيت صامتا. ثم رأيت امى تنحنى فى هدوء غريب على (المخلى) المزينة بالنقوش تودع فيه رداءها القديم وتصنع بها صرة كبيرة من «السويقة» وارغفة الخبز .. وقلت ـ شن اتديرى؟

لم ترد، نظرت نحوى فقط، ثم استقامت بقامتها

ـ هيا اخلاص ياحسين .. هما رفاقتك وين؟

استمريت فى مسح البندقية بخرقة بالية، ولم اتكلم فى حين استطردت هى

ـ انى اهو اخلاص .. واتيه.

قالت كلماتها فى بساطة وكأن كل شئ تم بأنى سآخذها معى، يا لهذه الام كم هى عنيدة، هل اكرر على مسامعها مرة ثانية بانه لا يمكننى ان اجعلها تذهب معى، لن تذهبى، اتفهمين، وفتحت شفتى ـ اسمعى انت مش ممكن ..

وقاطعتنى وهى ترمى بنظراتها بعيدا خارج الخيمة ..

ـ هذوم ارفاقتك .. اوينهم جايين.

لكن هى مالها ومال رفاقى. ان للرجال ميادينهم وللنساء ميادينهم الاخرى، هل يصر الرجل على ان يقوم بالرضاعة والولادة. لماذا تصر هذه المرأة على اقتحام ميادين الجهاد، وهى للرجال ـ حسين.

كان النداء هذه المرة قادما من الخارج، كانوا ثلاثتهم ، عامر وعاشور والهادى، الثلاثة الذين اتفقت معهم على الانتقام، وعلقت البندقية فوق كتفى واخذت (مطرة) الماء بيدى الشمال وهممت بالخروج ـ مش اخلاص ياحسين .. مش حتى انى معاكم.

لقد انهارت مقاومتى امام النظرة التى تطل من عينى امى ومع ذلك ابديت شيئا من الصلابة علني اكسب الموقف

ـ لكن الخيمة والشياة .. لمن نتركهم؟

ـ الشياه خذاهم عمك سعدون مع شياهه، والخيمة قلت لعمتك زينب تطويها.

اهدابها الباهتة لا تزال معلقة بشفتى ..

التجاعيد التى انسدلت في خطوط مستقيمة فوق وجهها تجعلنى، اوافق. ومع ذلك لم اتكلم تكلمت هى، ـ مش خلاص ياحسين. مش خلاص.

وبدون ان اشعر وجدتها تنفلت من شفتى ..

ـ خلاص .. هيا معنا ..

وغمرتها فرحة أشبه بفرحة الاطفال، واخذت (المخلى) فوق ظهرها وهى تمسك بيدى ولم يتكلم الرفاق الثلاثة عندما وصلناهم امسكو بيدى انا وامى، وسرنا.

وشعرت ان نبات الطحالب الذى ينمو بقلوبنا، يمتد باغصانه فى تلك اللحظة ليتشابك

فى طحلبة كبيرة عملاقة، تتهوى عبر الارض البيرة الواسعة لتحقيق المصير

ـ كركب .. كركب .. كركب.

كانت تلك هي الاحجار الصغيرة تتدحرج. بكركبتها اللذيذة تحت اقدامنا وكانها تقول لنا على بركة الله.

ومضى موكبنا الصغير .. ينداح عبر الارض كالرافد الذى يصب ويتجمع مع روافد اخرى كثيرة، ليخلق الموقف الزاحف الكبير. الذى يجتاح السدود. ويصنع التاريخ. ويطوح بعيدا باعداء الانسان.

■

ذات ليلة ابريلية رائعة

حبيبتى .. سأحكى لك فى هذه الرسالة القصيرة، كيف تأتى لى ذات مرة .. أن أنتصر على القمر.

كان ذلك فى منتصف ليلة ابريلية رائعة عندما راودتنى ياحبيبتى فكرة هى أن أرتدى ملابس وأضع قدمى فى الحذاء، وأخرج فى رحلة صيد. لا لكى أصطاد ياحبيبتى الغزلان ولا لكى أوجه فوهة بندقيتى القديمة التى ورثتها عن والدى لاكسر أجنحة طيور الحجل أو السمان أو القنبر .. ولا حتى لكى أطلق رصاصتى لأقتنص لى وعلا .. ذاقرنين طويلين لولبيين.

كلا ياحبيبتى ..

فما فكرت فى اصطياده تلك الليلة لم يكن صيدا عاديا يحتاج ـ كما أفعل دائما ـ الى أن أحمل من أجله بندقية الصيد العتيقة على كتفى ..

أبدا .. فقد أردت ليلتها .. أن أصطاد قمرا .. كل ما سأفعله هو أن أشد القمر من أطراف خيوطه .. تلك الخيوط التى تسترسل منه رقيقة ناعمة فضية اللون

وبكل ما فى جسمى من قوة متواضعة سوف أسحبه من هذه الخيوط وأواصل عملية سحبه وجره حتى يسقط بجانبى على الارض ومن ثم آخذه معى لاقدمه ياحبيبتى هدية متواضعة اليك .. يوم عيد ميلادك.

وهكذا فعلت ..

كان القمر فى تلك الساعات من آخر الليل يرسل اسلاكه الفضية الرفيعة الناعمة من المكان الذى وصل اليه من جهة الغرب .. وقد تجلى فى هالة من النور تتوهج من حوله في غزارة وخصوبة والق.

كان جميلا ياحبيبتى وحلواً.

وجهه وضئ لامع ، وكنت أنا أتوقد سعادة لاننى سأقتنص هذا الشئ الجميل وأقدمه ملفوفا بغلائل رقيقة من أشواقى وهيامى هدية أضعها بين يديك ..

كان قد قطع شوطاً جميلا من رحلته الشاقة عبر منطقة السماء .. وما زالت أمامه مسافة صغيرة ينهى بعدها الرحلة ، لا شك أن المشوار الطويل أتعبه ، اننى أتعجب كيف يستطيع على ما له من الرقة والرهافة والنعومة أن يعبر هذا البون السماوى الشاسع..

على أى حال فاننى سأوفر عليه مشقة قطع المسافة المتبقية .. سأقتلعه فى الحال .. وأسحبه حتى أحضره هنا بين يدى.

وهيأت نفسى لعملية سحبه.

سويت مواضع قدمى وأثبتها فى الأرض جيدا .. وحسرت أكمام قميصى عن ذراعى ونفخت بأنفاسى فى كلتا يدى لابعث بهما شيئا من الحرارة والنشاط .. وأبقت بأصابعى على الاسلاك الفضية الرقيقة .. وسحبت ..

وماحدث بعد ذلك فقد كان شيئا يدعو الى الالم حقا .. ذلك ان الاسلاك القمرية الرفيعة كانت أوهى من أن تحتمل .. فسرعان ما انقطعت فى يدى ..

القمر .. ظل فى مكانه البعيد يبتسم .. لا .. انه لا يبتسم يا حبيبتى بل هو يضحك يقهقه شئ واضح انه يقهقه سخرية بى وبخيبتى.

وكم وددت فى تلك اللحظة .. لو أن خيطاً من الخيوط الفضية .. خيطاً واحداً فقط ، بقى متيناً ولم ينقطع لكنت مسكت به .. وتسلقته صاعدا الى القمر حتى أصل اليه ، وانزل بها صفعة قوية على وجهه. عمومنا ياحبيبتى فان القمر فى النهاية لم يملك الا أن ينهزم أمام حبيبك.

ذلك أننى عندما لم أستطع الصعود اليه لاجازيه على سخريته بى ، حدجته من موقفى بنظرة ساخرة ولم أر بأسا فى أن أصحبها بمصمصة هازئة من شفتى .. ثم انفجرت ضاحكا فى وجهه. ضحكا خرج من فمى عاصفة من الضجيج والعربدة ، فقد ضحكت بكل قوتى حتى أجعل ضحكاتى تعلو على ضحكاته.

وساعدتنى الوهاد القريبة .. وزوايا الليل عندما رددت معى الضحكات فى صدى مفرقع عارم كأنه الهدير ..

عمر أبو بكر المريش

وهكذا استطعت أن أكسب الموقف وأن أضم الى صفى أصدقاء جدد يشاركوننى الضحك والسخرية بالقمر ..

ولم يكن شيئا غريبا ياحبيبتى حينذاك أن أرى القمر يتوارى من أمامى، يختفى، يغوص فى باطن الافق فى خجل .. وبوجه محتقن بالحمرة، معترفا أصرح اعتراف أنه انهزم أمامى أنا الفارس من بنى الانسان.

وعندما أفقت ياحبيبتى من النوم على صوت قهقهات كنت أنا مصدرها، لم أصدق أننى كنت نائما، وأننى أحلم .. تهيأ لى منذ تلك اللحظة أن ما مر بى ليس أبدا حلما وانما هو شئ حقيقي وقع معى بحق وصدق وحدث لى فى حياتى اليومية التى أعيشها وأنا يقظ صاح عيناى متفتحتان على وسعهما ..

حتى وأنا أكتب اليك ياحبيبتى هذه السطور بعد أيام طويلة مرت .. لا زلت واقعا تحت هذا التأثير كون ما حدث لى لم يكن أبدا من أضغاط الاحلام، أو مما يراه الانسان فى ساعات النوم .. لكنه شئ وقع لى فى لحظات لم أكن فيها يقظا فقط بل وممتلئا باليقظة، شاعر بها بعمق وصفاء .. هذه اليقظة.

كذلك وأنا أتذكره الان ...أتذكره لا كما يتذكر الانسان حلما شاط فى الخيال مر به ذات ليلة وانما أتذكره الآن .. تماماً .. كما أتذكر لحظات لقانا .. كما اتذكر كلماتك التى تقولينها لى .. كما أتذكر وداع أمى لى على المحطة عندما أسافر .. كما أتذكر كل شئ مر بحياتى هو واقع وحقيقة وصدق.

بل وأكثر من هذا أشعر حيال هذا الحادث بشعور غريب .. أجدنى مدفوعا لأن أعترف لك به، فأنا لا أحس حياله أنه فقط شئ حدث لى فى يقظتى وبحق وحقيق بل وأتعدى هذا الاحساس الى أن هذا الموقف دون المواقف التى صادفتنى فى حياتى أشعر بأنه موقف كالكائن الحى له نبض وله حركة وتتردد منه الانفاس.

وما دمت قد اعترفت لك بهذا فلاضيف مكملا اعترافاتى .. انى فى كل الليالى التى أعقبت تلك الليلة أواضب على أن أقوم من نومى بعد منتصف الليل، وأقف بشرفة البيت لالتقى بعينى مع القمر أو أنتظر بزوغة اذا كان لم يظهر بعد ..

وعندما أنظر اليه يغمرنى شعور جارف بأن القمر أيضا يرمقنى بنظرة خاصة ..

فقط أحس بأن فى نظراتى لمعة انتصار، والنظرة التى يرمقنى بها فيها الشئ الكبير من معانى الهزيمة.

وحتى نلتقى لك حبى .. !!

■

● المحتويـــات ●

صفحة

تصميم الغلاف : م . محمد العتر

طبعت بمطابع
دار ليبيا
طرابلس ـ هاتف: ٤١٢٠٢-٤٢٢٥٩-٤٧٢٨٦
Roma Tel. 4129409—4124741—4124893

الكتاب والتوزيع والاعلان والمطابع

L.D. 1,050